الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

نماذج من المقاومة البلدانية للعدوان الصليبي والمغولي على العالم الإسلامي (490هـ- 658هـ/ 1096م- 1260م)

– دراسة مقارنة –

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط – مشرق إسلامي–

إعداد الطالب:

حمزة قادري

إشراف الدكتور:

كمال بن مارس

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د/ إسماعيل سامعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسًا
د/ كمال بن مارس	أستاذ محاضر	جامعة قالمة	مشرفًا ومقررًا
د/ محمد فرقاني	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر	عضوًا
د/ رشيد باقة	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوًا

السنة الجامعية 1431هـ - 1432هـ / 2010م – 2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} ﴿17﴾ **"سورة الرعد"**

صدق الله العظيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء

إلى أمي وأبي حفظهما الله.

إلى إخوتي الأعزاء ....

إلى أصدقائي الأوفياء....

إلى تلاميذي الأشقياء....

إلى كل طالب علم....

أهدي ثمرة هذا الجهد

حمزة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

قال الله تعالى : ﴿ رَبِ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَ وَعَلَى وَالِدَيَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَالِحِينْ ﴾

نبدأ بشكر خير الشاكرين، فنشكر الله تعالى ونحمده أن وفقني وهداني ومنَّ علي بهذا التوفيق والسداد في إخراج هذا العمل إلى النور

كلمة شكر وعرفان ملؤها الاعتراف بالجميل للأستاذ المشرف، الدكتور كمال بن مارس الذي هيأ لي كل سبل البحث، فكان نعم الدليل وخير الناصح، ورمز للتواضع المليء بالمهابة ومثالاً للأستاذ المخلص في عمله.

كما لا يفوتني أن أتقدم أيضًا بالشكر الجزيل إلى كل الدكاترة الذين أشرفوا على تدريسنا خلال العام النظري، وأخص بالذكر

رئيس قسم التاريخ بجامعة الأمير عبد القادر،

الدكتور محمد فرقاني.

دون أن ننسى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إخراج

هذا العمل إلى النور

إلى كل هؤلاء جزيل الشكر والعرفان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شهد العالم الإسلامي منذُ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، اضطرابات داخلية خطيرة، نشأت نتيجة مجموعةٍ من الصراعات، نشبت بين القوى التي حكمت في الدولة الإسلامية من عباسيين وسلاجقة وفاطميين، وكذلك التي ظهرت بعدئذ كالأتابكة والأيوبيين وأخيراً المماليك، فكانت على ذلك سِمة الصراع والتطاحن عنوانًا لعلاقات العديد من القوى الإسلامية بين بعضها البعض خلال تلك الفترة.

كان لهذا التمزق الداخلي في الدولة الإسلامية أثرٌ كبير على الحياة السياسية فيها، مما دفع بالعديد من القوى الخارجية إلى التطلع نحو الاستفادة من ذلك الوضع، بغية الإطاحة بهذه الدولة العريقة التي امتدت إلى جميع أقاصي الدنيا شرقًا وغربا مالكة بذلك معظم أراضي العالم القديم.

أخذت تلك القوى تزحف على ديار الإسلام، واضعةً أمام جندها أهدافًا تستنفرهم وتدفعهم للمُضيِّ قُدمًا نحو تحقيقها، مُنَين إيَّاهم بمختلف الملذات التي سيحصلون عليها في أقاليم المشرق الإسلامي، حيث تكفَّل الإفرنج بالجهة الغربية لهذه الدولة، قاصدين بلاد الشام والجزيرة ومصر، في حين تكفَّل التتار (المغول) بالجزء الشرقي منها بدأً ببلاد ما وراء النهر، فضرب بذلك على الدولة الإسلامية حصاراً من جانبيه، من قبل جنسين مختلفين جمعهما هدف واحد تمثل في إسقاط راية الإسلام وإطفاء نوره.

تقدمت الجيوش الصليبية منذ سنة 490هـ/ 1096م في شكل حملاتٍ متقطعة بهدف تحقيق غاية البابوية في استرداد الأماكن النصرانية المقدَّسة من المسلمين، فاستطاع هؤلاء خلال سنوات قليلة الاستيلاء على عدد من المدن والقرى الإسلامية، وأسسوا أربع كيانات صليبية هي إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، لتدلّنا تلك السرعة في الاستيلاء والتأسيس على مدى الضعف والوهن والتمزق الذي آلت إليه القوى الإسلامية الحاكمة خلال تلك الفترة.

أمَّا بالنسبة للغزو المغولي لأقاليم المشرق الإسلامي فقد كان خلال العقد الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي (615هـ/ 1218م)، وهو الآخر تمكن خلال أربعة عقود من الزمن فقط من الزحف بحملاته من بلاد ما وراء النهر إلى بلاد الشام وأخضع جُل المدن الّتي صادفته في الطريق، وصار قاب قوسين أو أدنى من إكمال سيطرته على كافة الأراضي الإسلامية لولا بسالة المماليك في مصر الذين أنهوا قصة ذلك الغزو في معركة حاسمة بعين جالوت سنة 658هـ/ 1260م.

وقد حدث خلال تلك الفترة من الصراع على الجانبين معارك وحروب دموية وإفناء لمعالم الحضارة الإنسانية ما لم يحدث قبل هذا التاريخ، حتَّى أن من المؤرخين من أحجموا عن ذكر تفاصيل أحداثها كالمؤرخ المعاصر لتلك الأحداث عزالدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ[1]، وأمَّا من أشار إليها فلم يكن باستطاعته المرور على أحداثها الدموية الَّتي ذُلَّ فيها المسلمون أيمَّا إذلال، كأحداث مدينة بيت المقدس حين استولى عليها الصليبيون سنة 492هـ/1099م، وأحداث مدينة بخارى حين غزاها المغول سنة 616هـ/1219م.

إنَّ من يسمع عن مثل هذه الأحداث العصيبة الَّ ، مرَّ بها العالم الإسلامي خلال فترة العدوان الصليبي والمغولي، سيظنُّ بأن هؤلاء الأعداء قد وجدوا أمامهم الطريق معبدًا للتحقيق مآربهم، وأنَّ الوضع الذي كان إبَّان قدومهم قد ظلَّ على نفس النحو بعد ذلك، بل وسيعتقد بأنَّ كل المدن الإسلامية قد قَبِلَت بذلك الواقعْ وسلَّمت دون مقاومة أو حتَّى إبداء رد فعل طبيعي سيقوم به أيًا كان ضد كل من يستولي على ممتلكاته.

بيد أنَّ هذا القول ليس صائبًا بالكامل، إذ وعلى الرغم من السلبية الَّتي طبعت العديد من الأجناد الإسلامية في كثير من أوقات الصراع الإسلامي- الصليبي والإسلامي – المغولي، إلاَّ أنَّها شهدت فترات من الصحوة، برز خلالها قادةٌ عظام، جعلوا من قضية إخراج الأعداء من أرض الإسلام غاية تسْمُو فوق كل الاعتبارات فأسَّسوا انطلاقا من مدن حكمهم جبهات مقاومة، أعادت الأم للمسلمين في استعادة ممتلكاتهم، وأبانت للغزاة بـ م لن يهنئوا على أرضه، وسيُخْرجون منها وهم كارهون.

ومن أجل معرفة ردود فعل المسلمين المنقسمين في تلك المدن التي تعرضت للعدوان، سواء في مدن شرق العالم الإسلامي أو في مدن الشام والجزيرة ومصر، فقد كان اختيارنا لموضوع:

نماذج من المقاومة البلدانية للعدوان الصليبي والمغولي على المشرق الإسلامي

(490هـ – 658هـ / 1096م – 1260م)

ـ دراسة مقارنة ـ

وعن سبب تحديدنا لفترة الدراسة بهذين التاريخين بالذات، فذلك لأنَّ سنة 490هـ/ 1096م تعدُّ البداية الفعلية للتكالب الخارجي على أقاليم الدولة الإسلامية، نظرًا لما حدث من تمزُّقٍ داخلي وكذا رغبة خارجية جامحة في كسر شوكة المسلمين، فشهدت هذه الفترة الحروب الصليبية (

[1] ابن الأثير عدل عن فكرة الإحجام، وعاود كتابة أحداث الغزو المغولي بعد ذلك

ابتدأت بسنة 490هـ/ 1096م الحملة الصليبية الأولى) واشتداد أدوارها، إضافة إلى ظهور المغول على الأطراف الشرقية للعالم الإسلامي ورغبتهم في السيطرة على تلك الأقاليم من الدولة (كان ذلك سنة 615هـ/ 1218م)، فكانت أحداث هذه الفترة في تلك الرقعة من أرض الإسلام الممتدة من أواسط آسيا على التخوم مع شعب التتار إلى غاية بلاد الشام ومصر وإلى الثغور مع الروم البيزنطيين تؤذنُ بنهاية مجد الدولة الإسلامية، وأمَّا إنهاءنا لفترة الدراسة بسنة 658هـ/ 1260م، فهي تُمثل أهم حدث في معادلة الصراع الإسلامي مع القوى الخارجية، بتحقيق النصر على المغول في معركة عين جالوت من طرف المماليك، والّتي مهدت الطريق نحو إنهاء التواجد الصليبي بعد ذلك سنة 692هـ/ 1292م بسقوط مدينة عكا آخر معقل للصليبيين على أرض الإسلام.

ولأن دراستنا هاته قائمة على أساس مقارنة تاريخية مابين أسباب ودوافع العدوان المغولي والصليبي، وبين ردود فعل المدن الإسلامية التي تعرَّضت للغزو والنتائج المترتبة عنه سواء بالنسبة للمسلمين أو حتَّى على الصليبيين والمغول فقد جاءت مُدَّة الدراسة طويلة نوعًا ما والرقعة الجغرافية واسعة، وذلك ضروري من أجل تحقيق الهدف من هذا البحث.

لقد اهتمت الدراسات الحديثة كثيراً بالتطورات الحاصلة في الشرق الإسلامي خلال فترة العصور الوسطى عامةً وفترة التكالب الخارجي على ممتلكاته خاصة، حيثُ تعرَّض لها الكثير من الكُتَّاب والمؤرخين المشارقة والغربيين وبعض من كتاب المغرب الإسلامي، فتناولت تلك الدراسات أحداث تلك الفترة بكثيرٍ من التفصيل، منها ما جاء في مجلدات ومنها ما جاء في أجزاء، ولا ننكر بأنَّ منها من اعتمد على عديد المصادر الضرورية في دراسة هذه الفترة، سواء كانت مصادر عربية أو أجنبية، ولكن الملاحظ على الدراسات الّتي شملت الحديث عن هذه الفترة أنها لم تتناول الصراع الصليبي والمغولي مع المشرق الإسلامي في إطار سياق واحد، وفق دراسة مقارنة أو تحليلية تُميط اللثام عن كثير من الحقائق الّتي رُبَّما لن تتضح عند التطرق إلى كل مرحلة صراع على حِده، ومن هنا فقد كان اختيارنا لموضوع هذا البحث.

لقد كان لكتب التاريخ التي تحدثت عن هذه الفترة وأفردت لها صفحاتٍ عدَّة للحديث فقط عن كيفية تعرض بلاد المسلمين لهذه الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام دافعًا قويًا لمحاولة معرفة الجانب الآخر في هذه المعادلة، والمتمثل في كيفية مقاومة المدن الإسلامية التي تعرضت للعدوان الصليبي والمغولي في دراسة مقارنة نحاول فيها إبراز أوجه التشابه والاختلاف والتداخل في طبيعة كل من العدوانيين، إضافةً إلى معرفة موقف ودور تلك المدن الإسلامية التي تعرضت للغزو.

وتكْمُن أهمية الموضوع في تناوله حقبةً مهمة من تاريخ المسلمين، ويبرز ذلك بشكل واضح في أساليب تعامل المسلمين مع الغزو الخارجي وبخاصة العدوانيين الصليبي المغولي، وكذا فإن مثل هذه الدراسات (الدراسات المقارنة) تميطُ اللثام عن كثير من الحقائق سواء تعلق ذلك بالمسلمين كطرف تعرض للعدوان أو حتَّى من جهة الصليبيين والمغول الذين عاثوا في بلاد الإسلام الفساد ونشروا بين أهلها الظلم، كما أنَّها تُمثل وجهة نظر مغربية لحوادث وتطورات كان المشرق الإسلامي مسرحًا لها، خاصةً وأن هذا النوع من الدراسات يعوز الجامعات الجزائرية التخصص فيه.

إنَّ موضوع هذه الدراسة، والذي يتناول فترة العدوان الصليبي والمغولي على أقاليم المشرق الإسلامي وما صاحبها من أحداث كثيرة، يطرح إشكالية رئيسية تتمثل في:

ماهي طبيعة مواقف وردود فعل بعض البلدان الإسلامية التي تعرضت للعدوان الصليبي والمغولي على أراضيها وما هو الأثر الواقع على أطراف الصراع خلال تلك الفترة؟

ومن أجل التوصل إلى مفاتيح حل هذه الإشكالية لابد من الإجابة على عديد من التساؤلات الثانوية أهمها:

ما هي العوامل التي دفعت بهذا التحول في موازين القوى في العالم القديم خلال تلك الفترة؟ وكيف استطاع الصليبيون والمغول على السواء إحداث ذلك الفزع في نفوس المسلمين؟ هل قوة هؤلاء هي من كانت الدافع وراء إقدامهم على غزو ديار الإسلام؟ أم أن الوضع في العالم الإسلامي كان أهم حافز لهؤلاء؟

كيف كانت مقاومة المدن الإسلامية المنقسمة بين القوى التي حكمت في الدولة من تلك الأحداث؟ وكيف تعاملت معه؟ هل كانت مواقفهم بقدر الخطر الجسيم الذي تهدد الإسلام وديارة؟ وبقدر حملهم وانتمائهم لهذا الدين القويم؟ هل تبدلت مواقف العداء التي طبعت علاقاتهم ببعضهم البعض بعد أن صارت أحداث ذلك الصراع واقعا مفروضا على الجميع؟

وفي النهاية، ماهي نتائج ذلك الصراع على جميع الأطراف؟ هل اتسمت بالدموية فحسب؟ هل صاحب ذلك الصراع تطورات على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدينية؟ أم لا؟

وللإجابة على هذه الإشكاليات، ووفق المادة العلمية المتوفرة لدينا ارتأيت تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة فصولٍ وخاتمة:

تناول الفصل الأول منها، الأحوال السياسية التي شهدها المشرق الإسلامي قبل العدوان الصليبي والمغولي، فتطرقت بالحديث عن الخلافة العباسية وأحوال السلطة فيها، وكيف ساهم

السلاجقة في زيادة حِدَّة الضعف والوهن بخلفائها بسبب رغبتهم في الاستئثار بالسلطة دونهم، وكذا نتيجة الصراعات التي شهدها البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه (485هـ/ 1092م)، فانقسمت على إثرها دولتهم إلى دويلات عمَّقت من ذلك الوضع المتردِّي على مستوى دار الخلافة، كما استعرضت دور الدعوة الإسماعيلية (الباطنية) في أحداث تلك الفترة من خلال مواقف دعاتها اتجاه من يعارض نشر مذهبهم، وكيف ساهمت في إضعاف مواقف المسلمين قُبيل وأثناء قدوم حملات الغزاة، وتطرقت كذلك خلال هذا الفصل إلى الوضع الذي ساد مصر أيام حكم الفاطميين والأيوبيين، فوقفنا على أهم نقاط الضُّعف الَّتي رسمت ثغراتٍ نفذ منها أعداء الإسلام لتحقيق مآربهم، لنواصل الحديث بعدها عن الأوضاع السياسية في منطقة الشرق الإسلامي للوقوف على ما ميَّز الدولة الخوارزمية – أبرز القوى الإسلامية التي حكمت فيها– من أحداث حالت دون مشاركتها في حروب مدن الشام والجزيرة ومصر مع الإفرنج، وكذا علاقاتها بمختلف القوى المجاورة لها سواء كانوا مسلمين أو أجانب، للتمكُّن بعد ذلك من تفسير ردود فعل مدن هذه الجبهة في مواجهة خطر الزحف المغولي.

وأمَّا الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن العدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة ومصر، بدءاً بسنة 490هـ/ 1096م الَّتي تُمثل تاريخ الحملة الصليبية الأولى وإلى غاية 589هـ/ 1193م، الَّتي تمُثل تاريخ وفاة صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، فتطرقت فيه إلى دوافع تلك الحملات وانطلاقتها من خلال التعرض إلى خط مسير الحملة الصليبية الأولى وكيفية الإعداد لها من الغرب الأوروبي، مستعرضًا بعدها كيفية تأسيس الكيانات الصليبية وردود الفعل الإسلامية الأولية عليها، لأنتقل في الجزء الثاني من هذا الفصل إلى الحديث عن نماذج من المقاومة الإسلامية في مواجهة خطر الإمارات الصليبية المؤسَّسة على الأراضي الإسلامية، فأخذت نموذجين، الأول شمل على إقليم الجزيرة وشمال بلاد الشام والمتمثل في خط الموصل – حلب، والذي تبنَّ فيها حركة المقاومة آل زنكي انطلاقا من عماد الدين بن آقسنقر، وبعده ابنه نورالدين محمود، فكان لهذين المدينتين دور بارز في مواجهة الخطر الصليبي، وتمكَّن قادتها من تحقيق انتصارات بالغة عليهم، لعلَّ أهمها استعادة إمارة الرها سنة 539هـ/ 1144م، وضمِّ دمشق إلى جبهة المقاومة سنة 549هـ/ 1154م، بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيدي الصليبيين.

أما النموذج الثاني، فقد شمل على إقليم مصر وجنوب الشام (فلسطين)، وقد تكفل بمهمة المقاومة في هذا البلد من البلدان الإسلامية الأيوبيون الذين آل إليهم حكم مصر سنة 564هـ/

1169م بعد إنهاء الحكم الفاطمي عنها، فكانت هذه الجبهة بقيادة صلاح الدين امتداداً لجبهة الجزيرة والشام، وبضمها ضرب على الوجود الصليبي طوقٌ حَصره على السَّاحل الشامي بغية إخراجه نهائيًا، وقد حققت هذه الجبهة أيضا انتصارات باهرة على الطرف الصليبي، أبرزها الهزيمة المنكرة في معركة حطين 583هـ/ 1187م، والأهم من ذلك استرداد المدينة المقدسة في نفس السنة بعد أن ظلَّت في أيديهم قرابة القرن من الزمان.

وقد خصصت الفصل الثالث للحديث عن الغزو المغولي لشرق العالم الإسلامي بين سنتي 615هـ/ 1218م تاريخ انطلاق حملات جنكيزخان على أقاليم الدولة الخوارزمية وإلى 658هـ/ 1260م تاريخ معركة عين جالوت الّتي أنهت قصة ذلك الغزو، فتطرقت في الجزء الأول منه بالحديث عن أصول المغول وموطنهم وطبيعة حياتهم الاجتماعية والسياسية قُبيل تكوين إمبراطوريتهم على يد جنكيزخان، ثمَّ وقفت على أهم الدوافع الَّتي كانت وراء زحف المغول على الدولة الخوارزمية انطلاقًا من حادثة مقتل التجار، لنستعرض بعد ذلك حملات المغول الأولى على بلاد ما وراء النهر.

وفي الجزء الثاني فقد عملت فيه على تبيين ردود فعل بعض المدن الإسلامية من ذلك الخطر، من خلال وضع نموذجين، أحدهما شمل الجبهة الخوارزمية وما قدمته أهمُّ مدنها في حركة المقاومة الإسلامية ضد الأخطار الخارجية، فتطرقنا إلى ردود فعل سلاطينها الذين امتدت ممتلكاتهم على مساحة شاسعة، وذلك من عهد علاء الدين خوارزم شاه 615هـ/ 1218م، إلى زوال هذه الجبهة بنهاية دولتهم على عهد جلال الدين منكبرتي 628هـ/ 1231م، وأمَّا النموذج الثاني فقد اخترنا فيه جبهة مصر وفلسطين، باعتبار أن هذه المنطقة كان لها شرف إنهاء ذلك الزحف، فعرضنا لكيفية اعتلاء المماليك العرش في مصر على حساب بقايا الأيوبيين سنة 648هـ/ 1250م وموقفهم من الغزو المغولي على بغداد وبلاد الشام 656هـ/ 1258م، لنتناول في الأخير أحداث موقعة عين جالوت 658هـ/ 1260م، التي انتهت على أحداثها وقائع ذلك الصراع.

وأما الفصل الرابع فقد وضعته لإجراء مقارنة تاريخية بين أحداث الصراع الإسلامي مع كل من الصليبيين والمغول، (490هـ- 658هـ/ 1096م- 1260م)، فشملت هذه المقارنة على دوافع وأسباب كل من العدوانيين، فأوضحت من خلالها أوجه التشابه والاختلاف والتداخل في العوامل التي كانت محرّكًا لقيام كل من الإفرنج والمغول بحملاتهم سواء ما توافر لديهم أو ما ساد في المشرق الإسلامي، ثُمّ بيّنت كيف أنَّ تعدد الدوافع لدى المشاركين في تلك الحروب لا يساعد على تحقيق أهدافها، وأنَّه لابدَّ من رسم هدفٍ موَّحد يجتمعُ عليه الكُلُّ لبلوغه، لأنتقل بعد ذلك إلى

الحديث على مقاومة المدن الإسلامية التي اصطفيتها كنماذج في هذه المقارنة، وأبرزتُ كيف تعاملت كل جبهة منها مع العدوان، لأعرض في آخر هذا الجزء موقف الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد من العدوان، وكيف ساهم الخلفاء العباسيون إيجاباً أم سلباً في تلك المرحلة من الصراع.

وفي الأخير فقد عملت على مقارنة نتائج تلك الحملات على كافة أطراف الصراع، من حيث الآثار الاقتصادية والحركة التجارية الّتي نشأت على إثرها، إضافة إلى معرفة أحوال تلك المجتمعات، بعد التعايش الذي نشأ بينهم بسبب طول فترة ذلك الصراع، كما وقفت على ذلك الصراع الديني بين كل من المسيحيين والمسلمين والبوذيين في استمالة العناصر المغولية إلى صفوف معتنقي دياناتهم.

وختمت دراستي هذه بخاتمة كانت حوصلة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

ولأجل إتمام عملي هذا فقد لجأت إلى المنهج التاريخي السردي خصوصًا في الفصل التمهيدي والفصلين الأول والثاني وذلك لاستخراج الأحداث وتسجيل الوقائع التي ميَّزت العالم الإسلامي قُبيل حملات الصليبيين والمغول، مستندًا على المنهج التحليلي في بعض الأحداث تارةً والمنهج الوصفي تارةً أخرى، كما استعنت بالمنهج المقارن في كثير من مواضع هذه الدراسة، وبخاصة في الفصل الرابع منها.

ولمعالجة إشكالية هذه الدراسة وفق الخطة المبينة سلفًا فقد اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع التي تتفاوت من حيث القيمة والأهمية:

فكان أبرزها كتاب" **الكامل في التاريخ** " لمؤلفه عز الدين بن الأثير، حيث تكمُن أهميته في معاصرته لجزء هام من أحداث تلك الفترة من الصراع الإسلامي مع القوى الأجنبية، فكان مولده سنة 555هـ/ 1167م، وتوفي سنة 630هـ/ 1232م، فتناول وقائع الحروب الصليبية في بلاد الشام، وأحداث الغزو المغولي بنظرة فاحصة، كان يحسُّ خلالها بآلام المسلمين في تلك الأثناء، والمعروف عن ابن الأثير عند المؤرخين عامةً، قديمهم وحديثهم أنَّه حُجَّة فيما دوَّن، ومحققٌ فيما تناوله في كتابه، ورغم ذلك فإنَّ من المؤرخين من يرى تعصُّبه إلى أصله، وتحاملهُ على من خرج عليهم.

لم يقتصر دور هذا المؤرخ في تدوين أحداث تلك الفترة على كتابه الكامل فحسب، بل أنَّ مؤلَّفه: " **الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل**" ساعد الكثير من المؤلّفين على معرفة تاريخ دولة آل زنكي بالموصل، الذين ساهموا بشكل كبير في حركة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي على أرض الإسلام، وتبيَّنوا مواقفهم من أحداث غزو المغول وزحفهم على بغداد وإقليم الجزيرة، ويبرز

ذلك جلياً لكون المؤلّف ينتمي إلى أسرة التحقت بخدمة أتابكية الموصل، فكان ابن الأثير – والد عزالدين– رئيس ديوان خراج جزيرة ابن عمر في عهد قطب الدين مودود – أتابك الموصل – وعمل أخواه مجيد الدين أبو السعادات وضياء الدين في ديوان الإنشاء.

وهناك كتاب آخر رجعت إليه لأهميته في معالجة موضوع هذا البحث، وهو كتاب" **مفرج الكروب في ذكر دولة بني أيوب**" لابن واصل (ت 697هـ/1298م)، فهو مؤرِّخ الدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها بتفصيلٍ وافٍ وتحقيقٍ شامل، فاتَّصل بمعظم ملوكهم في مصر والشام والجزيرة، وأقام في القاهرة سنواتٍ طويلة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وشهد خلال مقامه بمصر حملة لويس التاسع عشر، واحتضار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد وانتهاء الخلافة العباسية، فكانت لنا من هذا الكتاب استفادة كبيرة، خاصةً ما تعلق منها بأحداث بني أيوب في عهد صلاح الدين وحين شبَّ الصراع داخل بيتهم بعد وفاته.

وأمَّا كتاب " **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** " لأبي شامة (ت 665هـ/ 1267م)، فقد تناول فيه أحداث بطلين من أبطال الحروب الصليبية والّذين أطلقا على اسميهما عنوان مؤلّفه، وهما نورالدين محمود وصلاح الدين، وقد ولد وعاش بدمشق ولم يغادرها إلا مراتٍ قليلة، ويذكر عنه أنَّه ألّف كتابه نقلاً عن الثقاة من المؤرخين كابن عساكر وابن القلانسي وابن الأثير وابن شداد، ويُعدُّ موسوعة شاملة لعهدي هذين القائدين.

ويعتبر كتاب ابن القلانسي (ت 555هـ/ 1160م) " **ذيل تاريخ دمشق**"، من أهم المصادر الإسلامية في تاريخ العلاقات الصليبية – الإسلامية، منذ مجيء الإفرنج إلى بلاد الشام وحتَّى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، إلاَّ أنَّ سقوط بيت المقدس قد شغله عن التعرض لعلاقات الصليبيين بمسلمي كثير من مدن الشام الأخرى، إلى جانب عدم وقوفه على كل تفاصيل أعمال الإفرنج في المدن الإسلامية التي استولوا عليها، ولم يعوَّض هذا القصور سوى ما أورده فيما بعد كل من ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وابن العديم في كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب.

ومن المؤرخين المعاصرين لفترة الحروب الصليبية، أسامة بن منقذ (ت 584هـ/ 1188م) وهو أحد أمراء بني منقذ العرب في شيزر، دوَّن مشاهداته في كتابه "**الاعتبار**" خلال زيارته لبلاد الإفرنج، كما خاض الكثير من المعارك ضد الصليبيين، عاش متنقلاً بين دمشق والقاهرة، أفدنا من

مُؤَلِّفه هذا في كثير من مواضع هذا البحث، وأبرزها ما كان من تفاعل اجتماعي بين المسلمين والصليبيين على عصر الحروب الصليبية لمعاينته للمجتمع الإفرنجي في تنقلاته.

كما أَفدنا من كتاب "**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**" أو سيرة صلاح الدين لصاحبه ابن شداد (ت 632هـ/ 1234م)، لكون هذا المؤرخ قد صاحب صلاح الدين وشهد معه معارك عِدَّة حدثت بينه وبين الصليبيين، فنقل في كتابه سيرة هذا البطل بحسٍّ سليم وصدقٍ وغاية في الرزانة، إلاَّ أنَّ مُصاحبته لصلاح الدين لم تتجاوز خمس سنوات، ولذلك فهو بحق المؤرخ المتفرد بروايات تلك الفترة، كما أن أسلوبه في نقل الأحداث ممتع وبعيد عن التصنع والأساليب البلاغية.

كذلك رجعت إلى كتاب " **زبدة الحلب في تاريخ حلب**" لابن العديم (ت 660هـ/ 1262م)، الذي أفادنا في كثير من أحداث تلك الفترة، وأبرزها ما تعلق بمدينة حلب وعلاقاتها بالموصل على عهد عماد الدين ونورالدين، إضافة إلى دورها في حركة المقاومة الإسلامية ضد الوجود الصليبي، وردود فعل حكامها على عهد الغزو المغولي لبلاد الشام.

ومن المصادر الَّتي تكتسي أهمية في دراستنا هذه، والمتعلقة بأحداث الغزو المغولي للعالم الإسلامي نجد كتاب " **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**" لمؤلِّفه محمد بن أحمد النسوي، ففضلاً عن أنه عاصر أحداث ذلك الغزو، فقد انخرط في سلط وظائف الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص، كما كان رسول هذا السلطان في أكثر سفاراته إلى حكام المسلمين، ولهذا فهو مصدر مهم في أحداث تلك الفترة لتعرفه على مجريات الأمور وأخذها عن مصادرها الأولى.

أمَّا فضل الله رشيد الدين الهمذاني (ت 716هـ/ 1316م) صاحب كتاب" **جامع التواريخ** " فقد عاش في فارس وكان وزيرا لإيلخانات المغول فيها، في عهد كل من غازان وأولجايتو، لذلك كان مُلِّما بالكثير من أخبار المغول، وقد استفدنا من هذا المصدر في الحديث عن جنكيز خان في سِني حكمه الأولى، وما دوَّنه عن القبائل التركية في شرق آسيا، ورشيد الدين كان يستعين في سرده بوزير مغولي يذكر عنه أنَّه أعرف رجال عصره بتاريخ الأتراك في شرق آسيا.

إضافة إلى مجموعة المصادر التاريخية التي عرضنا لها سلفا، فإن كتب البلدان الجغرافية لا تقلُّ أهميةً في دراسة هذه المرحلة من التاريخ الإنساني، حيث تكمُن تلك الأهمية في كونها تقف على المشاهدة والوصف وفق الرؤية، ومن أهم هذه المؤلَّفات، كتاب " **تقويم البلدان**" لأبي الفدا (ت

732هـ/ 1332م)، وهو مصنَّف جغرافي، صنَّفه صاحبه بطريقة يعجب لها قارئه، فبدأ بوصف المنطقة المراد ذكرها بكل ما حولها، ثمَّ بيَّن حدودها وطولها ومسافتها وذكر آثارها وقلاعها ومساجدها وضياعها والمزارع المحيطة بها، ثُمَّ خَلُص بوضع جدولٍ بأسماء الأعلام، وإن كانت مدنًا وقلاعا فيضع طولها وعرضها والجهة التي تنتمي إليها.

واعتمدت كذلك على كتاب "**المسالك والممالك**" للاصطخري (ت ق4هـ/10م)، وكتاب "**معجم البلدان**" لياقوت الحموي (ت626هـ/1229م)، وكتاب " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**" للمقدسي (ت388هـ/ 998م)، ومؤلَّف ابن حوقل (ت367هـ/977م) الموسوم بـ: " **صورة الأرض**"، وكلُّها مصادر أعانتنا في تحديد مواضع المدن والقلاع، وذكر أهميتها بالنسبة لأطراف الصراع في تلك المرحلة.

كما أفدت من بعض المصادر الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية، والتي ألّفها مؤرخون صاحبوا جيوش الحملة الصليبية الأولى منذ دعا إليها البابا أوربان الثاني، وحتى استيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس، وما قام به الإفرنج من أعمال منذ خروجهم من أوروبا ومرورًا بأراضي الدولة البيزنطية وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وعلاقاتهم بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين على السواء، وهذه المؤلَّفات هي: كتاب" **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس** " Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem، لريموندجيل، وكتاب:" **أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس**"Gesta francorum Iherusalem peregrinantium، لصاحبه فولشر أوف شارتر (فوشي الشارتري) وكتاب:" **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**" Historia de Hierosolymitano ltinere لبطرس توديبود.

وبينما تتوقف أعمال كل من المؤلف ريموناجيل والمؤلف توديبود بذكر أحداث معركة عسقلان (رمضان 492هـ/ أغسطس 1099م)، فإنَّ كتاب فولشر فيغطي الفترة حتىَّ عام 521هـ/ 1127م، ويعتبر المصدر الوحيد الذي يعالج تاريخ الإمارات الصليبية في بلاد الشام، إضافة إلى كتاب **الحروب الصليبية** لوليام الصوري.

أما فيما يخص الدراسات الحديثة فقد تنوعت بغزارة الأحداث واتساع إقليم الدراسة وطول فترتها، فمنها من اختص بحملات الإفرنج (الحروب الصليبية) **ككتاب "الحركة الصليبية" لسعيد عبد الفتاح عاشور، وكتاب " الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية " لحامد زيان حامد، ومنها ما تناول حركة المقاومة الإسلامية وبناء جبهات مضادة**

للإمارات الصليبية في بلاد الشام مثل كتاب:" **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–** لمؤلفه الدكتور حامد غنيم أبو سعيد ، وكذا كتاب" بناء **الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**" للدكتور محمد محمود الحويري وكتاب " **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي**" للدكتور فايد حماد محمد عاشور، وهناك من المراجع ما اختص بتناول فترة الغزو المغولي على العالم الإسلامي ككتاب " **الدولة الخوارزمية والمغول**" لصاحبه حافظ احمد حمدي، وكتاب " **المغول في التاريخ**" للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، وكتاب الدكتور السيد باز العريني، المعنون بـ" **المغول**"، وغيرها من الكتب والمراجع الحديثة.

وأما عن الصعوبات التي واجهتني في سبيل إتمام هذه الدراسة فارتأيت عدم التعرض لها، إيمانًا مني بأنها جزء من هذا العمل، ومن أي عمل آخر في شتى ميادين الحياة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـل الأول:

الأحوال السياسية في المشرق الإسلامي قبل العدوان الصليبي والمغولي

1- أحوال الخلافة العباسية خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي (عهد التسلط السلجوقي 447هـ/ 1055م)

2- أحوال مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين

3- الأوضاع السياسية في شرق العالم الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- أحوال الخلافة العباسية خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي (عهد التسلط السلجوقي 447هـ/ 1055م)

1-1 سيطرة السلاطين السلاجقة على الخلافة العباسية

لقد كان من نتيجة اتساع رقعة الخلافة العباسية، واشتمالها على العديد من الأقاليم في الشرق والغرب أن صارت تخضع لسيطرتها العديد من الأجناس البشرية الغير عربية كالفرس والترك، حيث دأب الخلفاء العباسيون على الاعتماد عليهم في الجيش والإدارة ومختلف الوظائف السياسية، وذلك نتيجة ميل العناصر العربية التي قامت عليها الخلافة العباسية إلى حياة الترف والملذات، وفقدانهم لعصبيتهم وغِلظتهم التي جعلوا بها الدولة الإسلامية تمتد إلى أقاصي شرق العالم القديم بعد أن فرضوا سيطرتهم على غربه، فابتعدت بذلك الجيوش العباسية من الأصل العربي عن دورها في الفتح والدفاع عن أرض الإسلام من الغزاة المتربصين به، حيث يشخص بن خلدون هذه الحالة بقوله: "وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأنْ لم تكن، ويفقدون حلاوة العزِّ والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنَّقوه من النَّعيم وغضارة العيش فيصيرون عِيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ....، فإذا جاء المُطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة...." [(1)]

غير أن تولي تلك الأجناس وبخاصة الأتراك المناصب الإدارية والعسكرية، وتدرجهم فيها صار أكبر نقمة جناها الخلفاء العباسيون المتأخرون على حكمهم،[(2)] ذلك أن هؤلاء الأتراك ذوو عصبية لم يرضوا بما كان يمنح لهم من وظائف بسيطة، بل كانوا يتطلّعون إلى المناصب العليا،كما دفعتهم عصبيتهم إلى الطمع في منصب الخليفة نفسه، وعن عصبية تلك الأقوام يقول ابن خلدون:"

---

(1) يرى ابن خلدون أن عمر الدول ثلاثة أجيال، لكل جيل أربعون سنة، فالجيل الأول مؤسس الدولة لا يزال على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فحدُّهم مرهف وجانبهم مرهوب، أما الجيل الثاني فيتحول حالهم بالملك من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء غير أنهم يبقو محافظين على بعض أحوال الجيل الأول لاتصالهم بهم، أما الجيل الثالث فتفصيله ما جاء في المتن، ابن خلدون، **المقدمة**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، د تا، ص 201، 202.

(2) مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول**، الهيئة المصرية العليا للكتاب، ط2، القاهرة، 1999، ص18.

وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ السؤدُدَ والإشباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لم يتركه لأنه مطلوب للنفس ....."[1]

أدَّى هذا الوضع الذي آلت إليه الدولة الإسلامية أن صار الخلفاء العباسيون يمثلون السلطة الروحية فيها، في حين أصبحت السلطة الزمنية بيد هؤلاء الأتراك الذين أضعفوا من سلطان الخلفاء العباسيين، فلم يعد للخلفاء معهم أمر، بل أدَّى استفحال أمر هؤلاء الأتراك أن صار بأيديهم عزل وتولية الخلفاء كما حدث مع المتوكل (232هـ - 247هـ)[2]

كانت نتيجة هذا الوضع أن صار الحكم في العراق بسلطة مزدوجة أثرت بشكل كبير على الوضع العام في الدولة الإسلامية، وكان ذلك من بين أهم الثغرات التي استغلها أعداء الإسلام للاستيلاء على ممتلكاته وإطفاء نوره، فالفترة التي سبقت العدوان الصليبي والمغولي على العالم الإسلامي كانت فيها السلطة الزمنية بيد السلاجقة الذين وإن كانوا قد حافظوا على منصب الخليفة العباسي من خطر أبي الحارث البساسيري[3] المدعوم من الفاطميين وأبقوا على جزء من هيبته،[4] فقد تنكَّروا لهم في الكثير من الأحيان، كما فعل السلطان ملكشاه مع الخليفة العباسي المقتدي بالله (467هـ- 487هـ) حين أمره بالخروج من قصره في بغداد، وأرسل إليه يقول:" لابد أن تترك لي بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت" فطلب الخليفة مهلة شهر، غير أن ردَّ السلطان كان بما لا يدعو إلى الشك حول طبيعة العلاقة بينهما، حيث رد بقوله:" ولو ساعة واحدة "، ولم ينقذ الخليفة من ذلك الموقف سوى مرض ملكشاه ووفاته عام 485هـ/ 1092م.[5]

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 168.

[2] نادية حسني صقر، **مطلع العصر العباسي الثاني**، دار الشروق، ط1، جدة، 1983، ص 11-13.

[3] هو الأمير أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري، وكان مملوكا لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليه، فقيل له البساسيري، وتلقب بالملك المظفر، ثم كان مقدما كبيرا عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمرا دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى وتمرد وخرج على الخليفة والمسلمين ودعا إلى خلافة الفاطميين، ثم انقضى أجله سنة 451هـ/ 1059م، ابن خلكان، **وفيات الأعيان في أنباء الزمان**، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977، 62/1، الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1961، 225/3.

[4] ابن تغري بردي (أبو المحاسن)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1956، 73/5.

[5] ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تح، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1995، 9/ 61-62.

وهكذا فبقدر ما كان للسلاجقة دور في الحفاظ على الخلافة العباسية من الأخطار التي كانت تتربص بها، بقدر ما ن لهم دور في إضعاف قوة الخلافة لرد تلك الحملات التي قام بها الإفرنج والمغول على مشرق العالم الإسلامي،(1) نتيجة سوء تصرف بعضهم مع الخلفاء العباسيين وتدهور العلاقات بينهم من جهة والصراعات التي نشبت في البيت السلجوقي وتدخل العباسيين فيها من جهة أخرى.

كان خلفاء العباسيون يخشون إظهار تذمرهم وضيقهم من تدخل السلاجقة وسيطرتهم على مختلف شؤون الدولة، وذلك خوفًا من بطشهم، كما وقد وصل بهم تسلطهم على الخلفاء العباسيين أن طالبوا بمصاهرة الخليفة، كما فعل السلطان طغرلبك مع الخليفة العباسي القائم بأمر الله حين أجبره على تزويجه ابنته رغم الاعتراض الشديد الذي أبداه الخليفة، فيذكر السيوطي عن هذا الفعل باستغراب قوله:" إنه أمر لم ينله أحد من الملوك السابقين عدا السلاجقة"(2) أما بن الأثير فيقول عن هذا الفعل:" وهذا ما لم يجر للخلفاء مثله، فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا، ولا ساموهم فعله".(3)

يتضح لنا جليًا من خلال كل هذا طبيعة العلاقة التي كانت تسود بين السلطة الروحية (الخليفة العباسي) والسلطة الزمنية (السلطان السلجوقي)، فالسلاجقة ظلوا يعتبرون تخليصهم الخلافة من خطر البساسيري دينًا على الخلفاء العباسيين لابد من تسديده، حيث يتضح لنا ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها طغرلبك إلى الخليفة القائم بأمر الله تعقيبا على رفضه طلب الزواج بقوله:" هذا جزاء من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته(4)، وأنفقت أموالي في نصرته، وأهلكت خواصي في محبته".(5)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2003، 85/2.

(2) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مطبعة السعادة، ط1، القاهرة، 1952، ص667.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، 1966، 22/10.

(4) وقد قام طغرلبك بقتل أخيه إبراهيم ينال سنة 450هـ/ 1058م حين تآمر هذا الأخير مع الخلافة الفاطمية ضد أخيه طغرلبك، وقام ضده بحركة تمرد كان من نتيجتها أن أتيحت للبساسيري فرصة الاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية باسم الفاطميين، فترتب على ذلك نشوب الصراع بين الأخوين، وهو الصراع الذي أودى في النهاية بحياة إبراهيم ينال. أنظر: ابن الأثير:، الكامل، 645/9، ابن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، ط1، بيروت، 1966، 71/12.

(5) ابن الأثير، الكامل، 22/10

رغم م السلاجقة في أمور السلطة وتهميش دور الخلفاء العباسيين، إلا أن هناك من الخلفاء من عمل جاهدا على استرجاع مكانتهم، ولو بإقامة الخطبة لهم على منابر بغداد والشام، خاصة في الأوقات التي عرفت فيها السلطنة السلجوقية صراعات وحروب بين أبناءها أو أمرائها، ومع القبائل العربية في بلاد الشام والجزيرة[1]، إذ أن الخلفاء كانوا في الكثير من الأحيان أطرافا في ذلك الصراع، بغية إضعاف السلاجقة والحد من تسلطهم الذي صار يهدد كيانهم،[2] ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن الأثير في أن المقتدي بأمر الله كان "شهما شجاعا، أيامه كلها مباركة والرزق بدار الخلافة معظمة جداً، وتصاغرت الملوك له، وتضاءلوا بين يديه، وخطب له بالحرمين، وبيت المقدس والشام كلها....."،[3] ولعل ما ساعد المقتدي على استرجاع بعض نفوذ الخلافة العباسية، استغلاله للصراع الذي نشب بين أبناء ملكشاه محمود وبركياروق وكذا أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق حول تولي عرش السلطنة السلجوقية، فقد استعان بركياروق على عمه تتش بالخليفة العباسي المقتدي بالله.

زاد منِ حدَّة ضعف الجبهة الإسلامية في مواجهة الأخطار المستفحلة على ديار الإسلام ما وقع بين السلطتين الزمنية والروحية من صراعات مباشرة، كذاك الذي نشب بين الخليفة المسترشد بالله (512هـ- 529هـ/ 1118م- 1135م) والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (511هـ- 525هـ/ 1117م- 1131م)، حيث خشي هذا الأخير من ازدياد نفوذ الخليفة المسترشد الذي تمكن من هزيمة دبيس بن صدقة[4]، فعزم على دخول بغداد لوضع حد لتطلعات الخليفة المسترشد، مما أدى إلى نشوب حرب بينهما سنة 520هـ/ 1126م، كان النصر فيها حليف السلطان السلجوقي، فنهبت على إثر ذلك دار الخلافة، لتنتهي الحرب بعقد صلح بين الجانبين.[5]

---

[1] الجزيرة: بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة، وإنما سميت جزيرة لأنها بين دجلة والفرات، القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 351، الإصطخري، **المسالك والممالك**، تح: محمد جابر عبد العال الحيني دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة، 1961، ص55، ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت، 1979، ص 154.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، 111/12.

[3] ابن الأثير، الكامل، 91/10-98.

[4] هو أبو الأعز دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي المزيدية ولقبه تاج الملوك، توفي سنة 529هـ، ابن خلكان، وفيات، 2/ 263- 264، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 256.

[5] ابن الأثير، الكامل، 10/ 242- 245

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عاد الصراع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ليتجدد مرة أخرى، وذلك حين أقحم الخليفة المسترشد نفسه في الصراعات الداخلية للسلاجقة، حيث كان هذه المرة مع السلطان مسعود بن محمد (527هـ- 547هـ/ 1132م- 1152م)، وكانت نتيجة الصراع أسر الخليفة المسترشد مع جميع رجاله، ومقتله فيما بعد من طرف جماعة من الباطنية،[1] وقد كثرت الأقوال في سبب قتل الخليفة فمنهم من يقول أن السلطان مسعود هو من حرض جماعة من الباطنية لقتله والتخلص منه، بينما تشير أقوال أخرى إلى أن السلطان مسعود لم يعلم بمقتل الخليفة إلى بعد وقوع الجريمة.[2]

ومهما يكن من أمر فإن هذه السمة من العلاقات ظلت مسيطرة على السلطتين الروحية والزمنية فيما تبقى من عمرهما، وهو ما أضاف إلى العالم الإسلامي عاملا آخر من عوامل الضعف في تلك الفترة من التاريخ، فإن مثل هذا الجو الذي سادت فيه تلك العلاقات بين السلطتين الروحية والزمنية لا يمكن أن نتصور خلاله بروز رد فعل إيجابي وقيام جبهة مقاومة إسلامية في وجه ذلك الخطر الذي أخذ يدق أبواب العالم الإسلامي من شرقه وغربه، في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بل كانت طبيعة تلك العلاقات من بين أبرز العوامل التي مكنت للغزاة الصليبيين والمغول من الاستيلاء على أراضي المسلمين وتكوين إمارات لهم في زمن قصير.

1-2 دولة السلاجقة بعد السلطان ملكشاه (485هـ/ 1092م)

منذ أن دخل السلطان السلجوقي طغرلبك بغداد سنة 447هـ/ 1055م نجدة للخليفة العباسي القائم بأمر الله من خطر أبي الحارث البساسيري، صارت الدولة السلجوقية[3] تمثل السلطة الزمنية في الدولة الإسلامية، في حين ظلت السلطة الروحية في يد الخلفاء من بني العباس، حيث عمل السلاطين السلاجقة الثلاثة الأوائل وهم السلطان طغرلبك (429هـ- 455هـ/ 1037م- 1063م) والسلطان ألب أرسلان(455هـ- 465هـ/ 1063م- 1072م) والسلطان ملكشاه (465هـ- 485هـ/ 1072م- 1092م) على إعادة الاعتبار للخليفة

---

[1] سيأتي ذكرنا لهذه الطائفة في الصفحات الموالية من هذا البحث.

[2] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 688- 689، البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، القاهرة، 1900، ص 161، 162.

[3] السلاجقة: هم مجموعة من القبائل التركية التي تسكن الأراضي الواقعة ماوراء النهر وكذلك إلى الجنوب على مرتفعات وسهوب نهري سيحون وجيحون، وهي في الأصل تعود إلى القبائل المعروفة باسم " الغز"، وينتسبون إلى جدهم سلجوق بن دقاق (تقاق) أنظر: الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984، ص 1-2، فاروق عمر فوزي، المرجع سابق، 161/2، الخضري بك، **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)**، مطبعة الاستقامة، ط5، القاهرة، 1945، ص314.

العباسي الذي فقد الكثير من هيبته في ظل حكم أسرة الديلم[1] البويهية،[2] المتبنية لمذهب الشيعة[3] عكس الخلفاء العباسيين السنة، وهو ما أثر على الكثير من جوانب الحياة في بغداد من انتشار للمعتقدات الشيعية والبدع المنكرة والاضطهاد الكبير الذي لقيه أهل السنة على أيدي الأمراء البويهيون.[4]

وإضافة لما قام به السلطان طغرلبك في تخليص الخلافة العباسية من خطر البساسيري الطامح إلى نقل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين الشيعة، فقد عمل على الحد من توسع هؤلاء الأخيرين في بلاد الشام واستعادة ممتلكات الخلافة العباسية فيها، وبوفاة طغرلبك واصل خلفه ألب أرسلان سياسة عمه مع الفاطميين في اقتطاع ما سلبوه من ممتلكات في بلاد الشام أيام ضعف الخلافة العباسية، غير أن أهم عمل قام به هذا السلطان هو الهزيمة الساحقة التي حققها في معركة مانزكرت Mentzikert 463هـ/1071م[5] ضد الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجين واستيلاؤه على العديد من المدن البيزنطية في آسيا الصغرى، إضافة إلى توسعاته إلى الشرق حتى حدود نهر جيحون وما وراءه[6]، وعلى نفس النهج سار خلفه السلطان ملكشاه فتمتعت بذلك الخلافة العباسية في ظل

---

(1) بلاد الديلم: تمتد من ناحية الجنوب من قزوين والطرم، وشيء من أذربيجان وبعض الري، ومن جهة الشرق بقية الري وطبرستان، ومن الشمال بحر الخزر ، ومن جهة الغرب شيء من أذربيجان وبلاد الران، وهي ثلاثة جبال منيعة: وهي ترويديسيان، المرونج ووران، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 121، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 318.

(2) حكمت الدولة البويهية في ظل الخلافة العباسية ما بين (334هـ- 447هـ/945م- 1055م)، وتنتسب إلى أبي شجاع بويه، حيث تعد من بين الدويلات التي قامت في فترة ضعف الخلافة العباسية، أنظر: وفاء محمد علي، **الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (دتا)

(3) الشيعة في اللغة أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شِيَعٌ، وأشياع جمع الجمع، وأصل الشيعة: الفرقة من الناس وفي الاصطلاح هم أنصار علي بن أبي طالب وشيعته والقائلون بأحقية إمامته بعد النبي صلى الله عليه وسلم، أنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، مادة شيع، ص 394، الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تح، شعيب الأرناؤوط، أكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، 327/15.

(4) حامد غنيم أبو سعيد، **الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–**، دار السلام، ط1، القاهرة، 2007، 27/1.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 86/5، سهيل زكار، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995م، ص 278، عصام الدين عبد الرؤوف، **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، دتا، ص 72.

(6) نهر جيحون أو حيحون: هو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان، فنسبه الناس إليها، وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، 101/3.

حكم هؤلاء السلاطين الثلاثة بقوة كبيرة واستطاعوا السيطرة على معظم أجزاء الخلافة العباسية بل زادوا في توسيعها.[1]

بوفاة السلطان ملكشاه 485هـ/ 1092م، بدأ الضعف يدِب إلى الدولة السلجوقية بسبب الصراعات التي قامت بين أبناء البيت السلجوقي، فانقسمت الدولة إلى دويلات مستقلة يحكم كل منها أتابك،[2][3] فظهرت على إثر ذلك سلطنات سلجوقية متنازعة في أرجاء الدولة الإسلامية فقامت سلطنة سلجوقية في خراسان[4]، وأخرى في العراق، وثالثة في بلاد الشام ورابعة في آسيا الصغرى، وكان التطاحن والنزاع سمة العلاقات التي كانت تربطها.[5]

باعتلاء السلطان محمود بن ملكشاه (485هـ- 487هـ/ 1092م-1094) عرش السلطنة السلجوقية – الذي كان طفلا تحت وصاية أمه تركان خاتون- حتى خرج عليه أخوه الأكبر بركياروق (487هـ- 498هـ/ 1094م- 1104م)، وطالب بحقه في السلطنة باعتباره الأكبر سنا، وفي نفس الوقت دخل على خط الصراع حول العرش السلجوقي أخو السلطان ملكشاه (عم بركياروق) تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق (471هـ- 488هـ/ 1094م-1104م) ، وطمع هو الآخر في السلطنة، غير أن الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله رفض ذلك لعدم أحقيته فيها.[6]

ولهذا فقد عزم تاج الدولة تتش على انتزاع السلطنة من ابن أخيه بركياروق الذي آلت إليه بعد وفاة تركان خاتون أم السلطان محمود، فأخذ يُعد العُدة ويجمع حكام الشام ليكوِّن جبهةً

---

[1] ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، منشورات دار الآفاق، بيروت، د ت، 375/3.

[2] لفظ أتابك مكون من مقطعين، " بك" ومعناه أمير و " أتا" معناه أب، وقد كان الأتابكة لا يختارون من بين أفراد البيت السلجوقي، إذ أن كل سلجوقي كان يعتبر نفسه مساويا للسلطان نفسه، ولا يقل عنه، وعلى هذا الأساس كان سلاطين السلاجقة يختارون الأتابكة من بين رعايا دولتهم المخلصين، حافظ أحمد حمدي، **الدولة الخوارزمية والمغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 119- 120.

[3] محمود محمد الحويري، **الأوضاع الحضارية في بلا د الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، دار المعارف، 1979، ص5، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 15.

[4] خراسان: بلاد مشهورة، شرقيها ما وراء النهر وغربيها قهستان، قصبتها مرو وهراة وبلخ ونيسابور، وهي من أحسن أرض الله وأعمرها وأكثرها خيرا، القزويني، آثار، ص 361، ياقوت، معجم البلدان، 218/3.

[5] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 32.

[6] ابن كثير، البداية والنهاية، 144/12، السيوطي، تاريخ الخلفاء، 677. ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطبعة والنشر، ط1، دمشق، 1983 ص 203.

في مواجهة السلطان بركياروق صاحب السلطة الفعلية لدولة السلاجقة،[1]فسار بجيوشه وحلفائه سنة 486هـ/1093م لقتال بركياروق، غير أنه فوجئ بانضمام جيوش حلفائه إلى بركياروق، فعاد إلى دمشق وقرر الانتقام منهم.[2]

استمر ذلك الصراع بين العم وابن أخيه حول أحقية الجلوس على عرش السلطان، حتى انتهى بمقتل تتش في موقعة الري عام 488هـ/ 1095م،[3] ليخلو الجو بعدها لبركياروق في الاستئثار بالسلطنة، غير أن الصراع ما لبث أن عاد من جديد بين أبناء البيت السلجوقي بعد وفاة بركياروق، ففي زمن محمود بن محمد بن ملكشاه (511هـ -525هـ/ 1117م- 1131م)، وابنه السلطان داوود بن محمود (525هـ- 526هـ/ 1131م- 1132م) حدثت حروبا كثيرة بين الأمراء السلاجقة[4] سواء في بلاد الشام والجزيرة وحتى في خراسان، وقد عبر بن خلدون عن حالة الانقسام في البيت السلجوقي بعد ملكشاه بقوله:" وكان بركياروق بالري[5] والخطبة له بها وبالجبل[6] وطبرستان[7] وخوزستان[8]وفارس[9]

(1) وقد كان هؤلاء الحلفاء الذين اعتمد عليهم تتش في هزيمة ابن أخيه بركياروق هم: آقسنقر وبوزان، أنظر، أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تح: محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، 1962، 65/1، القلقشندي، **صبحي الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، 170/4، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 376/3.

(2) الذهبي، العبر، 310/3- 314، أبو شامة، الروضتين، 65/1-66.

(3) البنداري، المصدر السابق، ص 85، ابن الأثير، الكامل، 89/10، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 384/3.

(4) حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 28.

(5) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن،كثيرة الخيرات وافرة الغلات والثمرات، قديمة البناء، وهي قصبة بلاد أذربيجان بينها وبين قزوين سبعة وعشرون فرسخا، القزويني، آثار، ص 375، ياقوت، معجم البلدان، 457/4، أبو الفدا، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د ت ، ص 420.

(6) الجبل: هو إسم جامع لتلك الأعمال التي يقال لها الجبال والعامة يسمونها العراق، ياقوت، معجم البلدان، 30/3

(7) طبرستان: بلاد معروفة، والعجم يقولون مازندران، وهي بين الري وقومس وبحر الخزر، القزويني، آثار، ص403، ياقوت، معجم البلدان، 244/6.

(8) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز واستان كالنسبة في كلام الفرس، ياقوت، معجم البلدان، 260/3.

(9) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 67، ياقوت، معجم البلدان، 207/6.

وديار بكر[1] والجزيرة والحرمين، وكان السلطان محمد بأذربيجان[2] بالخطبة له بها وببلاد أرّان[3] وأرمينية[4] وأصبهان[5] والعراق جميعه إلا تكريت، وأما البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا والخطبة بالبصرة لهما جميعا، وأما خراسان من جرجان[6] إلى ماوراء النهر فكان يخطب فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد"[7]

على أنَّ تلك الصراعات لم تقتصر على داخل البيت السلجوقي فحسب، بل امتدت إلى صراعات أخرى كانت على أشدها بين السلاجقة وأمراء بني عقيل في الموصل (الجزيرة) وبني مرداس في حلب (الشام)[8]، مما دفع بهم في أحيان عدة إلى التحالف مع القوى المجاورة لهم، بل ودفعهم الانقسام والتطاحن إلى الارتماء في أحضان الصليبيين والاستعانة بهم على منافسيهم.[9]

وعليه فإن مما آلت إليه أحوال دولة السلاجقة، التي كانت تعد في تلك الفترة حامية أملاك الخلافة العباسية والدولة الإسلامية عامة، من تطاحن وانقسام، جعلتها لا تقوى على مواجهة الحملات الصليبية التي أخذت البابوية تحضر لها انطلاقا من الغرب الأوروبي، فكان من نتيجة هذا الصراع استحالة إقامة جبهة مقاومة إسلامية ضد هذا الغزو.

---

(1) ديار بكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبتها الموصل وحران وبها دجلة والفرات، القزويني: آثار، ص 368.

(2) أذربيجان: إقليم واسع، حده من برذعة مشرقا إلى أرزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرم، من أشهر مدنها تبريز، وهي قصبتها وأكبر مدنها، ابن خرذاذبة، المسالك والممالك، ص 118، ياقوت، معجم البلدان، 109/1.

(3) بلاد آرّان: ناحية بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الحجاز، بها مدن كثيرة وقرى، قصبتها جنزة وشروان وبيلقان، القزويني، آثار، ص 493.

(4) أرمينية: ناحية من أذربيجان والروم، ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة، أكثر أهلها نصارى، القزويني، آثار، ص 495.

(5) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ، وهي اسم لإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولا جيا ثم صارت اليهودية، وتقع في نهاية الجبال منجهة الجنوب، وأصفهان من أخصب البلاد وأوسعها، ياقوت، معجم البلدان 167/1، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص 423.

(6) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه، وهو بلد كثير الأمطار، وفي وسطها نهر يجري وهي قريبة من بحر الخزر، والجبال مختنقة بها فهي سهلية جبلية، ياقوت، معجم البلدان، 42/3، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 439.

(7) ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1977، 1015/4- 1016، الذهبي، العبر، 345/3.

(8) القلقشندي، صبحي الأعشى، 170/4، ابن العديم، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تح: سامي الدهان، دمشق، 1954، 107/2- 112.

(9) أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930، ص65- 70.

3-1 الباطنية ودورها في إضعاف القوى الإسلامية:

الباطنية أو الإسماعيلية، هي إحدى فرق الشيعة الإمامية، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الإمام السابع عند الشيعة ولذلك أطلق عليهم اسم السبعية،[1] وقد كان لهؤلاء دور خطير في فترة الحروب الصليبية، حيث تمثل في مقاومتهم للمذهب السني وعملوا على الفتك بأهله، وزعمائه وقادته، ويعود ظهور هذه الطائفة على مسرح أحداث التاريخ الإسلامي إلى تاريخ وفاة الإمام جعفر الصادق عام 148هـ/ 765م، إذ التف أنصاره حول حفيده محمد بن اسماعيل، الذي – كما تدعو عقيدتهم- انتقلت إليه الإمامة مباشرة دون أن يكون لعمه موسى بن جعفر دور فيها.[2]

ابتدأ عمل هؤلاء الإسماعيلين الباطني بوفاة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، حيث إ من التستر مبدأ لنشر دعوتهم، ذلك أن الخلافة العباسية بدأت تستشعر خطرهم، فعملت لى تعقبهم والفتك بقادتهم، كما واتخذ هؤلاء الباطنية[3] الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من أعدائهم، حيث كان يقوم بعملية الاغتيال فئة الفداوية، وهم أصحاب الخناجر المسمومة.[4]

وتعد فكرة تأسيس الدولة الفاطمية في مصر أولى الخطوات الجدِّية في نشر المذهب الإسماعيلي والانتقال بها إلى حيث يمكن لمؤسسيها تحقيق غايتهم في الاقتراب من بغداد لإزالة الحكم العباسي السني واستخلافه بالحكم الفاطمي الشيعي،[5] حيث تتضح تلك النوايا جليا حينما منح المستنصر تأييده لأبي الحارث البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي وعمله على الإطاحة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 10/ 116-119، سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، المكتبة الأنجلومصرية، ط4، القاهرة، 1986، 536/1، حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي، الديني، الثقافي والاجتماعي**، دار الجيل، ط13، بيروت، 1991، 4/ 268، 274.

(2) عثمان عبد الحميد عشري، **الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491هـ- 691هـ/ 1097م-1290م)**، المكتبة التاريخية، الإسكندرية، 1983، ص10.

(3) وسمو بالباطنية، لأن مذهبهم يقوم على أن للعقيدة ظاهرا وباطنا، وللتنزيل معان ظاهرة يعرفها الناس وأخرى يعرفها الإمام ولذلك سمو بهذا الاسم، كما ويطلق عليهم اسم الحشيشية، وللمزيد من الإطلاع حول طبيعة هذه الدعوة راجع: الغزالي، **فضائح الباطنية**، تح، عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964، ص10، والشهرستاني، **الملل والنحل**، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1998، 192/1.

(4) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 11.

(5) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة، 1994، ص 87.

بحكمه، فعمل على تدعيمه بالمال والعتاد وحتى بالدعاية،[1] غير أن خطوة البساسيري هذه تعرضت للفشل نتيجة استعانة الخليفة العباسي القائم بأمر الله بطغرلبك السلجوقي الذي تمكن من القضاء على دعوة البساسيري، وخلص الخلافة العباسية من ذلك الخطر.[2]

ا أن الخلافة الفاطمية الساعية إلى تحقيق مآربها في نشر الدعوة الإسماعيلية، تعرضت لنكسة داخلية تمثلت في انقسام أنصار الدعوة حول من يتولى الخلافة بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله، فكان لصاحب الوزارة في ذلك الوقت الأفضل بن بدر الجمالي اليد الطولى فيما حدث، إذ أقر للمستعلي بن المستنصر بالخلافة دون ابنه نزار صاحب الحق الشرعي بالخلافة بأمر من والده،[3] وهو ما دفع بالفريقين إلى المواجهة العسكرية، التي عاد فيها النصر للوزير الأفضل، حيث أغوى بعض أنصار نزار بالأموال والإقطاعيات، فأسر على إثر ذلك نزار وقتل شر قتلة من طرف الأفضل.[4]

إن مقتل نزار يعد بداية النهاية للدعوة الإسماعيلية في مصر، لتظهر في ثوب جديد ولكن في هذه المرة في بلاد الشرق، حيث تزعم الدعوة الحسن بن الصباح،[5] الذي يذكر المؤرخون عنه أنه جاء إلى مصر في حياة المستنصر بالله فأحسن استقباله وأكرمه وأمره بدعوة الناس إلى إمامته، فسأله ابن الصباح: من الإمام بعدك؟ فقال المستنصر: ابني نزار، فعاد ابن الصباح من مصر إلى ألموت[6] قلعته في الشرق وعمل على نشر الدعوة إلى المستنصر وابنه من بعده في الشام والجزيرة والعراق وبلاد الروم وخراسان وبلاد ما وراء النهر، فكانت حملة ابن الصباح بمثابة حركة مضادة لخلافة المستعلي،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) الذهبي، العبر، 220/3، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 225/4.

(2) عبد الرزاق محمد أسود، **موسوعة العراق السياسية**، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، 1986، مج1، ص 358-359.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/141-142، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 171/4

(4) المقريزي، **كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية**)، مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع، القاهرة، دت، 1/ 423، عثمان عبد الحميد عشري، المرجع السابق، ص13- 14.

(5) هو الحسن بن الصباح، صاحب ألموت وزعيم الإسماعيلية، كان داهية ماكرا، زنديقا، من شياطين الإنس، توفي سنة 518هـ، بامخرمة، **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر**، دار المنهاج، ط1، جدة، 1428هـ/ 2008م، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 95، الذهبي، العبر، 42/4، ابن الأثير، الكامل، 10/ 625.

(6) ألموت: قلعة حصينة من ناحية روذبار بين قزوين وبحر الخزر على قمة جبل، وهي كرسي ملك الإسماعيلية، القزويني، آثار، ص 301.

والتي كان من أهم نتائجها أن قتل الأفضل بتلك الطريقة التي عرف بها الباطنية، وكان ذلك في رمضان 515هـ/ 1121م[1]

أما عن الدور الذي لعبته الباطنية في حوادث التاريخ الإسلامي، قبل العدوان الصليبي والمغولي فيعد أحد أهم الثغرات التي استغلها هؤلاء الغزاة للاستيلاء على ممتلكات بلاد الإسلام وتثبيت أقدامهم فيها، على اعتبار أن هؤلاء الباطنية كانوا يستخدمون كل الوسائل في سبيل تحقيق أهدافهم، حتى وإن كانت لها مساوئ على العالم الإسلامي، كما وكانوا لا يترددون في قتل كل من يناصبهم العداء أو يقف في وجه دعوتهم.

فقد حدث في سنة 485هـ/ 1092م أن قامت مجموعة من هؤلاء بقتل وزير السلطان السلجوقي ملكشاه نظام الملك،[2] مما كان له أثر كبير على الدولة الإسلامية، ذلك أن لنظام الملك دور كبير في تنظيم الدولة وترتيب أمورها،[3] إذ تقر معظم المصادر التاريخية على أنه كان من أعظم وزراء الدولة الإسلامية على الإطلاق، فكان وزير صدق يكرم العلماء والفقراء،[4] فضلا عن أنه صاحب فكرة تأسيس المدارس النظامية في العراق وفارس، وقد ترتب عن مقتله أن تشوشت أمور السلطان ملكشاه، واختلت الأحوال بدولته وطاح العدل وانطفأت أنوار العلم.[5]

بهذا فقد صار الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند الباطنية لتنفيذ خططهم وأعمالهم، مما أثار الرعب والخوف في نفوس أهالي العراق وفارس، حتى أدّى ذلك بالأمراء إلى ارتداء الدروع تحت ثيابهم.[6]

أخذ نفوذ الباطنية يزداد حين امتد إلى بلاد الشام منذ عهد الملك رضوان بن تتش صاحب حلب[7] (488هـ- 507هـ/ 1095م- 1113م)، حيث شايعهم رضوان وأنشأ لهم دارا

---

(1) ابن ميسر، **أخبار مصر**، القاهرة، 1919، 2/ 37، عثمان عبد الحميد عشري، المرجع السابق، ص16-20.

(2) هو أبو الحسن علي بن إسحاق المكنى بنظام الملك (408هـ- 485هـ / 1017م- 1092م) استوزره ألب أرسلان ثم ملكشاه، عمر المدن وأصلح البلاد، كانت له أعمال جليلة على عهد ملكشاه، ابن الأثير، الكامل، 10/ 201-205.

(3) حامد زيان حامد، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص89.

(4) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت، ص 205، ابن كثير، البداية والنهاية، 90/12.

(5) حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص 89. عثمان عبد الحميد عشري، المرجع السابق، ص 52.

(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 681.

(7) حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، طيبة الهواء، صحيحة الأديم والماء وهي قصبة جند قنسرين، ياقوت: معجم البلدان، 166/3، القزويني، آثار، ص 183، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 46.

لدعوتهم في حلب،[1] فكان ذلك عاملاً محفزًا لهم على تحقيق أهدافهم، فكثفوا من نشاطهم، وقاموا باغتيال الكثير من قادة المسلمين، فازدادت الفوضى والاضطراب في بلاد الشام، مما أضاف عاملا آخر من عوامل ضعف الجبهة الإسلامية في مواجهة الخطر الصليبي الذي بدأت جحافل خيول جيشهُ تسمع على مشارف بلاد الإسلام.

وقد استنكر أهالي الشام أعمال الباطنية، كما اشتكى منهم بعض الأمراء لرضوان، وطالبوه بالكف عن تأييدهم ومساندتهم، غير أنه لم يجب عليهم، فيقول عن ذلك ابن العديم:" وكاتبه الملوك في أمرهم، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم".[2]

ولعل الدافع من وراء مساندة رضوان لهؤلاء ما كان واقعًا في البيت السلجوقي من انقسام وتطاحن حول السلطنة، فكان رضوان يرى في الباطنية عونًا له لتحقيق أطماعه في توسيع مناطق حكمه، وكذا التخلص من منافسيه في تلك الأطماع، فيتضح لنا من خلال هذا حال بلاد الشام التي كانت محط أطماع الصليبيين، فقد كان يتوجب على السلاطين السلاجقة ترك تلك الخلافات جانبا، وتغليب مصلحة الإسلام على الأطماع الشخصية والتصدي لتلك الحملات التي شنها أعداء الإسلام، التي لم تكن لتنجح لولا المجال الخصب الذي وفره لها المسلمون بصراعاتهم الداخلية وسوء تقديرهم للخطر الصليبي.

ومثال ذلك ما فعله ثلاثة من الباطنية بقتل جناح الدولة بن الحسين صاحب حمص[3] سنة 496هـ/ 1102م، والذي كان على عداء مع رضوان صاحب حلب، حيث كانت نتيجة مقتل جناح الدولة، فرصة لريموند التولوزي (496هـ- 499هـ/ 1102م- 1105م) في الاستيلاء على طرابلس بعد أن كان جناح الدولة حصنًا بينه وبين أطماع ريموند،[4] وكذلك اغتيال الباطنية لخلف بن ملاعب صاحب أفامية[5] مما جعل تانكرد (498هـ- 506هـ/ 1104م- 1112م) ينتهز

---

[1] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 215، الحلبي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، المطبعة المارونية، حلب، (د ت)، 1/ 192

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، 145/2.

[3] حمص: بلد مشهور، قديم كبير مسور، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة بين دمشق وحلب، ياقوت، معجم البلدان، 182/3، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 46.

[4] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 230. ابن الأثير، الكامل، 184/10.

[5] أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، ياقوت، معجم البلدان، 183/1.

الفرصة ويستولي عليها، كما أخذ يفكر في الاستيلاء على كفر طاب[1]، وغيرها من المدن،[2] واستمر مسلسل اغتيال الباطنية لقادة الإسلام، فلم يَسلم منهم حتى أولئك الذين حملوا على عاتقهم أمر محاربة الصليبيين كالقائد التركي مودود وآقسنقر البرسقي والد عماد الدين زنكي صاحب الموصل،[3] فكان مقتلهما نكسة أخرى من نكسات المسلمين استفاد منها الصليبيون الذين فرحوا كثيرا لمقتلهما.

غير أن أخطر دور لعبه الباطنية في أحداث التاريخ الإسلامي، كان بتحالفهم مع الصليبيين . بقية الزعماء من المسلمين، حيث رحب الصليبيون بهذا التحالف لحاجتهم إلى من يزودهم بأوضاع المسلمين وبلادهم، فاستعانوا بالباطنـ في تنفيذ العديد من مخططاتهم، كمساعدتهم الصليبيين على نورالدين محمود بعد أن أبطل الكثير من شعائر الشيعة، لذا لم يتوانوا في الوقوف ضده وتقديم الدعم لأعداء الإسلام،[4] ا وأنهم وقفوا مع عموري الأول (558هـ- 569هـ/ 1162م- 1173م) ملك بيت المقدس ضد صلاح الدين الأيوبي بعد ما أسقط الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م، فدبروا لقتله عدة مرات لكن محاولاتهم باءت بالفشل.[5]

كان للدعوة الباطنية دور كبير في تلك الفترة من تاريخ المسلمين، حيث لم يقتصر على إضعاف المسلمين بالتخلص من قادتهم وأمراءهم فحسب، بل أن تحالفهم مع الصليبين كان له أكبر الأثر في نجاح الحملات الصليبية وتحقيقها لأهدافها بتلك السهولة وفي تلك الفترة القصيرة، كما وأن الدعوة الباطنية ساهمت في إضعاف القوى الإسلامية في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، بوقوف رجالاتها في كثير من الصراعات التي نشبت بين القادة المسلمين سواء من الخوارزميين أو السلاجقة، وحتى مع القوى الأجنبية كدولة الخطا والمغول.

---

(1) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج، ياقوت، معجم البلدان، 145/7، القزويني، آثار، ص 248.

(2) ابن الأثير، الكامل، 10/ 185، ابن منقذ، الاعتبار، ص 76.

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 298.

(4) أبو شامة، الروضتين، 57/1، الحلبي، نهر الذهب، 1/ 191.

(5) ابن واصل، **مفرج الكروب، في أخبار بني أيوب**، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1972، 249/1.

2- أحوال مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين

2-1 الفاطميون وعلاقاتهم بالعباسيين والسلاجقة

كانت مصر في تلك الفترة التي سبقت العدوان الصليبي والغزو المغولي على مشرق العالم الإسلامي تحت حكم الفاطميين، الذين أدركوا عدم استطاعتهم تقويض حكم العباسيين على بلاد الإسلام الواسعة وهم ببلاد المغرب،[1] ولهذا فقد كانت فكرة السيطرة على مصر أولى الخطوات نحو تحقيق غايتهم في إسقاط الخلافة العباسية السنية وترسيم الخلافة الفاطمية بمذهبها الشيعي، إذ بالسيطرة على مصر سيتسنى للفاطميين فتح الشام والجزيرة والسيطرة على الحجاز، وبالتالي تعبيد الطريق نحو عاصمة العباسيين.[2]

فالفاطميون منذ أن تمَّ لهم السيطرة على مصر،[3] واستقروا بها، واطمأنوا على خلافتهم فيها، عملوا على مدِّ نفوذهم شرقًا نحو بلاد الشام، معتبرينها امتدادا لمصر وجعلها قاعدة أمامية لصد الغزو الخارجي، وتأمين حدودهم مع القوى المجاورة لهم كالعباسيين والروم البيزنطيين، ولأنَّ الخلافة العباسية هي الأخرى كانت ترى في بلاد الشام امتدادا طبيعيا لممتلكاتها فقد عمل خلفاؤها جاهدين على إبقاءها تحت سيطرتهم،[4] ممَّا جعل منطقة الشام مسرحا للعديد من المعارك الطاحنة بين العباسيين والفاطميين.

إنَّ الاسترسال في ذكر تاريخ الفاطميين أو الأيوبيين في مصر، لا يدخل ضمن نطاق دراستنا هذه، وإنما ما يفيدنا في هذا المجال هو معرفة الأحوال التي ميَّزت العلاقات بين القوى الإسلامية التي عاصرتهم من عباسيين وسلاجقة وخوارزميين، إضافة إلى معرفة ما ميَّز البلاط الفاطمي والأيوبي – بعد ذلك- من صراعات وفتن داخلية كانت سببًا في إضعاف قوتهم، في حين كان الإفرنج يحضرون

---

(1) تأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عام 297هـ /910 م، أنظر، عبد المنعم ماجد، ص1، وعن محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر راجع: ابن الأثير، الكامل، 8/ 84، 89، ابن خلكان، وفيات، 5/19-20، النويري، **نهاية الإرب في فنون الأدب**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1923، ص 26، 35- 40، ابن خلدون، تاريخ، 4/ 38- 39.

(2) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 87.

(3) حكمت الخلافة الفاطمية في مصر زهاء قرنين من الزمان (358 هـ - 567 هـ/ 969م – 1171م)، أنظر: القلقشندي، صبحي الأعشى، 345/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 28/4، ابن خلكان، وفيات، 375/1.

(4) خاشع المعاضيدي وآخرون، **الوطن العربي والغزو الصليبي**، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بغداد، 1981، ص 11، أحمد إسماعيل علي، **تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132هـ – 463هـ / 749م – 1070م)**، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 1984، ص 143.

أنفسهم للاستيلاء على ديار الإسلام تحت غطاء الحرب من أجل الصليب، والذي سنتعرض له بالدراسة في فصل لاحق.

تميَّزت العلاقات الفاطمية العباسية – كما أشرنا سلفا– بكثير من التوتر والاضطراب والصراع حول توسيع مناطق النفوذ، والسيطرة على أكبر عدد ممكن من الأقاليم، ولعل ما زاد هذا الوضع تأزما وأضعف من محاولات التخفيف منه وإيقافه، ما كان يعتقده كل من الفريقين، فالفاطميون يرون في أن الولاية أي الطاعة في دار الإسلام لا يجب أن تكون إلاَّ للإمام الفاطمي، فوجود خليفتين أو أكثر ليس من عقيدة الفاطميين،[1] وعليه فإن خلفاءهم لم يكونوا يعترفون بخلافة العباسيين في العراق ولا حتى الأمويين في الأندلس، وهو ما خلق صراعات متتالية بين القوتين الإسلاميتين.

لم يكن بمقدور العباسيين أن يوقفوا توسع الفاطميين ودحرهم لإنهاء خطرهم،[2] بل إنَّ نفوذهم امتد في عهد المستنصر إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي إفريقيا، وكان اسم المستنصر يذاع في الخطب على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا وفي صقلية واليمن والحجاز والموصل، بل وفي بغداد نفسها،[3] وعلى ما يبدو فقد تمتعت مصر في ذلك الوقت بقدر وافر من الرخاء، وهو الأمر الذي يشهد عليه الرحالة ناصر خسرو عندما زار مصر سنة 439هـ/ 1047م، حيث يصف لنا ثروة البلاط الإسماعيلي وأبهته، وما كانت عليه القاهرة آنذاك من يسر ورخاء،[4] ولذلك فقد عمل العباسيون على إتباع أساليب أخرى للحد من توسع الفاطميين المستمر، ففكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة رضي الله عنهما، بإصدار عدة فتاوي تفيد بأن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب، وقد كانت هذه الفتاوي بأمر من الخليفة القادر والذي أشهد عليها القضاة والأئمة.[5]

---

[1] عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص 110، أيمن فؤاد السيد، **الدولة الفاطمية في مصر – تفسير جديد**–، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1992، ص 61.

[2] حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص32.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، 210/8، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 4/ 168.

[4] ناصر خسرو، **سفر نامة**، ترجمة، يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص 46–48، المقريزي، الخطط، 356/1.

[5] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 229/4–230، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 14.

وكما كان من العباسيين اتجاه الفاطميين فقد كان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ينتهز فرصة الانتقام من العباسيين، ولذا عمل على تأييد البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، فلم يدخر جهدًا في إمداده بالأموال لضخمة والجند الذين بعث بهم من بلاد الشام،[1] إضافة إلى أنه أرسل داعيته المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سفيرا لبث الحماسة في جند البساسيري وكتب له كتابا يعبر له فيه عن تقديره لموقفه.[2]

وتعد خطوة البساسيري هذه ذروة التحدي الفاطمي للعباسيين[3]، وأشدَّ مراحل الصراع بين العباسيين والفاطميين،[4] فقد استغل البساسيري ضعف السلطة البويهية في شخص الملك الرحيم، وأخذ يفكر في إسقاط الخلافة العباسية، فتمَّ له الاستيلاء على العاصمة بغداد، وتلقَب بالملك المظفر، وخطب له على منابر بغداد والعراق كُلِّها،[5] ونظرًا لما لقيه من دعم كبير بالأموال والدعاية من قبل الفاطميين فقد أمر بالخطبة للخليفة المستنصر على منابر بغداد.

لما كان عليه الخليفة القائم بأمر الله والملك الرحيم البويهي من الضعف وعدم قدرتهم على مواجهة البساسيري المدعوم من الفاطميين، فقد استنجد الخليفة العباسي عليه بمحمد بن ميكائيل المعروف بطغرلبك، الذي قصد بغداد على رأس جيش كبير وخلص الخليفة القائم من خطر البساسيري، فأسقط الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي وأعادها للخليفة العباسي.[6]

كان من أثر هذا النصر الذي حققه طغرلبك على البساسيري أن زاد نفوذ السلاجقة في العراق، خاصة بعدما تزوج الخليفة القائم بأمر الله بأخت طغرلبك،[7] فتمكن بذلك من تثبيت دعائم الحكم السلجوقي في تلك البلاد، خاصة وأنهم كانوا سنيون تلتقي أفكارهم مع أفكار العباسيين عكس الفاطميين،[8]

---

(1) المقريزي، الخطط، 356/1.

(2) الذهبي، العبر، 220/3، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 225/4.

(3) حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 20.

(4) حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص34.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، 84/12، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 451/5. الذهبي، العبر، 212/3.

(6) عبد الرزاق محمد أسود، المرجع السابق، ص 358- 359.

(7) الذهبي، العبر، 215/3

(8) الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، المطبعة الوهبية، مصر، 1283هـ، ص 359، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 31.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أخذ السلاجقة محل البويهيين واستئثأثروا بالسلطة الزمنية في بغداد، فصاروا حماة الدولة العباسية وأملاكها، ووقع على عاتقهم الدفاع عنها ضد أعدائها، ولأنَّ الفاطميين هم أحد أعداء الخلافة العباسية،[1] فقد شهدت العلاقات السلجوقية – الفاطمية صراعات وحروب طاحنة أنهكت القوتين بشكل كبير وساهمت في ضعف جبهة القتال ضد الغزوات الخارجية.

عزم السلطان السلجوقي طغرلبك منذ دخوله بغداد على استعادة مناطق النفوذ العباسي في بلاد الشام التي استولى عليها الفاطميون في فترة ضعف الخلافة العباسية، غير أن الأيام لم تمهل طغرلبك لتحقيق غاياته، حيث توفي بعد سنة فقط من دخوله بغداد سنة 455هـ/1063م، فتكفل ابنه ألب أرسلان بذلك، حيث تمكّن من إخضاع حلب لسيطرته، بعد أن تردد واليها الفاطمي محمود بن نصر العقيلي في إقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله، واستولى كذلك على معظم المناطق الجنوبية من بلاد الشام التي كانت خاضعة للنفوذ الفاطمي وضمها إلى ممتلكات دولة السلاجقة وذلك تحت قيادة الأتابك أتسز.[2]

انشغل السلطان ألب أرسلان بسبب حروبه مع الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع – والذي ألحق به هزيمة ساحقة في معركة مانزكرت Mentzikert سنة 463هـ/1071م–[3] عن مواصلة استعادة مناطق النفوذ في بلاد الشام من الفاطميين، مما دفع بعض حكام المدن الشامية إلى إعادة الخطبة للخليفة الفاطمي، لكنَّه وبعد وفاة السلطان ألب أرسلان سنة 465هـ/ 1072م،[4] واصل ابنه ملكشاه 465هـ– 485هـ/ 1072م– 1092م سياسة أسلافه الرامية إلى التخلص من النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، بل أن ملكشاه سعى إلى الإطاحة بهم في عقر دارهم، حيث عزم أتابكه أتسز على السير صوب الديار المصرية وانتزاعها من الفاطميين، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب تصدي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي بدر الجمالي لأتسز وأنزل به هزيمة ساحقة.[5]

اشتد الصراع بين السلاجقة والفاطميين على عهد السلطان ملكشاه، واستمر ذلك الصراع قائمًا ببلاد الشام قبيل وصول حملات الإفرنج، ليجعل من هذه المنطقة مجالاً خصبًا للتفرق والانقسام، مما سهل على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها، بل أن من الآراء التي تشرح مدى

---

(1) حامد زيان حامد، الرجع السابق، ص 41.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص166– 167.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 86/5، سهيل زكار، المرجع السابق، ص 278.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، 107/12، ابن الأثير، الكامل، 113/8.

(5) حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص 43.

التفكك الذي آل إليه وضع المسلمين في هذه الفترة أن الفاطميين نتيجة الصراع الذي كان قائما بينهم وبين السلاجقة قد دفعهم إلى الاستنجاد بالغرب الأوروبي على أعدائهم خوفا من استيلاءهم على الديار المصرية، بل ووعدوهم بتسليم بيت المقدس لهم حتى يكونوا حاجزا بينهم وبين السلاجقة.(1)

2-2 الاضطرابات الداخلية والتدخلات الخارجية في البيت الفاطمي

شهدت العلاقات الخارجية للد الفاطمية مع القوى المجاورة العديد من الحروب والصراعات، الّتي دفعت في الكثير من الأحيان بالفاطميين عند الإحساس بضعفهم على مقاومة تلك القوى إلى التحالف مع الصليبيين، كما وانعكست تلك الصراعات على أوضاعهم الداخلية، فساءت أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية مما خلق في مصر مجالا واسعًا للاضطرابات.

وقد زاد من سوء الوضع الداخلي في البيت الفاطمي، ما عرفته مصر في عهد المستنصر من فتن داخلية كتلك التي وقعت فيها سنة 454هـ/ 1062م بين الجنود الأتراك تحت قيادة الحسن بن الحسين بن حمدان من ناحية وجماعة العبيد (أو السودان) الموالين للخليفة الفاطمي المستنصر بالله من ناحية ثانية، ولم تستطع مصر التخلص منها إلا بمقتل ابن حمدان سنة 465هـ/ 1072م (2)، وعن هذا الوضع يحدثنا صاحب النجوم الزاهرة فيقول: " في أيامه (يعني المستنصر) ثارت الفتن في بني حمدان وأكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال واختلت الأعمال، وحُصِر في قصره وطُمِع فيه"(3).

إضافة إلى ذلك فقد عصفت بمصر أيام حكم المستنصر أزمات اقتصادية خانقة كتلك التي يصطلح عليها المؤرخون "سنوات الشدة" والتي يشبهونها بالسنوات التي واجهتها مصر زمن النّبي يوسف عليه السلام، حيث دامت سبع سنين، يقول عنها صاحب النجوم الزاهرة: "وكان القحط في أيامه (يعني المستنصر) سبع سنين مثل سِني يوسف الصِّديق عليه السلام، أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينَزل، ولا يوجد من يزرع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية، فاستولى الخراب على كل البلاد ومات أهلها وانقطعت السُّبُل براً وبحرًا، وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين" .(4)

(1) حامد زيان حامد، المرجع السابق ، ص 42، 43.

(2) ابن ميسر، المصدر السابق، ص 13، ، ابن الأثير، الكامل، 81/10.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 90/5 – 91.

(4) نفسه، 3/5.

كان لهذه الأوضاع التي مرّت بها مصر آثار سيئة على الرعية،[1] حيث يقول عنها ابن تغري بردي: " هذا والغلاء يتزايد حتى أنّه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزّائد على الحد، والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا، فإنه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضا، وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها"[2]

كان أثر هذه الأوضاع أشد على الحياة السياسية للدولة الفاطمية،[3] فكان من أثر اشتغال الفاطميين بما أصابهم أن قطعت الخطبة للمستنصر بالحجاز وأقيمت للخليفة العباسي[4] كما وتدلنا أحوال الوزارة الفاطمية في عهد المستنصر عن مدى الفوضى السياسية التي سادت مصر في ذلك العهد، حيث تقلّد هذا المنصب أربعون وزيرا في تسع سنوات ابتداء من سنة 450هـ/ 1058م لم يمكث فيها بعضهم أكثر من يوم واحد، حتى أن الخليفة المستنصر اضطر إلى إلغاء هذا المنصب.

وأمام هذا الوضع المتأزم الذي كاد أن يودي بالخلافة الفاطمية إلى السقوط، قام الخليفة المستنصر باستدعاء أحد كبار رجال الدولة وهو بدر الجمالي الأرمني والي عكا سنة 466هـ/ 1074م، وفوض إليه حكم الدولة الفاطمية، وصار يلقب بأمير الجيوش.

كان مجيء بدر الجمالي إلى مصر، بمثابة قوة دفع جديدة حصلت عليها الدولة، حيث نجح في التغلب على المشكلات التي واجهتها الخلافة الفاطمية وخاصة حركات التمرد،[5] فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد.[6] وعن هذا يقول ابن تغري بردي:" وفوض (المستنصر) إليه (بدر الجمالي) أمور مصر والشام وجميع ممالكه، فاستقامت الأمور بتدبيره وسكنت الفتن، وصار الأمر كله له".[7]

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، 99/12.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 15/5.

(3) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 4/ 169.

(4) الذهبي، العبر، 294/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 84/5.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 141/5.

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 160/2، ابن كثير، البداية والنهاية، 189/12، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، 169/4.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 141/5.

لكن حالة الاستقرار هاته التي عرفتها الخلافة الفاطمية بمجيء بدر الجمالي، كان لها أثر بالغ على سلطة الخليفة الفاطمي، فقد ضاع منه السلطان وصار هذا الوزير يتحكم في كل شؤون الدولة، حيث يحدثنا صاحب النجوم الزاهرة عن ذلك في أكثر من موضع، فيقول: " وليس للخليفة معه سوى الاسم لا غير .... ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين"[1]

كان من نتيجة استدعاء المستنصر لبدر الجمالي أن برزت ظاهرة الازدواج في السلطة، والتي لازمت الخلافة الفاطمية إلى غاية سقوطها في أيدي الأيوبيين، فقد كان لهذه الظاهرة آثار سيئة على الدولة بعد وفاة المستنصر،[2] إذ أنَّه وباعتلاء أبو القاسم شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي لقب بالأفضل منصب الوزارة حتى مدَّ نفوذه بصورة خطيرة لم تكن في عهد والده، فقد أسند الخلافة الفاطمية بعد وفاة المستنصر سنة 487هـ/ 1094م إلى واحد من أولاد الخليفة المستنصر، هو أبو القاسم أحمد (487هـ- 495هـ/ 1094م، 1101م)، الذي أصبح يعرف فيما بعد بلقب " المستعلي"، على الرغم من أن الخليفة المستنصر كان قد جعل ولاية العهد لابنه نزار.[3]

فترتب عن عمل الأفضل أن انقسم الفاطميون إلى فريقين: أحدهما يساند المستعلي بالله، والآخر يقف مع نزار، فقامت على إثر ذلك حرب أهلية بين الفريقين،[4] أرجعت مصر إلى تلك السنوات التي سبقت مجيء بدر الجمالي من ضعف وانقسام وفتن، في حين كان الصليبيون يزحفون بجحافلهم قاصدين ديار الإسلام، فكانت مصر الفاطمية في وضع لا يسمح لها بإقامة جبهة مقاومة إسلامية لرد ذلك العدوان الذي استفحل أمره فيما بعد وصار يتهدد حتى ديارهم المصرية، بعد أن تمَّ لهم الاستيلاء على العديد من مناطق نفوذهم في بلاد الشام.

استمر ذلك الوضع في الخلافة الفاطمية بعد المستنصر وابنه المستعلي، وأخذ منصب الخليفة يضعف ويتضاءل نفوذه، في حين صار النفوذ والسلطان في يد الوزراء، الذين لم يتوانوا في بث الفتن داخل البيت الفاطمي مثل ما أشرنا إليه سابقا من انحراف الأفضل بوصية المستنصر ومنح منصب الخلافة للمستعلي بدل أخيه نزار صاحب الحق بمنصب الخلافة بأمر من المستنصر، وهو ما أحدث

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/5.

(2) نفسه، 23/5.

(3) تشير المصادر العربية إلى قيام الأفضل بذلك الفعل نتيجة ما حدث بينه وبين نزار حينما دخل الأفضل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكبا بغلة، فلما رآه نزار قال له: انزل يا أرمني يا نجس، فحقد عليه الأفضل، وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة. أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/141-142، المقريزي، الخطط، 1/ 356.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 143/5.

حربا أهلية بين أفراد البيت الفاطمي،[1] فكان من نتيجة هذا الصراع بين الخلفاء والوزراء والحروب الأهلية بين أبناء البيت الفاطمي أن ساءت الأحوال السياسية للدولة الفاطمية وجعلها تضعف أمام الأخطار الخارجية، بل أن العديد من المدن الفاطمية على الساحل الشامي قد صارت مُلكا للصليبيين الذين لم يجدوا من يقاومهم في زحفهم على تلك الأقاليم، لانشغال الفاطميين بمشاكلهم الداخلية.

2-3 سوء الأحوال في مصر الأيوبية بعد صلاح الدين:

تطرقنا سابقا إلى الوضع السائد في مصر أيام حكم الفاطميين، والذي عاصر وجودهم مجيء الصليبيين واستيلاءهم على العديد من المدن الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة، فرأينا مدى هشاشة جبهة المقاومة الإسلامية في مصر ضد هذا الغزو الخارجي، نتيجة ما ساد علاقات الفاطميين بالقوى الإسلامية المعاصرة لحكمهم من عباسيين وسلاجقة، إضافة إلى الاضطرابات الداخلية والتدخلات الخارجية التي ميزت البيت الفاطمي في آخر أيام حكمه.

لكن موقف مصر السلبي هذا حيال العدوان الصليبي سرعان ما تغير باعتلاء بني أيوب عرش مصر، حيث يشهد التاريخ لصلاح الدين[2] توحيده لجبهة المقاومة الإسلامية، وتحقيقه لعدة انتصارات على حساب الصليبيين لعل أهمها موقعة حطين سنة 583هـ/1187م، والتي أسر فيها العديد من ملوك أوروبا وأمرائها، وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى،[3] والأهم من ذلك استرداد بيت المقدس سنة 583هـ / 1187م.[4]

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 282

(2) انتهت السلطة الفاطمية على مصر وحلت محلها سلطة الأيوبيين سنة 564هـ/ 1164م، بعد أن تدخل نورالدين محمود لدى الوزير شاور السعدي الفاطمي في صراعه مع أبو الأشبال ضرغام حول السلطة في مصر، حيث سير نورالدين أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين، لتكون هذه الخطوة نقطة البداية في تأسيس الدولة الأيوبية، أنظر ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، دار القلم العربي، ط2، حلب، 1987، ص 09، ابن خلكان، الوفيات، 3/474، ألبير شاندور، **صلاح الدين الأيوبي – البطل الأنقى في الإسلام –**، ترجمة، سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988، ص75.

(3) ابن الأثير، الكامل، 11/ 537.

(4) سنتطرق إلى استرداد بيت المقدس في الفصل الموالي من هذا البحث، وللإطلاع أكثر راجع: الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، المطبعة الخيرية، ط1، 1322هـ، ص 53. أبو شامة، الروضتين، 2/112، ابن الأثير، الكامل، 11/551، اسمت غنيم، **الدولة الأيوبية والصليبيون**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص41- 42.

فصلاح الدين منذ توليه الوزارة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي[1] وتأسيسه للدولة الأيوبية وإلى وفاته سنة 589هـ/1193م رسم لنفسه ولدولته سياسة قائمة على توحيد المسلمين، وجعل محاربة الصليبيين وإخراجهم من ديار الإسلام أولوية تسمو فوق كل الاعتبارات، وبالفعل فقد دونت كتب التاريخ، سواء العربية منها أو الإفرنجية، المعاصرة أو المتأخرة ما حققه المسلمون من انتصارات بثت الرعب في نفوس الصليبيين، وجعلتهم يرون مدة نهاية تواجدهم على أرض الإسلام بالوقت غير بعيد.

ن نهج السياسة التي رسمها صلاح الدين لم تكن لتستمر بعد وفاته، إذ تأثرت جبهة المقاومة الإسلامية، ودخل البيت الأيوبي في صراع شديد بين خلفاء صلاح الدين سواء من أبنائه أو إخوته، حيث أنه ما إن تولى الأفضل نورالدين علي (582هـ- 592هـ/ 1186م- 1195م)[2] وهو أكبر أبناء صلاح الدين عرش السلطنة الأيوبية متخذًا من دمشق مقرًا لحكمه[3]
حتى أخذ يتخلص من حاشية أبيه من أمراء ووزراء وكبار قواده، واستبدالهم بآخرين تحت تأثير وزيره ضياء الدين ابن الأثير،[4] الذي فوض إليه الأفضل كل أمور السلطنة، فكان من أثر ذلك أن توجه هؤلاء الأمراء إلى القاهرة التي كانت في حوزة العزيز عثمان الابن الثاني لصلاح الدين (589هـ-595هـ/ 1193م- 1198م) حيث أكرمهم وأحسن وفادتهم وولاهم على أقاليم خاضعة لسيطرته.[5]

---

[1] صدر تكليف صلاح الدين بمنصب الوزارة في بلاط العاضد الفاطمي سنة 564هـ /1169م من الخليفة الفاطمي نفسه، ولقبه بالملك الناصر أنظر: أبو شامة، الروضتين، 173/1.

[2] تشير المصادر التاريخية إلى أن الأفضل لم يكن بالشخصية التي تليق بتولي السلطنة الأيوبية، فقد كان ضعيف الشخصية، سيء السيرة والسلوك، لا يهتم بأمور الرعية ويقضي معظم أوقاته في شرب الخمر واللهو والاستماع إلى الغناء. أنظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 120/6-121، أحمد الحريري، **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين**، تحقيق، مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، 1986، ص 44، اسمت غنيم، المرجع السابق، ص58.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، 372/2، الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980، 187/5.

[4] من جملة الأمراء والقادة الذين عزلهم الأفضل نذكر: الأمير فخر الدين جهاركس، الأمير فارس الدين ميمون القصري، الأمير شمس الدين سنقر الكبير، ثم التحق بهم بهاء الدين بن شداد (صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) أنظر: حمدي عبد المنعم محمد حسين، **دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 95.

[5] أحمد الشامي، **صلاح الدين والصليبيون**، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1991، ص 163، حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 95، اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 58.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وانتقامًا لما قام به الأفضل اتجاه أمراء والده، فقد عمل هؤلاء جاهدين على تحريض العزيز لمنازلة أخيه الأفضل وانتزاع السلطنة منه[1]، فكانت بذلك بداية الخلاف والصراع في البيت الأيوبي، مؤذنا بتفكك الوحدة التي جاهد صلاح الدين لعدة سنوات على إقامتها من أجل طرد البقية الباقية من الصليبيين.[2]

أذعن العزيز لمطالب أمراء والده، وسار بجيوشه قاصدًا دمشق سنة 590هـ/1194م، فضرب عليها الحصار متحججًا برغبته في الحفاظ على أمجاد دولة والده،[3] ولما كان من الأفضل عدم مقدرته على مواجهة جيوش أخيه عثمان فقد أرسل إلى عمه العادل[4] يطلب عونه على أخيه،[5] فلبى العادل نداء الأفضل وجمع الأمراء من بيت صلاح الدين ووقفوا جميعا في وجه العزيز عثمان، لتنتهي هذه الحلقة من حلقات الصراع في البيت الأيوبي بالصلح الذي أخد بموجبه العزيز عثمان حكم بيت المقدس[6] وسائر أعمالها، أما الأفضل فقد احتفظ بدمشق.[7]

عاد الصراع ليتجدد مرة أخرى بين الأخوين نتيجة الشكاوي التي كانت من أمراء الأفضل بسبب استئثار الوزير ضياء الدين بن الأثير بالسلطة، فانتهز العادل الفرصة واتفق مع العزيز على انتزاع السلطة من الأفضل وإبعاده إلى صرخد، وأن يتولى العادل حكم دمشق، ويصير لقب السلطنة بيد العزيز عثمان،[8] فكان لهما ما يريدان.

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، **مصر والشام في عصر الأيوبيون والمماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 77، أسمت غنيم، المرجع السابق، ص 58.

(2) حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص 104، اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 58.

(3) أحمد الشامي، المرجع السابق، ص 163.

(4) كان الملك العادل سيف الدين أبو بكر أخ صلاح الدين (592هـ- 615هـ/ 1195م- 1218م) يحكم الكرك والأردن بالإضافة إلى الجزيرة وديار بكر، وقد كان غير راض بإقطاعياته فكان ينتهز الفرصة لمد نفوذه على حساب أبناء أخيه، أنظر: ابن واصل، مفرج الكروب، 372/2، اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 58.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 372. أحمد الشامي، المرجع السابق، ص 163. حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 96.

(6) يقال بأن الوزير ضياء بن الأثير هو من أشار على الأفضل ابن صلاح الدين باسترضاء العزيز عثمان ومنحه حكم القدس، للحد من خطر جيوشه، أنظر حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 96.

(7) المقريزي، **السلوك في معرفة دول الملوك**، تح محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1936، 1/ 128، ابن الأثير، الكامل، 109/12.

(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 61/6، أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1966، 92/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبوفاة العزيز عثمان سنة 595هـ/ 1198م، عاد الصراع ليشب بين العادل والأفضل على الحكم،[1] حيث انقسم الأمراء بين تولية الأول حكم مصر واستدعاء الثاني من صرخد لاعتلاء العرش، لينتهي الصراع بتولي الأفضل أمور السلطنة،[2] على أن العادل بقي متمسكًا بطموحه في توحيد الجبهة الإسلامية، وأرسل إلى أمراء مصر واتفق معهم على تسليمها له، فسارع إليها بجيوشه وأنزل هزيمة ساحقة بجيوش الأفضل، ليؤول الحكم فيها بعد ذلك إليه.[3]

ظل الصراع بين أبناء البيت الأيوبي الصفة الغالبة على تاريخهم منذ وفاة مؤسس دولتهم صلاح الدين، حيث نشب من جديد بين أبناء الملك العادل بعد وفاته (615هـ/ 1218م)[4] واستمر حتى سقوط دولتهم وتولي المماليك حكم مصر سنة 648هـ/ 1250م.

وعلى كل حال فإن التفصيل فيما كان من صراعات داخل البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين ليس بالأهمية الكبرى في بحثنا هذا، بقدر ما يهمنا نتائج هذه الصراعات التي كانت عونا للصليبيين، على تثبيت وجودهم في ديار الإسلام بل وأعانتهم على استرداد العديد من المدن والحصون التي تم للمسلمين السيطرة عليها بعد استعادتها منهم أيام حكم صلاح الدين، وحتى في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي الذي كان يعرف بداية اشتداد وطأة المغول على أملاك الدولة الخوارزمية وعزم زعيمهم جنكيزخان على غزو بلاد الإسلام، لتضعف بذلك هذه الصراعات جبهة المقاومة الإسلامية وتجعلها غير قادرة على مواجهة الصليبين من جهة، ومد يد العون للخوارزميين لإيقاف الزحف المغولي من جهة ثانية.

3- الأوضاع السياسية في شرق العالم الإسلامي

لم يكن الجزء الشرقي من العالم الإسلامي قبيل غزوات المغول بأحسن حال من العراق وبلاد الشام ومصر، فقد كان التمزق والتطاحن وانتشار الفتن والحروب والدسائس وتصارع المذاهب السمة الغالبة على الوضع العام في تلك المنطقة من العالم الإسلامي.[5]

(1) الحريري، الإعلام، ص 45، حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 98. اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 60. حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص 105.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 3/ 87-89، حامد زيان حامد، المرجع السابق، ص 105
(3) أبو شامة، الروضتين، 235/2 وما بعدها.
(4) الحريري، الإعلام، ص 49.
(5) أنظر الخريطة رقم: (02)

فقد عرفت العلاقات بين مختلف القوى الحاكمة في تلك المنطقة، سواء كانت إسلامية – إسلامية أم إسلامية– أجنبية توترا كبيرا وانعداما للثقة، صاحبته تحالفات تغذيها المصالح والرغبة في التوسع على حساب القوى الضعيفة.

ولعل أبرز قوة إسلامية حكمت في تلك المنطقة من العالم الإسلامي قبل الغزو المغولي، الدولة الخوارزمية،[1] ولذا سنحاول أن نقدم صورة عن علاقاتها بأهم القوى المجاورة لها إسلامية كانت أم أجنبية للوقوف على أهم الأسباب التي كانت وراء ضعف جبهة المقاومة الإسلامية بهذه المنطقة في وجه أعظم كارثة تمر بالإسلام والمسلمين المتمثلة في الغزو المغولي، إضافة إلى عدم قدرة هذه الجبهة على مد يد العون إلى الجبهة الإسلامية التي كانت تتصدى للصليبيين في بلاد الشام ومصر.

3–1 الدولة الخوارزمية وعلاقاتها بالسلاجقة والخلافة العباسية

لقد كان ظهور الدولة الخوارزمية على مسرح الأحداث نتيجة حوادث تاريخية متعددة ومتداخلة أدت إلى ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات متعادية ومتنافرة، ترتفع الواحدة على أكتاف الأخرى، والدولة الخوارزمية لم تكن إلاَّ واحدة من هذه الدويلات.[2] إذ كانت في بداية أمرها لا تعدو أن تكون إحدى الأتابكيات التي ظهرت نتيجةً لانحلال الدولة السلجوقية، وأخذت تتوسع على حساب هذه الدولة نفسها بقدر ما كان يصيبها من ضعف.

فالدولة الخوارزمية تنتسب إلى أحد الأتراك وهو أنوشتكين الذي كان عبدا للأمير السلجوقي بلاتاجين Billa- Tagin حيث اشتراه وحمله إلى بلاط ملكشاه،[3] فكان يشغَلُ وظيفة الساقي، وهي إحدى الوظائف المعروفة في البلاط الإسلامي خلال تلك الفترة، وقد خَدَم نوشتكين السلطان ملكشاه ودرج في سلك الوظائف في أيامه، إلى أنْ أصبح حاكمًا على إقليم خوارزم[4] بتعيين من أحد قواد السلطان بركياروق وتلقب بلقب خوارزم شاه سنة 490هـ/ 1096م.[5]

فقد كان مما أصاب دولة السلاجقة من ضعفٍ سببًا مباشرا في بروز نجم الدولة الخوارزمية كقوة في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي، وتطلُعها إلى توسيع نفوذها على حساب القوى المجاورة

---

[1] أنظر الخريطة رقم: (03)

[2] حافظ أحمد حمدي، **الدولة الخوارزمية والمغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص 25.

[3] اسماعيل عبد العزيز الخالدي: **العالم الإسلامي والغزو المغولي**، مكتبة الفلاح، ط1، الكويت، 1984، ص 47.

[4] إقليم خوارزم: ناحية مشهورة ذات مدن وقرى كثيرة، واسعة الرقعة، فسيحة البقعة، جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات، القزويني، آثار ص 525، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 168.

[5] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 25، الخالدي، المرجع السابق، ص 47.

لها، حيث بدأ الصراع بين القوتين السلجوقية والخوارزمية حين أظهر أتسز بن أنوشتكين نواياه في الاستقلال عن السلاجقة، بل والأكثر من ذلك عمل على مواجهة سنجر السلجوقي (511هـ-552هـ/ 1118م- 1157م) في مرو[1] عاصمة إقليمه – خراسان وفارس- مما أدى إلى قيام حروب عديدة بين سنجر وأتسز لم يستطع خلالها هذا الأخير تحقيق مآربه في الاستقلال، مما دفعه إلى التحالف مع دولة الخطا[2] التي كانت تجاور أملاك كل من الخوارزميين والسلاجقة، منتهزا فرصة تهديد الخطا لدولة السلاجقة في فترات مختلفة وضعف سنجر أمامهم.[3]

ورغم ذلك لم يوفق أتسز في مد رقعة إقليمه على حساب السلاجقة في بادئ الأمر، إذ تعرض لهجوم من قبل سنجر عام 533هـ/ 1138م، انهزم فيها وقتل كثيرٌ من أتباعه حتى أنه وجد جثة ابنه في ساحة القتال، إلا أنه وبالرغم من هذه الهزيمة التي مني بها أتسز فقد استعاد سلطته على إقليم خوارزم وعزز من تحالفه بدولة الخطا فتزوج من هؤلاء القوم وشجعهم على قتال سنجر، مما أمكن للخطا بأن يوقعوا الهزيمة بسنجر وأتباعه سنة 536هـ/ 1141م، وأن يستولوا على بلاد ما وراء النهر.[4] [5]

وأمام هذا الوضع الذي كان فيه السلاجقة منشغلون بحرب الخطا، تقدم أتسز إلى العاصمة مرو وجلس على عرش سنجر واستولى على أمواله وجواهره، وقطع له الخطبة في خراسان،[6] إلا أن

---

[1] مرو: من أشهر مدن خراسان وأقدمها وأكثر خيرا وأحسنها منظرا وأطيبها مختبرا، ياقوت، معجم البلدان، 252/8، القزويني، آثار، ص 456.

[2] الخطا: هو الاسم الذي يطلقه الروس على بلاد الصين وهو في الأصل اسم لقبيلة مغولية، حول الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاي Cathay. أنظر ول ديورانت، قصة الحضارة، تح: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968، ط3، مج 1، 218/3. كما وقد ورد اسم قبائل الخطا في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادي، وهم خليط من المغول والتانجوت، والسبب في هجرة هذه القبائل من موطنهم الأصلي في شمال الصين، هو اضطراب الأحوال السياسية في النصف الأول من القرن الثاني عشر ميلادي وتقع دولة (القره خطائيين) بين مساكن المغول في الشرق ودولة خوارزم في الغرب، أنظر فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، 1/ 22-23.

[3] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 26- 27.

[4] بلاد ما وراء النهر: ويراد بها ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقه يقال له (بلاد الهياطلة)، وفي الإسلام أسموه ما وراء النهر، وما كان في غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم، وما وراء النهر من أنزه الأقاليم، وأخصبها، وأكثرها خيرا، وأهاليها يرجعون إلى رغبة في الخير والسخاء، القزويني، آثار، ص 557.

[5] ابن الأثير، الكامل، 31/11-40.

[6] البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 207.

سنجر استطاع استعادة نفوذه عليها أوائل سنة 537هـ/1142م، بعد عودته من حروبه مع الخطا.[1]

استمر ذلك الصراع بين سنجر وأتسز بين مد وجزر، حتى انتهى بوفاة الزعيمين الخوارزمي والسلجوقي،[2] وبوفاة سنجر خلا الجو للخوارزميين وزاد طموحهم في تحطيم قوة السلاجقة في خراسان وفارس، إذ أن محمود خان الذي خلف سنجر لم يكن له قيمة في نظر الخوارزميين، فاستطاع بذلك أيل أرسلان بن أتسز أن يبسط سلطانه على غربي خراسان، وأخذ يعمل على تقوية دولته دون أن يخشى القوة التي وقفت في وجه أسلافه من الخوارزميين، وليس أدل على ذلك من أن أيل أرسلان بن أتسز كان يذيل رسائله إليه بعبارة "صديقك الأمين" على حين أن أتسز كان يكتب لسنجر "عبدك".[3]

خلف أيل أرسلان الذي توفي سنة 568هـ / 1172م على حكم خوارزم ابنه علاء الدين تكش الذي استطاع أن يوسع دولته غربا ويجعل لها صدى مسموع بين حكام الأقاليم الإسلامية، حتَّى أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله الكاره لحكم السلاجقة أرسل إليه يطلب منه العون لتخليصه من طغرلبك آخر السلاطين السلاجقة في العراق[4]، فالتقى العسكران الخوارزمي والسلجوقي بالري سنة 590هـ/ 1193م وكان نصرًا مبيّنًا أحرزه الخوارزميون وقُتل طغرلبك في الموقعة فحَمل تكش رأسه إلى الخليفة العباسي في بغداد.[4]

وبانتهاء حكم السلاجقة في بغداد ظنَّ الخليفة العباسي النّاصر لدين الله أن الجو قد خلا له لإعادة سلطة العباسيين ونفوذهم عل ديار الإسلام،[5] إلا أنّ رغباته تلك اصطدمت بطموح أكبر منها، فالخوارزميون لم يرضوا بأن يكونوا أقل شأنًا من البويهيين والسلاجقة، وادّعوا أحقيتهم بما كان يتمتع به السلاجقة من حقوق لدى الخلافة العباسية، غير أنّ الأيام لم تمهل تكش طويلاً حتَّى يحقق

---

(1) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 27.

(2) كانت وفاة أتسز سنة 551هـ/ 1156م، أما سنجر فكانت سنة 552هـ/ 1157م أنظر ابن الأثير ، الكامل، 93/11.

(3) Barthold: Turkestan Down to the Mongol, Invasion, London, 1928, p332.

(4) ابن خلدون، تاريخ، 94/5.

(5) ابن الأثير، الكامل، 50/12.

(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 299.

ذلك الطموح فقد مات سنة 596هـ/ 1199م إثر مرض ألمّ به وهو في طريقه لتوسيع رقعة بلاده في خراسان.[1]

حمل بعده ابنه قطب الدين محمد - الذي اتخذ لنفسه لقب أبيه وتَسمّى علاء الدين محمد- عبء تحقيق طموحات أسلافه، إذ شرع في ذلك بالطرق السلمية،[2] طالبا من الخليفة النّاصر إقامة الخطبة له على المنابر وسك العملة باسمه، فرفض الخليفة إجابة علاء الدين على طلبه، مما جعل علاء الدين يستشيط لذلك وعزم على غزو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية، مستغلاً الأوضاع التي كانت تعيشها بغداد وباقي الأقاليم الغربية كمصر بلاد الشام والجزيرة، فأخذ الخوارزميون يُؤلبون المسلمين على الخلفاء العباسيين ويتهمونهم بتقاعسهم عن الجهاد وتركهم الثغور دون حماية، بل أكثر من ذلك فقد أراد علاء الدين أن يوقع فتنة طائفية بين السنة والشيعة حينما ادعى بأن العباسيين مغتصبون للخلافة من آل علي بن أبي طالب.[3]

ومن أجل دَرء هذا الخطر الذي صار يتهدد بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فقد أخذ الخليفة العباسي النّاصر لدين الله يطرق جميع الأبواب لَعلّه يجد من يعينه على صدّ هذا العدوان، فتحالف مع الخطا الوثنيين، وحرض الغوريين على مهاجمة الخوارزميين، كما ولجأ إلى أتابكي فارس وأذربيجان،[4] حتّى أنّه استعان بالمغول على الخوارزميين، لتكون بذلك دعوة صريحة من المسلمين لهؤلاء القوم، كانت نتيجتها وبالاً لم يشهد مثيله تاريخ البشرية على حد قول المؤرخ المعاصر للغزو عز الدين ابن الأثير.[5]

شرع علاء الدين محمد خوارزم شاه في تحقيق طموحاته سائرًا بجيوشه، قاصدًا بغداد سنة 614هـ/1217م، عازمًا على إسقاط الخلافة العباسية،[6] حتى أنّه لم يُجب على طلب من الخليفة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 73/12

(2) نفسه، 145/12.

(3) فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص 21، اسماعيل عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص49.

(4) ابن الأثير، الكامل، 145/12.

(5) نفسه، 440/12.

(6) السيد الباز العريني، **المغول**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 111.

العباسي أرسله مع الشيخ شهاب الدين السهروردي[1] للتفاوض وتجنب ويلات الحرب.[2]

ولكنّ الحظ لم يكن لصالح علاء الدين، حيث هبّتْ على جيوشه عواصف ثلجية دامت زهاء عشرين يومًا، أهلكت كثيراً من الرجال والدّواب، وأُبيد جلّ الجيش الخوارزمي، الذي لم يبق منه إلا فئةً قليلة، عاد بها خوارزم شاه لصدّ الخطر المغولي الذي اشتد وطأه في تلك الأثناء.[3]

2-3 علاقة الخوارزميين بدولة الخطا

إنّه من الأهمية بما كان دراسة تاريخ العلاقات بين الخوارزميين ودولة الخطا، إذ أنّ موطن هذا القوم كان حدّا فاصلا بين العالم الإسلامي وقبائل التتار الهمجيين في الشرق من بلاد ما وراء النهر، لذا فإنّ توطيد العلاقات مع دولة الخطا، وعدم الكشف عن مدى تفكك العالم الإسلامي بالتحالف معهم ضد بعضهم من حكام المسلمين، كانت أحسن طريقة ستجنب المسلمين ويلات ذلك الغزو الذي قدم من الشرق، وقاده جنكيزخان ملك المغول فعاث في ديار الإسلام من الفساد ما أسكت أفواه الكثير من شهود العيان، وجفّف العديد من محابر المؤرخين لتدوين وقائع هذا الجزء من تاريخ الإسلام والمسلمين.

فالعلاقات بين الدولة الخوارزمية ودولة الخطا قد اتسمت في عهد أتسز بن أنوشتكين بالهدوء المرفوق بالحذر من كلا الطرفين، ذلك أن الخوارزميين والخطا لم يكونا على خط المواجهة مباشرة، إذ كان يجمعهما عدو مشترك تمثّل في السلاجقة الذين كانوا يُعدّون أبرز قوة في تلك المنطقة.

فالخطا الذين أسسوا لأنفسهم دولة على الشطر الشرقي لنهر جيحون، كانوا يتطلعون دائمًا إلى الأقاليم الواقعة غرب هذا النهر، بُغية الحصول على كنوزه والتمتع بخيراته،[4] إذ تقاطع مع هذه الرغبة طموح الخوارزميين في الاستقلال عن السلاجقة وتأسيس كيان خاص بهم، مما أدّى إلى تقارب نتج عنه تحالفات بين الطرفين، حتّى أن أتسز قد تزوّج من الخطا وشجعهم على مواجهة السلاجقة

---

[1] هو عمر بن محمد بن عبد الله ابن عمورية، أبو حفص شهاب الدين القرشي، التيمي، البكري السهرودوري (539هـ- 632هـ/ 1145م- 1234م)، فقيه شافعي مفسر، واعظ من كبار الصوفية، مولده في سهرورد، ووفاته ببغداد، أوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولا، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 380/1، ابن كثير، البداية والنهاية، 138/13، الزركلي، الأعلام، 223/5.

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 219/6- 220.

[3] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 56، 57، العريني، المغول، ص 111.

[4] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 63- 64.

انتقاما لخسارته أمام سنجر على إثر الهجوم الذي قام به هذا الأخير على إقليم خوارزم سنة 533هـ/ 1138م وقتل ابن أتسز في الموقعة.[1]

إنّ رغبة الخطا في تحطيم القوة التي تعيقهم على التقدم نحو الغرب دفعتهم إلى مواجهة سنجر في موقعة قطوان[2] سنة 536هـ/1141م، وقد قتل في هذه المعركة ما يُقْرُب عن مائة ألف من عساكر المسلمين، ووقعت زوجة السلطان سنجر أسيرة في أيديهم، ولما عاد سنجر إلى عاصمته مرو وجد أتسز قد عاث فساداً كبيراً فيها، فهزمه وأعاد سلطته عليها.[3]

صار الخطا بنصرهم على السلاجقة يملكون كل بلاد ما وراء النهر، بحيث لم يعد للمسلمين في هذه الأقاليم أي نفوذ زهاء نصف قرن من الزمن، فنتج عن ذلك أن أصبح الخطا يجاورون أملاك الدولة الخوارزمية، فكان السلطان أتسز يتجنّبهم ويخشى الاحتكاك بهم، ثمّ قَبِل أن يدفع لهم جزية سنوية مقدارها ثلاثين ألف دينار من الذهب،[4] وأعطاهم الكثير من منتجات البلاد الخوارزمية حتى لا يتعرضوا له بسوء.[5]

إنّ طبيعة العلاقات التي كانت تربط الدولة الخوارزمية بالخطا حتّى عهد أتسز بن أنوشتكين كانت تحكمها المصالح المشتركة بينهما، غير أن سير هذه العلاقات سرعان ما أخذت مَنحى آخر بعد وفاة كلٍّ من أتسز وسنجر، فبموت هذا الأخير انتهى حكم السلاجقة في خراسان وفارس، وحلّ مَحله سلطان الخوارزميون، الذين شرعوا يوسعون في أملاك دولتهم على حساب القوى المجاورة لهم، ممّا أربك الخطا الذين لم يكونوا راضين عن ترك الخوارزميين يقوون أنفسهم، حتّى لا تكون النتيجة أنْ تُحوّل تلك القوة ضِدّهم، فسارعوا إلى حرْب الخوارزميين والإطاحة بهم سنة 567هـ/1171م، ورغم المقاومة التي أبداها أيل أرسلان بن أتسز إلاّ أنّه انهزم، ثم عاد الخطا إلى بلاد ماوراء النهر مُكتفين بما أحدثوه في نفوس الخوارزميين من ذعر.[6]

بعد وفاة أيل أرسلان بن أتسز بدأ الصراع حول السلطان يَشبّ في البيت الخوارزمي، إذ أنَّ علاء الدين تُكش وهو الابن الأكبر لأيل أرسلان لم يستسغ اغتصاب أخيه الأصغر سلطانشاه

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 31/11- 40.

[2] قطوان: قرية من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها، ياقوت، معجم البلدان، 71/7.

[3] ابن الأثير، الكامل، 37/12.

[4] فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص 66.

[5] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 66.

[6] ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، المكتبة الشرقية، بيروت، 1958، ص 374.

للعرش بمعونة أمه وبعض الموالين من الجنود الخوارزمية، فعمل جاهدًا على استرجاع حقّه المسلوب بشتى الوسائل، فلم يجد من طريقة إلاّ الاستعانة بالخطا على أخيه، حيث نال علاء الدين تكش ما أراد وتبوء عرش السلطنة الخوارزمية بمعاونة الخطا، بعد أن تعهد بمنحهم فروض الطاعة والولاء وجزية سنوية، ومدهم بما تزخر به البلاد الخوارزمية من خيرات كالذهب والفضة.(1)

لم يهنئ علاء الدين تكش بالسلطنة طويلاً، إذ سرعان ما ظهر أخوه سلطانشاه مستخدما الطريقة نفسها التي انتزع بها علاء الدين السلطنة، حيث عمل على التقرب من الخطا وحرضهم على أخيه، خاصة بعد المجزرة التي ارتكبها علاء الدين في حق رسل الخطا الذين قدموا إليه يطلبون منه تنفيذ ما وعد به، من خضوع تام لسيطرتهم ومال وفير يبعث به إليهم، إذ أنّ علاء الدين قد عزّ عليه أن يخضع لهم بعد أن وعدهم بذلك، فغضب الخطا وعزموا على الثأر منه، فجهزوا جيشا وساروا به سنة 568هـ/ 1172م قاصدين البلاد الخوارزمية، ولكن هذا الجيش هزم شرّ هزيمة على أيدي جنود علاء الدين.(2)

رغم تلك الحروب التي كانت بين الخوارزميين ودولة الخطا في عهد علاء الدين تكش، إلاّ أنّ هذا الأخير كان يحرص على عدم إزالة تلك الدولة من هذه المنطقة، فنراه يغير من مواقفه اتجاههم، ويعقد معهم معاهدة يدفع بمقتضاها جزية سنوية معينة، وذلك كله اتقاءً للشر المستطير الذي بدأ يلوح إلى الشرق من بلاد ما وراء النهر – شرق دولة الخطا- والمتمثل في المغول.(3)

إن السياسة التي حرص الخوارزميون على اتباعها مع دولة الخطا منذ عهد أتسز إلى عهد علاء الدين تكش لم تستمر في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، الذي كان يرى بأنّ القوة التي آلت إليها دولته في عهده، لنْ يتجسد معناها إلا إذا تخلص من قيود التبعية لدولة وثنية كالخطا، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية التي كانت تحت ظل رايتهم،(4) وخاصة بعد أن شجعه حكام المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر،(5) حيث كتب إليه سلطان سمرقند(6)

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 168/11، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 68.

(2) ابن الأثير، الكامل، 168/11-169.

(3) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 71-72.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 63- 64.

(5) فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص 66.

(6) سمرقند: مدينة مشهورة بما وراء النهر، قصبة الصغد ومصر الإقليم، تقع على جنوبي وادي السغد، وهي مرتفعة على الوادي وحول سور سمرقند خندق عظيم ولها نهر يدخل إلى المدينة على حاملات في الخندق ومعمول بالرصاص، ياقوت، معجم البلدان،

وبخارى[1][2] والذي كان تابعًا للخطا ويدفع لهم جزية سنوية يقول: " إن الله عزّ وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفّار، وتُخلّصهم مما يجري عليهم من التَّحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة والسكة". [3]

جاب محمد بن خوارزم شاه طلبه، وعبر نهر جيحون قاصداً بلاد ما وراء النهر، ثم انضمّ إليه جُند حليفه ملك سمرقند وبخارى، وكان ذلك سنة 604هـ/ 1207م، ولكنّ النّصر لمْ يَكُن حليف المسلمين فقد انهزمت جيوشهم، وأُسِر السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، غير أنَّه نجح في الفرار من الأسر بفضل حيلة تفطَّن لها أحد أمراءه الذين أسروا معه.[4]

لم ينكسر طموح علاء الدين خوارزم في القضاء على دولة الخطا جراء الهزيمة التي مُني بها، فنراه يعاود هجومه مرةً أخرى في العام الموالي أي سنة 605هـ/1208م،[5] حيث التقى الجمعان سنة 606هـ/ 1209م لتدور الدائرة هذه المرَّة على الخطا، فهزمتهم جيوش الخوارزمية، وقُتل منهم وأُسر خلقٌ لا يحصى ليتملَّك على إثرها علاء الدين بلاد ما وراء النهر مدينة مدينة وناحية ناحية.[6]

66/5، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1877، ص 278، القزويني، آثار، ص 335، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 493.

(1) بخارى: مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة طيبة بينها وبين سمرقند سبعة أيام وسبعة وثلاثون فرسخا، وهي بلاد الصغد، بهام نزه كثير البساتين، حيث قال ابن حوقل ليس بسلك البلدان بلد أهلها أحسن قيما على عمارة قراهم من أهل بخارى، القزويني، اثار، ص 509- 510، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 266، الإصطخري، المسالك والممالك، ص293، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 398، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 489.

(2) هو السلطان نصرة الدين عثمان خان ابن إبراهيم حاكم سمرقند وبخارى كان يلقب بـ " خان خانان" أي سلطان السلاطين، وكان كما ذكر ابن الأثير عريق النسب في الإسلام والملك، أنظر: ابن الأثير، الكامل، 267/12.

(3) ابن الأثير، الكامل، 12/ 259، وأنظر: محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، منشورات مؤسسة الرسالة، ط2، 1982، ص 339.

(4) ادعى علاء الدين محمد بأنه خادم لأحد الأمراء الذين وقعوا في الأسر، وكانا الاثنان في حراسة رجل من الخطا، فأقنعه الأمير وهو شهاب الدين مسعود بأنه يملك في بلدة خوارزم ذهبا وفضة، وطلب منه أن يترك خادمه أي السلطان علاء الدين محمد = بالذهاب إلى بلده لإحضار ما يملكه منها، فانطلت الحيلة على الخطائي، وسمح لعلاء الدين بالرحيل، وهكذا عاد خوارزم شاه إلى بلاده سالما. أنظر الديار بكري، تاريخ الخميس، 367/2.

(5) نفسه، 2/ 367.

(6) سليمان بن أحمد العودة، كيف دخل التتر بلاد المسلمين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 1996، ص 19.

لتتوالى الأحداث بعد ذلك على هذه المنطقة، بظهور الخطا مرة أخرى تحت راية قائد جديد يدعى كشلوخان، الذي كان بينه وبين زعيم المغول جنكيزخان عداء قديم، مما دفع بهذا الأخير إلى حربه وإخضاع أقاليم حكمه لإمبراطورية المغول التي شرع يؤسسها انطلاقا من أقاليم اسيا الشرقية.[1]

وبهذا الانتصار الذي حققه المغول على دولة الخطا صاروا يجاورون أملاك الدولة الخوارزمية، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة في علاقات الخوارزميين مع الدول المجاورة لأملاكهم، والتي سنتناولها فيما تبقى من فصول هذا البحث.

3-3 علاقة الخوارزميين بالمغول إبان القرن 7هـ/ 13م

تمكّن المغول تحت قيادة زعيمهم جنكيزخان من إزالة دولة الخطا، فتملكوا على إثر ذلك ما كان في حوزة هذه الدولة من أقاليم في بلاد ما وراء النهر، فصاروا يجاورون أملاك الدولة الخوارزمية من ناحية الشرق لنهر جيحون – سبق تبيان ذلك- ولأن المغول لم يتسن لهم بَعدُ تثبيتُ حُكمهم على العديد من القبائل في الأقاليم الصينية، فقد عملوا على تجنب المواجهة مع الدولة الخوارزمية، على الرغم مما تفيدنا به بعض المصادر من حدوث مناوشات بين الخوارزميين والمغول في أوائل احتلالهم لدولة الخطا،[2] فجنكيزخان تجنب مُجاهرة الخوارزميين بالعداء، وحرص على مسالمتهم، بل وهداه تفكيره إلى عقد معاهدة تجارية وتبادل السفراء والرسل بين الدولتين.[3]

أرسل جنكيزخان حوالي سنة 615هـ/ 1218م إلى علاء الدين خوارزم شاه رسالة مع ثلاثة من التجار الخوارزميين وهم، محمود الخوارزمي، علي خواجة البخاري، يوسف كنكا الأتراري، محملين من قبله بالكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى، كالذهب والفضة والأحجار الكريمة والمنسوجات الصوفية،[4] وقد تزامن وصول هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان الخوارزمي في مدينة بخارى مع عودته من محاولته الفاشلة في إخضاع الخلافة العباسية، فسلّم التجار رسالة جنكيزخان إلى السلطان علاء الدين والتي جاء فيها: " ليس يخفى علي عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك، وقد

---

(1) Lamp, Harold: **Genghis khan: Emperor of all men**, London, 1934, p 110

(2) اختلفت الروايات في تحديد زمن أول ما وقع من الصدام بين جيوش جنكيز خان وعساكر خوارزمشاه، فمن هذه الروايات ما يشير إلى أن المغول لم يشتبكوا في قتال العساكر الخوارزمية إلا سنة 615 هـ / 1218م، أي بعد انتصارهم على كوجلك والمعروف أن كوجلك كان وقتذاك في تركستان الشرقية، وهرب منها إلى ساريقول، بينما وقع الصدام بين المغول والخوارزمية في إقليم تورغاي في غرب سهوب القرغيز. أنظر.Barthold: op, cit, p369.

(3) فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص97.

(4) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، 81، الصياد، المرجع السابق، ص 99.

علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمكْ في الكثير من أقاليم الأرض، وأنَا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنتَ عندي مثل أعزّ أولادي، وغَيرُ خاف عليك أيضًا أنني مَلكتُ الصين وما إليها من بلاد التُرك، وقد أذعنتْ لي قبائلهم، وأنتَ أخبرُ النّاس بأنّ بلادي مثاراتُ العساكر ومعادن الفضَّة، وأنّ فيها لغنيةٌ عن طلبِ غيرها، فإن رأيتَ أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمَّت المنافع وشملت الفوائد"[1]

لقد كانت هذه الرسالة صدمةً حقيقية في وجهِ السلطان علاء الدين، الذي استشاط غضبًا حين قراءتها، إذ بالرغم من طابعها الدّاعي إلى إقامة علاقات تجارية بين المغول والخوارزميين، فقد كانت تحملَ في طياتها معانٍ التهديد والوعيد والاحتقار لشأن السلطان الخوارزمي،[2] ولنقف في هذا الصدد على عبارتين تضمنتهما الرسالة.

أولاهما، قوله:"...وأنت عندي مثل أعزّ أولادي..." فهو يقصد من وراء ذلك التبعية التي عادةً ما تكون بين الابن وأبيه، إضافة إلى قوله:"... وغير خافٍ عليك....... وقد أذعنت لي قبائلهم...." فهو بهذا يُظهر لعلاء الدين مدى القوة التي تتمتع بها الجيوش المغولية، حتَّى لا يفكر في التّعرض لهم مثلما فعل في أوائل غزو المغول لدولة الخطا.[3]

استدعى السلطان علاء الدين أحد التجار الثلاثة وهو محمود الخوارزمي، وطلب منه أن يكون له عينًا في بلاد المغول، مُمنيا إيّاه بشتَّى الوعود، بل ومنحه جوهرةً ثمينةً دليلاً على وفائه بما وعده، فقبل محمود خوفا ورهبة من السلطان علاء الدين الثائر،[4] ثم راح السلطان يستوضح التاجر عن مدى صحة ما جاء في رسالة جنكيزخان، فكان جواب محمود الخوارزمي بأن أكّد له ذلك، فقال السلطان: " أنتَ تعرف ممالكي وبسطتها، وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد؟ ما مقدار ما معه من عساكر؟ فلمّا شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ، وتبدُّل لُطفَ الكلام بالخصام، خاف عاقبة الاسترسال في ذكر أخبار المغول، وقال:" ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلاّ كفارس في خيل أو دخانٍ في جُنح ليل"[5]

---

[1] النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، القاهرة، 1953، ص 83- 84.

[2] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 82، العريني، المغول، ص 117- 118.

[3] العريني، المغول، ص 118.

[4] فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص 100، العريني، المغول، ص 118.

[5] النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص 85، 86.

هدأ السلطان علاء الدين وكظم غيظه، وأرجع مع التجار ردّه بقبول الاتفاق، فقامت على إثر ذلك التجارة وتبودلت بين الطرفين، كما وقد عمل جنكيزخان على تأمين طرقها الرابطة بين الدولتين، فأخضع القبائل التي كانت تقطع الطريق على التجار،كما وزوّد الطريق بحراس يسمون قرافجية أي "مستحفظين "[1]

إلا أنّ العلاقات المغولية الخوارزمية سرعان ما تتغير وتتخذ العداء عنوانا لها في هذه المرحلة، وذلك على إثر حادثة مقتل القافلة التي أرسل بها جنكيزخان رفقة ثلاثة من التجار من سكان بخارى لتبادل التجارة في الأقاليم الخوارزمية على يد حاكم ولاية أترار التابعة لسلطة الخوارزميين، والتي كان يحكمها رجل يدعى " ينال خان "، فقد حدث أن سار التجار الثلاثة إلى بلاد المغول لبيع بضاعتهم، فقادهم المستحفظون إلى بلاط الخان أين وقف على ما يمتلكونه من بضاعة فاخرة، فأمر حين قرروا العودة إلى البلاد الخوارزمية إرسال قافلة معهم من الأمراء والقادة المغول لتبادل التجارة هناك، حيث بلغ عدد أفراد تلك القافلة أربعمائة فرد، كلهم مسلمون.[2]

سارت قافلة جنكيزخان محمّلة بأصناف كثيرة وأمتعة فاخرة من الذهب والفضة والحرير والأقمشة القيمة والمسك والأحجار الكريمة، وقد كلف جنكيزخان أحد التجار الخوارزميين بمهمة إيصال رسالةٍ إلى السلطان علاء الدين جاء فيها:" إنَّ التجار وصلوا إلينا، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيَّرنا معهم جماعة من غِلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين".[3]

وصلت القافلة إلى مدينة أترار على الساحل الغربي لنهر جيحون، وهي أوّل بلدةٍ تقع في مناطق نفوذ السلطان، وكان يحكم المدينة في ذلك الوقت ينال خان على ما ذكرنا، فهاله عدد الرجال بها وحشيهم وأدرك أنّ هؤلاء لم يقصدوا بلاد خوارزم للتجارة، وإنّما كان غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين، فأرسل إلى السلطان علاء الدين يُخْبِره بأمر هؤلاء التجار حتّى يرى فيهم رأيه، فكان موقف السلطان بأن أمر بمصادرة أملاكهم وقتل جميع أفردها، وحين وصلت أخبار تلك المذبحة إلى جنكيزخان استشاط غضبًا لذلك وعزم على الانتقام من السلطان علاء الدين و ينال

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 400.

(2) الصياد، المرجع السابق، ص 102، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 83- 84.

(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 400- 401.

خان حاكم ولاية أترار،[1] فكانت هذه الحادثة شرارة ذلك الغزو الذي سنفصل في أحداثه خلال فصولنا اللاحقة إنشاء الله.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) الصياد، المغول، ص 103- 104، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 86، عصام عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 196- 197.

الفصـل الثاني:

العدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة وبروز جبهات المقاومة الإسلامية

(490هـ- 589هـ/ 1096م- 1193م)

1 – دوافع الحملات الإفرنجية وتأسيس الإمارات الصليبية في بلا د الشام والجزيرة

1-1 دوافع الحملات الإفرنجية على بلاد الشام والجزيرة

1-2 الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة

2- نماذج من جبهات المقاومة الإسلامية للعدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة

2-1 جبهة الجزيرة والشام (نموذج الموصل- حلب)، آل زنكي وتأسيس أولى نواة للمقاومة الإسلامية

2-2 جبهة مصر فلسطين، الأيوبيين على خطى الزنكيين في مقاومة الصليبيين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – دوافع الحملات الإفرنجية وتأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة

1–1 دوافع الحملات الإفرنجية على بلاد الشام والجزيرة

1–1–1 الدافع الاقتصادي والاجتماعي

لا شك في أنَّ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي مرَّ بها الغرب الأوروبي في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، قد كان لها دوراً كبيراً في زيادة حماسة جموع هؤلاء الإفرنج في حملاتهم على ديار الإسلام، بغية تحقيق مطالب البابوية في استرداد الأماكن المقدسة في بلاد الشام، والَّتي كانت تحت سيطرة المسلمين، حيث كانت تلك الأوضاع إحدى أهم النقاط التي اعتمد عليها البابا أوربان الثاني[1] أثناء خطابه في مؤتمر كليرمونت 28 نوفمبر 1095م، أين عَمَد على وصف ما تحويه بلاد الشام من خيرات وكنوز، ومستغلاً في نفس الوقت ما كان يعانيه الغرب الأوروبي من سوء في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية.[2] لتوجيه تلك الحملات.

ففي الفترة التي كان فيها البابا يحضر لحرب المسلمين كان سكان الغرب الأوروبي يئنون تحت وطأة الفقر والمجاعات، فقد خلَت غالبية أراضيهم من الزراعة، وتعرضت القرى للنهب والسلب على أيدي قطاع الطرق، كما وحلَّ بهم الكوارث الطبيعية، وانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة والفيضانات، كتلك التي عرفتها فرنسا في سنة 487هـ/1094م والَّتي أهلكت الكثير من المحاصيل والزروع،[3] فعَدُمَ وجود الغلال وارتفعت أثمانها، مما أدَّى إلى حدوث أزمة خبز ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش.[4]

(1) تولى البابا أوربان الثاني أمر البابوية بعد جريجوري السابع في مارس 1088م (480هـ)، وهو رجل فرنسي كان يحمل قبل أن يلي كرسي البابوية اسم أدودي لاجري، وقد ساعده إمبراطور ألمانيا هنري الرابع ومكّنه من دخول روما عام 1093م (485هـ)، كما وعاونه على ذلك أبناء وطنه من رجالا الدين الفرنسيين، حسين مؤنس، **نورالدين محمود**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1959، ص 63.

(2) عزيز سوريال عطية، **العلاقات بين الشرق والغرب – تجارية، ثقافية، صليبية**، ترجمة، فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط1، بيروت، 1972، ص8.

(3) poissonnade (p), life and work in medieval Europe, London, 1937, p 146.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب**، دار النهضة العربية، بيروت، 1967، ص24، أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص22، يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، تر، عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 2001، ص17.

كما وقد زاد من حدَّة سوء تلك الأوضاع في غرب أوروبا، كثرة الحروب بين الأمراء الإقطاعيين، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة ولا الملوك في وقفها، فكان أن أعلن البابا " هدنة الرب" Pax dei والتي تُحَرِّم القتال لمدة أربعة أيام في الأسبوع بدآ من مساء يوم الأربعاء وإلى غاية صباح الاثنين، وقد أضرت تلك الحروب بالتجارة وطرقها والمحاصيل الزراعية أشد الضرر،[1] كما دفعت بالأمراء الإقطاعيين إلى المشاركة في الحملات الصليبية بغية تأسيس إمارات لهم في الشرق، والحصول على خيرات تلك البلاد وتكوين مراكز تجارية لخدمة مصالحهم الاقتصادية البحتة.[2] وتذكر المصادر من بين تلك الأسر الإقطاعية، أسرة الأبلين، وآل الكورتيناي، وأفراد أسرة اللوزينيان وأسرة البريان.[3]

ومما يزيدنا تأكيدًا على أن للحملات الصليبية على ديار الإسلام بواعث اقتصادية، الدور الكبير الذي لعبته المدن التجارية الإيطالية كالبندقية وجنوة وبيزا وأمالفي في تحريك تلك الحملات ودعمها بهدف تحقيق مصالحها الاقتصادية في الشرق،[4] ذلك أن المدن الإيطالية قد تضررت من سياسة الأباطرة البيزنطيين في تعاملهم مع السفن التجارية وتضرر مصالحهم في القسطنطينية ومنطقة الساحل الشامي بعد استيلاء السلاجقة عليه، ولذلك أبدى تجار المدن الإيطالية استعدادهم لتقديم المساعدة للصليبيين، مما يوضح لنا الرغبة المادية (الاقتصادية) للمدن الإيطالية وتجردها من كل ما له علاقة بالدعوة الدينية،[5] كما ويزيد الاتضاح أكثر مما نشأ من منازعات ومخاصمات بين تجار المدن الإيطالية حول مناطق التبادل التجاري في بلاد الشام والشرق الإسلامي.[6] بعد تأسيس الممالك الصليبية.

---

(1) رضا السيد حسن، **الصليبيون وآثارهم في جبل عامل**، دار مصباح الفكر، بيروت، 1987، ص 41.

(2) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 127، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 231/4.

(3) كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ترجمة، أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، ط1، القاهرة،133،1995.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، **أضواء جديدة على الحروب الصليبية**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار القلم، القاهرة، 1964، ص11-12. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 231/4.

(5) كلود كاهن، المرجع السابق، ص95، 142-147.رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 41.

(6) ميشال بالار، **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني- من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر-** ترجمة: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 2003، ص 30، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 135.

أمَّا عن الوضع الاجتماعي لغرب أوروبا فقد كان مقسَّمًا إلى ثلاث طبقات، يمثل فيها رجال الدين الطبقة الأولى، المسيطرة على كل شيء، إضافة إلى طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وقد كانت هاتين الطبقتين تشكلان أقلية المجتمع الإفرنجي في حين كانت غالبية الشعب يشكلون طبقة الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض، وهي الطبقة المغلوبة على أمرها، إذ عاشوا في وضع يتسم بالذُّل والهوان،[1] ويتضح ذلك من خلال الأكواخ الحقيرة التي كانوا يسكنوها، وملابسهم المصنوعة من جلود الماشية وصوف الأغنام والكتان الخشن،[2] فعاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات اتجاه أسيادهم الإقطاعيين، لعلَّ أهمها ضريبة الرأس Captu tax كدليل على التبعية، فكان على القنِّ فلاحة أرض سيده وحصد محاصيله، ووضعها في مخازنه دون الحصول على أجر لذلك، كما كانوا محتكرين من رجال الإقطاع، فلا يطحنون إلى في مطاحن السيد الإقطاعي، ولا يخبزون إلا في فرنه، ولا يعصرون إلا في معصرته، إضافة إلى كل ذلك فقد كان الفلاحون الأقنان مجبرين على دفع عدة أنواع من الضرائب، جعلتهم يعيشون حياة شاقة مليئة بالذل والبؤس.[3]

كما أرجع بعض المؤرخين سبب قيام الحملات الإفرنجية على بلاد الشام إلى النمو الديمغرافي الكبير الذي شهده الغرب الأوروبي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي/ الخامس والسادس الهجري، وما صاحبه من نقص في التمويل بالغداء، وكذا عدم قدرة الأمراء على تحصيل إقطاعيات تضمن لهم مكانا في المجتمع الإفرنجي، وعليه فقد كانت تلك الحملات بمثابة منفذ للأمراء والفقراء لأجل تحسين أوضاعهم الاجتماعية.[4]

وأمام هذا النتيجة التي آلت إليها أوضاع الغالبية من سكان الغرب الأوروبي، فقد وجدوا في دعوة البابوية للقيام بالحملات الصليبية فرصة ثمينة لهم في التخلص من ذلك الوضع المتردي، والبحث عن حياة أفضل زاد من تنميقها دعوة البابا أوربان الثاني، وهو الأمر الذي يفسر لنا تسمية الحملة الصليبية الأولى بحملة الفلاحين والفقراء (الحملة الشعبية) نظرا للبواعث التي دفعت هؤلاء للقيام بتلك الحروب.

---

(1) Hoyt (s) & chodorow (s), Europe in the Middle age, USA, 1976, P 320.
و أنظر: سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، 2/ 63

(2) poissonade, op.cit , pp 145, 146.

(3) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 43. عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص 11.

(4) يوشع براور، المرجع السابق، 15، ميشال بالار، الحملات، ص 11، حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 59، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص8.

2-1-1 الدافع السياسي

كان لظهور النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى، كلُّ الأثرِ في تحول نظامها الاجتماعي، وبروز طبقات تميزها الثروة والسيطرة، فقد كان قيامه على أساس الأرض، إذْ وبقدر ما كان الإقطاع كبيراً بقدر ما تكون لمالكه مكانة ة في المجتمع، حتى أنه قيل" لا سيد دون أرض".[1]

وبما أن قواعد النظام الإقطاعي في تلك الفترة، تحتم عدم تجزئة الإقطاع، بين أبناء الأمير المتوفى، بل يكون كلُّه من نصيب الابن الأكبر،[2] فقد خلق هذا الوضع ازدياد عدد الفرسان والأمراء دون أرض، مما جعل وجودهم في ذلك المجتمع بالأمر غير المجدي، طالما أنهم لا يتمتعون بالأرض التي تمنحهم صفة الأمراء أو النبلاء.[3]

كانت دعوة البابوية للقيام بتلك الحملات على ديار الإسلام، بابًا أمام هؤلاء الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوروبا، فلبُّوا نداء البابوية لعلَّهم ينجحون في تأسيس إقطاعيات لهم في الشرق تعوضهم عما فقدوه في الغرب، ومما يوضح لنا نية هؤلاء في إقدامهم على المشاركة في الحملات الصليبية أنَّهم وفي الطريق إلى بلاد الشام كانت تحدث بينهم خصومات وخلافات حول اقتسام الإقطاعيات حتَّى وقبل الاستيلاء عليها، كما وأن منهم من تخلَّى عن المشاركة في الحملة بعد أن ضمن له إقطاعًا وهو في الطريق.[4]

إضافةً إلى هذا فقد كان الفرسان والمحاربون في الغرب الأوروبي يَحِنُّون إلى ممارسة هوايتهم المفضلة والمتمثلة في الفروسية، والَّتي هدأ نشاطها مع سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور في أوروبا خلال تلك الفترة، فكانت بذلك الحملات الصليبية فرصة لهم لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية.[5]

غير أن من المؤرخين من يرون في طبيعة العلاقات التي سادت بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية في الجزء الشرقي من أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر

---

(1) وقد جاء في مقدمة كتاب الفتح القسي للأصفهاني تأكيد على دور الدافع السياسي في قيام الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية، الأصفهاني، مقدمة الطبع، وأنظر، سعيد عاشور، أضواء جديدة، ص13.

(2) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 45، ميشال بالار، الحملات، ص10.

(3) يوشع براور، المرجع السابق، ص15، 16.سعيد عاشور، أضواء جديدة، ص14.

(4) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص32، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص127.

(5) سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص33، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 231/4.

الميلادي قد كان له نصيب في قيام تلك الحملات التي شنها الإفرنج على بلاد الشام، ذلك أن سير العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين قد عرفت مرحلة خطيرة في تلك الفترة،(1) نتيجة عزم السلاطين السلاجقة الذين صاروا يمثلون السلطة الزمنية في الدولة الإسلامية، على فرض الحماية على الخلافة العباسية وكذا تنصيب أنفسهم حماة للمسلمين ضدَّ أخطار الروم البيزنطيين، فوقعت بذلك معارك طاحنة بين القوتين في القرن الحادي عشر الميلادي، كان أهمها موقعة مانزكرت 463هـ/ 1071م،(2) والّتي تعدُّ أفدح كارثة حلّت بالإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، حيث أن الروم فقدوا جيشهم بأكمله ووقع في أسر السلاجقة الكثير منهم، وكان من جملة الأسرى الإمبراطور البيزنطي "رومانوس الرابع" نفسه، ولم يفرج عنه السلاجقة إلا بشروط قاسية.(3)

وعلى إثر هذه الهزيمة الساحقة التي تعرض لها الجيش البيزنطي على أيدي السلاجقة فقد أرسل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (1071م- 1078م) إلى الاستنجاد بالغرب الأوروبي، حيث وجد قبولا واسعا لدى البابوية، خاصة أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل قد قدم لها وعدا بالعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، ونتيجة لذلك فقد أرسل البابا إلى ملوك وحكام أوروبا سنة 1074م يوضح لهم ما تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية من هجمات الأتراك السلاجقة، ويحذرهم من خطر توغلهم في أراضيها.(4)

وعلى كل حال فإن مثل هذا الرأي وكما يوضحه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، لا يمكن أن يعد سببا حقيقيا للحركة الصليبية، ذلك أن الحروب بين المسلمين والبيزنطيين لم تنقطع منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وأن بعضا من تلك الحروب قد أوغلت بالمسلمين في أراضي الإمبراطورية البيزنطية، بل ووصلت حتى أسوار القسطنطينية، ومع ذلك لم تظهر محاولة من الغرب الأوروبي لمنع المسلمين من تهديد أوروبا المسيحية.(5)

---

(1) محمود محمد الحويري، **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1992، ص28.

(2) الذهبي، العبر، 251/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 86/5 ميشال بلار، الحملات، ص26، أرنست باركر، المرجع السابق، ص23.

(3) سعيد عاشور، أضواء جديدة، ص 19-20.

(4) محمود محمد الحويري، بناء الجبهة، ص 28.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص20.

3-1-1 الدافع الحضاري:

يذهب العديد من مؤرخي الحروب الصليبية إلى القول: بأنَّ الحروب التي شنها الإفرنج على مشرق العالم الإسلامي، لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات ذلك الصراع الطويل الذي عرفه العالم القديم منذ الأزمنة الغابرة بين الشرق والغرب، أي منذ حروب طروادة وفارس وصولا إلى حروب اليونان والروم مع الفرس، وكذا الحروب التي دارت بين المسلمين والأوروبيين في فترة الخلفاء الراشدين " الفتوحات الإسلامية"، كما وأنَّ أصحاب هذا الرأي يواصلون ربطها حتى في العصر الحديث مع حركة التوسع الاستعماري التي قادتها أوروبا في تلك الفترة ضدَّ شرق العالم القديم.(1)

فهؤلاء المؤرخين يرون في التنافس الحضاري، واختلاف التفكير وطبيعة المعتقدات التي كانت تحكم شعوب العالم القديم، قد جعلت من الاقتتال والصراع العسكري خيارا لفرض عقلية كل جهة على الأخرى، ومنه فالحروب الصليبية التي قامت بها أوروبا الغربية في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت تكملة لذلك الصراع الحضاري بين الشرق والغرب.(2)

وإذا نظرنا إلى هذا الرأي فإننا نجده مبالِغًا في إرجاع الحروب الصليبية إلى ذلك الصراع القديم، ذلك أن الظروف التي صاحبت تلك الحروب في القديم وتلك التي عرفها القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لم تكُن متوافقة بالكامل، كما وأنَّ اعتبارهم للفتوحات الإسلامية جزءاً من ذلك الصراع بين الشرق والغرب، تُنافيه الحقائق التاريخية، ذلك لأنَّ فتوحات المسلمين كانت لواجب ديني وليس استمرارا لصراع قديم، كما وأن تلك الفتوحات شملت الغرب والشرق معا.

وعلى كل حال فإن هذه المحاولات من قبل العديد من مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين، في التعتيم على البواعث الحقيقية من وراء تلك الحملات الصليبية على بلاد الإسلام، وإعطائها نوعا من الشرعية، أو التنصل من مسؤولياتهم اتجاه ما قامت به أوروبا العصور الوسطى، وربطها بدوافع لا يقبلها العقل ولا ترجح كفتها القرائن التاريخية، قد كشف زيفها وبطلانها مع مرور سنوات قليلة فقط

---

(1) يتساءل القارئ لمصطلحي الشرق والغرب، وعلى أي أساس حددت جهة الشرق والغرب، فعلى سبيل المثال منطقة شمال إفريقيا تقع على خط طول واحد مع الغرب الأوروبي، غير أن الأولى تنتمي إلى الشرق، وأما الثانية فتنتمي إلى الغرب، فهذين المصطلحين سياسين (تاريخيين) إنما يوضحان الفارق بين الحضارة الغربية التي كما يرون قد شرقت عليها شمس الحضارة قديما وهي في طريقها إلى الغروب، وأما الشرق فيقصدون به أن شعوبه لا تزال شمس الحضارة تطل عليهم، وعليه فتسمية الشرق والغرب لم تكن على أساس الموقع الجغرافي بقدر ما كانت على أساس الصراع الحضاري الذي كان سائدا في القديم.

(2) حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 81-82.

عن العدوان، وباعتراف من قبل بعض المؤرخين الغربيين الذين اتسموا بنوع من الموضوعية في تأريخهم لتلك الفترة من تاريخ البشرية.

4-1-1 الدافع الديني:

لقد كان لشعار الحرب من أجل الصليب الذي رفعته البابوية في سبيل حشد الجموع الإفرنجية من الغرب الأوروبي للقيام بتلك الحملات على بلاد الشام، الأثر البالغ في اعتبار الدافع الديني هو المحرِّك الأساسي وإنْ لم نقل الوحيد لها، ولو ظاهريًا فقط، حتَّى إنَّ العديد من مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين (مؤرخو المدرسة القديمة) عرَّفوا تلك الحروب الَّتي قام بها سكان غرب أوروبا على المشرق الإسلامي بأنَّها حروب دينية، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر Riant الذي عرفها بقوله: "هي حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام."،[1] م بذلك يعتبرون بأن تلك الحروب قام بها أناس غلب عليهم شعور التقوى والورع والإخلاص لدينهم وكنيستهم، فرغبوا في استخلاص الأماكن المقدسة من المسلمين في بلاد الشام، فمن أجل هذا السبب فقط هجروا الأوطان والأهل، حاملين للصليب وقاصدين بلاد الشام لتحقيق تلك الغاية.[2]

اعتمدت البابوية في شحنها للجموع الإفرنجية خلال تلك الحروب على الإدعاءات التي أطلقها الحجاج النصرانيون إلى الأماكن المقدسة في بلاد الشام، بتعرضهم للاضطهاد وسوء المعاملة من قبل المسلمين هناك، بل وادعوا انتهاك المسلمين لحرمات الأماكن النصرانية المقدسة في بلاد الشام، وذلك كله لوضع هدف مشترك يمكن من خلاله توحيد جهود كل فئات المجتمع الإفرنجي للقيام بتلك الحملات.[3]

غير أن الحقائق التاريخية وتعاليم الدين الإسلامي السمحاء تنفي هذه الإدعاءات التي غلتها البابوية لتحميل المجتمع الأوروبي مسؤولية الدفاع عن الأماكن المقدسة في بلاد الشام، فالقرآن الكريم حثَّ المسلمين على ضرورة رعاية أهل الذمة واحترام حقوقهم ومعابدهم وعوائدهم،

---

[1] رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 45.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص 9.

[3] أرنست باركر، المصدر السابق، ص 15-16، سهيل زكار، **الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995م، 243/3، محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1982، ص 32، مؤنس، نورالدين محمود، ص 64.

فيقول الله تعالى في كتابه العزيز:" لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ "،[1] والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" من قتل ذميا فأنا خصمه يوم القيامة"،كما أن حوادث التاريخ الإسلامي تدلُّ على حسن معاملة الخلفاء المسلمين وشعوبهم لأهل الذمة من نصارى ويهود وغيرهم، وفي حادثة عمر بن الخطاب أبرز دليل على ذلك، فلما توجه عمر سنة 15هـ/ 636 م إلى بيت المقدس لعقد صلحها وأدركته الصلاة بكنيسة القيامة، أبى أن يصلي بها مخافة أن يَدَّعي المسلمون الكنيسة من بعده.[2]

لكن هذا لا يمنعنا من القول أن في تلك الفترة التي شهدت استيلاء السلاجقة على بلاد الشام من الفاطميين،(النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) وحدوث صراعات وحروب بين القوى الإسلامية الحاكمة في هذه المنطقة، قد كان له تأثير بالغ في سوء الأحوال واضطرابها، وتعرض العديد من المقيمين فيها للمضايقات والاعتداءات سواء كانوا مسلمين، نصارى أم يهود، ولم يستثن من ذلك طبعا الحجاج النصارى القادمين من أوروبا، كما ولا ننكر الحقائق التاريخية التي تشير إلى أن بعض الخلفاء قد مارسوا بعض الضغوط على أهل الذمة كعهد الخليفة العباسي المتوكل بالله، الذي ميز أهل الذمة بزي مميز، كما ونال من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أن هذا الفترات تعد شاذة في تاريخ العلاقات الإسلامية– المسيحية، وكانت تنتهي بانتهاء حكم هؤلاء الخلفاء،[3] ومن الأدلَّة على حسن معاشرة المسلمين للنَّصارى المقيمين في بلاد الشام والحُجَّاج الوافدين من أوروبا، ما ينفي ادعاءات البابوية، وطبعًا ليس هذا مجالا لعرضها.

وعليه فإن البابوية المتبنية لفكرة القيام بحملات أوروبية ضد العالم الإسلامي لم تجد ما توحد به الفقراء من عامة الشعب مع الفرسان المحاربين والنبلاء وكذا الأمراء والملوك في سبيل تحقيق غايتهم في الاستيلاء على ديار الإسلام، إلا راية الدين، وتحميلِ الكل واجب العمل على تخليص الأماكن المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين، فكان لها ذلك.

إن النظرة السطحية لبواعث الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، انطلاقا من اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التي كيَّفت بعض أحداثها، ستجعلنا نرى حقيقة أنَّها تحملُ صفة دينية، وبأن القائمين بها كانوا مُشبعين بمشاعر الورع والمحبَّة للدين المسيحي، ولتلك الأماكن المقدسة في

---

[1] سورة البقرة، الآية 256.

[2] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 32.

[3] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 32-33.

بلاد الشام، غير أن نظرةً مدققة لما كان بعد الشروع في تلك الحملات بوقت قصير، سيجعلنا نفهم حقيقة بواعث تلك الحروب، فالسلوكيات التي بدتْ لدى الصليبيين في تعاملاتهم فيما بين بعضهم البعض، ومع السكان الأصليين من المسلمين ومسيحي الشرق، كانت لتوضح بأنَّه لم يكن لهؤلاء الصليبيين من المسيحية إلى الاسم، وظلُّوا أبعد ما يكونون عن روح المسيحية.

فأي روح دينية تلك التي دفعتهم إلى ذبح سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس في أيديهم سنة 492هـ/ 1099م، وأي وازع ديني جعلهم يخربون وينهبون مدينة القسطنطينية المسيحية وليست الإسلامية، عندما اقتحموها سنة 601هـ/ 1204م، كما ولم يتورعوا في الاعتداء على أهلها المشاركون لهم في الدين.

2-1 الحملة الصليبية الأولى، تأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة وردود الفعل الإسلامية الأولية عليها

بدأت الدعوة للقيام بالحروب الصليبية في الجنوب الشرقي لفرنسا بتاريخ 28 نوفمبر 1095م، حين عقد البابا أوربان الثانيUrban II مجمعا دينيا بمدينة كليرمونت في مقاطعة أوفيرن، والذي حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين، بالإضافة إلى النبلاء والفرسان ومندوبين عن الإمبراطور البيزنطي،[1] حيث دعا البابا في خطابه إلى مساعدة البيزنطيين في الشرق، ونوَّه إلى ما يحيط بالمسيحية ومقدساتها من خطر نتيجة التوسع المستمر للأتراك السلاجقة،[2] مستغلا في ذلك ما نقله الرّاهب الفرنسي بطرس الناسك Pierre l'Ermite الذي قصد بيت المقدس سنة 486هـ/ 1093م للحج والزيارة، فاغتاظ لرؤية السيادة الإسلامية على الأماكن النصرانية المقدسة، فعزم على دعوة المسيحيين لتخليصها من أيدي المسلمين، مُقدِّما صورةً غير صحيحة لأوضاع الحُجَّاج النصارى إلى بيت المقدس وادعاءه تعرضهم للمضايقات من قبل المسلمين.[3]

---

(1) فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، تر، زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1990، ص 31، بطرس توديبود، **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص 61.يوشع براور، المرجع السابق، ص20.

(2) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 35- 36، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 127.

(3) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 45-46.

ولكي يضمن البابا مشاركة أكبر في تلك الحملات، فقد راح يُغري العامة والأمراء على السواء بمباهج الشرق وخيراته، وتشويقهم بامتلاك الأراضي وتكوين الإمارات، كما وأعلن إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف، وتعهَّد بحماية الكنيسة لعائلات وأموال المشاركين في تلك الحملات.(1)

إضافة إلى كل هذا فقد أرسل البابا من خلال خطابه هذا تحذيرًا ضمنيًا من مغبة عدم المشاركة في هذه الحرب بقوله: "لا تدعوا شيئا من ممتلكاتكم أو شئونكم الخاصة تعوقكم عن التوجه إلى بيت المقدس، لأنَّ هذه الأرض الَّتي تعيشون عليها إنَّما يُحدق بها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، وقد ضاقت بأعدادكم، إنها لا تفيض بالثروة الوفيرة، ولا تكاد تمدُّ فلاحيها بالغذاء، ومن أجل هذا تحاربون بعضكم بعضا، فكُفُّوا أيديكم عن المنازعات، وأوقفوا الحروب، وخُذوا الطريق إلى القبر المقدس، وأنقذوا الأراضي المقدسة من ذلك العنصر الشرير (المسلمين)، واحكموها بأنفسكم، لأن تلك الأراضي كما قالت التوراة تفيض باللبن والعسل".(2)

بهذا الخطاب فقد آثار البابا حماس الحاضرين في هذا المجمَّع، حتَّى أنَّهم هتفوا بعبارة " هكذا أراد الله"، وأعقب ذلك مسارعة الألوف إلى حمل الصليب واتخاذه شارة لهم، وحُدد خطة الحملة وموعد مسيرها، وقرر بأن تكون القسطنطينية مكانًا يلتقي فيه الصليبيون.(3)

ولا ننسى في هذا الصدد الدور البارز الذي لعبه بطرس الناسك في الدعوة والتجنيد للحملة الصليبية قبل المشاركة فيها، من خلال الأسلوب الذي اتبعه في سبيل إقناع الجموع الإفرنجية من العامة خصوصا، فقد كان قصير القامة، دأب السير حافي القدمين في ثياب مهلهلة رثة على جسم عار، ولم يكن يأكل الخبز واللحم، بل كان يعيش على السمك وحده، وصار ينتقل من مكان إلى آخر على حماره الأعرج، داعيا إلى الاشتراك في الحروب الصليبية، واستطاع بفضل هيئته الغريبة وحماسه وفصاحته في أن يجتذب إليه ألوف الفقراء، وقد أعانه على ذلك سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية.(4)

(1) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص46.

(2) Duncalf (Frederic): The first crusade: Clermont to Constantinople" The councils of Piacenza and Clermont", in Setton (ed), A Hist of the Crusades, vol I, p244.، فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 37.

(3) ابن خلدون، العبر، 40/5، محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 35.

(4) Runciman(s): **A Hist Of the crusades**, 3 vol, combridage, 1954, I, p113. ، باركر، الحروب الصليبية، ص 25. محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 45،

وعلى أية حال فإن بداية سير الحملات الصليبية (الحملة الصليبية الأولى) لم تكن موحدة ولا على نفس الصفة من التنظيم بين جيوشها، حيث عرفت حملتين متباينتين، اصطلح على الأولى بحملة العامة أما الثانية فأطلق عليها حملة الأمراء، فقد كانت الأولى الأسبق في انطلاقها، تحت زعامة الراهب بطرس الناسك الذي استطاع إقناع الألوف من عامة غرب أوروبا بمظهره وقوة حجته، فكثر جمعه حتى زاد أنصاره عن الخمسة عشر ألفًا،[1] وهاجروا رجالا ونساء منازلهم وحقولهم، وازداد عددهم بعد انضمام العديد من الألمان إليهم، فتكوَّن من هؤلاء الفقراء خمس جموع قبل حلول الموعد الذي حدَّده البابا لاجتماع الجيوش الصليبية بالقسطنطينية في جمادى الأولى 489هـ/ مايو 1096م،[2]

كانت هذه الجموع على غاية من الفوضى والاضطراب، لا تخضع لقيادة منظمة،[3] أدَّت ـم إلى ارتكاب أعمال سلب ونهب في الأراضي الأوروبية التي كانوا يمرُّ ن بها في طريقهم إلى القسطنطينية، وهو ما دفع بأهالي تلك المناطق وخاصة المجريين إلى التصدِّي لتلك الجموع وتمزيقها،[4] ففقدت على إثرها ثلاثة جموع من أصل الخمسة التي سارت من الغرب الأوروبي، وأما الجمعان المتبقيان فكان أحدهما بزعامة بطرس الناسك والآخر بزعامة والتر المفلس اللذان وصلا بأمان إلى القسطنطينية، بعد أن فقدا الكثير من أنصارهم بسبب تعرض البلغاريين لهم وتفشي فيهم الأمراض ونقص الغذاء.[5]

لقد هال الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين Alexius Comninus ما عليه تلك وع من الفوضى والاضطراب، وعلى الرغم مما ارتكبته من أعمال سلب ونهب في الأراضي الأوروبية التابعة له، فقد أحسن معاملتها، وعبرت هذه الجموع مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى في شعبان 489هـ/ أغسطس 1096م، وما إن علم السلطان السلجوقي قلج أرسلان بوصولهم حتَّى جهز لهم جيشا واشتبك معهم قرب مدينة نيقية عاصمته فأبادهم عن آخرهم.[6]

---

(1) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 129.

(2) نفسه، ص129.

(3) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، 47.

(4) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 24، 25. بطرس توديبود، تاريخ، ص 64.

(5) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 26.

(6) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 47– 48، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 130.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي ذلك الوقت الذي كانت فيه جموع الفقراء في مواجهة السلاجقة في آسيا الصغرى كانت حركة التجهيز الصليبي على قدم وساق في فرنسا وإيطاليا من جانب الإقطاعيين والأمراء والأشراف، غير أنها لم تكن تحت قيادة واحدة، فتشكلت منها أربعة جيوش يقود كل واحد منها أمير من أمراء أوروبا المعروفين بالشجاعة والفطنة، حيث تولى جودفري دي بويون Godefroi de Bouillon وأخوه بلدوين دي بولوني Boudouin de Bouillon قيادة جيش اللورين، أخذوا طريقهم عبر البحر فالقسطنطينية، حيث بلغوها في محرم 490هـ/ديسمبر 1096م، أما الجيش الثاني فانطلق من جنوب فرنسا – تولوز–[1] في ذو القعدة 490هـ/ أكتوبر 1096[2] بقيادة أميرها ريموند دي صنجيل Raymond de Saint Gilles على رأس أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددا متخذا من شمال إيطاليا إلى مقدونيا طريقا للوصول إلى القسطنطينية، حيث بلغها في جمادى الأولى 490هـ/ أفريل 1097م،[3] أما ثالث جيوش حملة الأمراء فقد انطلقت من شمال فرنسا تحت قيادة روبارت كورت هوز Robert courte heuse، وروبارت الثاني كونت فلاندر Robret II count Flandre، وسلكت طريق شمالي إيطاليا ثمَّ سايرت ساحلها الشرقي وأبحرت من برنديسي Brindisi إلى ألبانيا ثمَّ مقدونيا إلى القسطنطينية، في حين تشكّل الجيش الرابع من النورمان بقيادة بوهيموند Bohémond أمير تارنتو taranto وابن أخيه تانكرد Tancréde، اللذان اتخذا طريق البحر في جنوب إيطاليا إلى دورازو، ومنها إلى القسطنطينية فبلغاها في جمادى الأولى 490هـ/أفريل م1097.[4]

وعلى أية حال فقد وصلت جيوش تلك الحملة (حملة الأمراء) تباعا إلى القسطنطينية بين ذو الحجة 489هـ/ نوفمبر 1096م و جمادى الآخرة 490هـ/مايو1097م، ونظرا لكثرتها التي قدَّرها المؤرخون بأكثر من نصف مليون مقاتل، من بينهم 150 ألف فارس من شجعان أوروبا وأشدائهم، فقد أثار ذلك مخاوف الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على أملاكه،[5] مما جعله

---

(1) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 48.

(2) Duncalf (Frederic): op. cit, p272، ريموندا جيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 69- 71.

(3) Duncalf (Frederic): op. cit, p272.

(4) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 130.

(5) Runciman: A Hist, I ,p 163.، بطرس توديبود، تاريخ، ص 75، 76، الحريري، الإعلام، ص 7، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص135.

يواجه أمرين، إمَّا أن يعتبر الأمراء حلفاء له وبذلك يشترك معهم بجيشه ويحارب في الشرق معهم ويقاسمهم مكاسب الحرب وغنائمها، وإما يعتبرهم أتباعًا له يقسمون له بيمين الولاء والطاعة، ويحاربون بأمرٍ منه، وأن يتعهَّدوا له بتسليمه كل ما يستردُّونه من أراضي الإمبراطورية وأملاكها المفقودة في آسيا الصغرى، وبالمقابل يتعهَّد الإمبراطور بإمدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقل جيوش الحملة إلى الشاطئ الآسيوي،[1] فرجح الأمر الثاني.

وفي جمادى الأولى 490هـ/ أوائل مايو1097م، عبر الصليبيون البوسفور إلى آسيا الصغرى، فوصلوا في اليوم السادس من هذا الشهر إلى نيقية Nicea عاصمة سلاجقة الروم[2] والتي كان يحكمها وقتذاك قلج أرسلان (485هـ- 500هـ/ 1092م- 1107م) حيث شددوا عليها الحصار إلى أن سلَّمتها حاميتها بعد انسحاب حاكمها إلى الجبال للإمبراطور البيزنطي مقابل عدم التعرض لسكانها الخارجين منها، وكان ذلك في رجب من سنة 491هـ/ يونيو 1097م.[3]

وبهذه الطريقة واصل الصليبيون سيرهم في أراضي الدولة الإسلامية يحاصرون ويستولون على نها ومدنها، مستغلين في ذلك ما كان عليه وضع المسلمين من ضعف وتشتت، واختلاف كلمتهم في رد العدوان، فكانت بذلك الحملة الصليبية الأولى من أنجح الحملات التي قادها الصليبيون بغية استرداد الأماكن المقدسة في لاد الشام، ذلك لأنها لم تُمكّن للصليبيين من هزيمة المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم فحسب، ولكنها نجحت في تأسيس كيانات صليبية على أراضي المسل ، وصارت تهددهم بشكل مباشر بعدما كانت الكفَّة راجحة لصالحهم قبل وقت ليس ببعيد.[4]

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، 1/ 432.

يذكر فوشي أنه كان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور البيزنطي، إذ لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته ومشورته أن نقوم بهذه الرحلة، كما لن يكون باستطاعة من يتبعنا على هذه الطريق أن يفعل ذلك، غير أن هناك من الأمراء من أبدوا الولاء ظاهريا فقط، أنظر: فوشي الشارتري، المرجع السابق، ص 45.

[2] سلاجقة الروم هم الذين استقروا بآسيا الصغرى، واستقلوا بعد انحلال الإمبراطورية السلجوقية العظمى وكانت عاصمتهم قونية، بعدما سقطت مدينة نيقية وهذه السلطنة هي أطول دول السلاجقة المنفصلة عمرا، إذ بقيت قائمة الذات إلى سنة 699هـ/ 1300م.

[3] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 45- 46، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص77-80.ابن خلدون، العبر، 40/5، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 131، محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 42.

[4] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 84.

تمكّنت الحملة الصليبية الأولى من تأسيس أربع إمارات صليبية على حساب الممتلكات الإسلامية، ثلاث منها في الشام، وواحدة في شمال غربي الجزيرة الفراتية،[1] وفيما يلي تفصيل تأسيسها حسب ترتيب ظهورها، مع إبراز ردود فعل المسلمين الأولية اتجاها حتى نمهد للحديث عن كيفية قيام جبهات المقاومة الإسلامية في مواجهتها.[2]

1-2-1 إمارة الرها[3] (ربيع الأول 491هـ/ فبراير 1098م)

تعد إمارة الرها أولى الإمارات الصليبية التي أسسها الإفرنج على الأراضي الإسلامية، حيث كان ذلك من قبل بلدوين البويني، الذي استطاع قبل ذلك أن يستولي على الكثير من القلاع والمدن في شمال الجزيرة، كتل باشر[4] والراوندان[5]، ويعود ذلك لمساعدة العناصر الأرمنية التي كانت تسيطر على تلك الجهات،[6] فقد وجدوا في القوات الصليبية فرصتهم في التخلص من الحكام الأتراك المسلمين،[7] وقد كان من أثر ذلك الزحف الصليبي لبلدوين البويني أن قام حاكم مدينة الرها وهو ثوروس الأرمني بإرسال دعوة إليه في ربيع الأول 491هـ/فبراير 1098م يطلب منه فيها الحضور إلى المدينة والوقوف إلى جانبه في مواجهة تقدم الأتراك السلاجقة، الذين كانوا يستهدفون توسيع نطاق

---

(1) أنظر: الخريطة رقم (04)

(2) حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 85.

(3) الرها: تقع على بعد 45 ميلا شرقي الفرات و 160 ميلا شمال شرقي أنطاكية، وهي بقعة تتصل بمدينة حرّان، وسطة من المدن، أكثر أهلها نصارى، وبها لهم ما يناهز ثلاث مائة بيعة ودير، أنظر، القلقشندي، صبحي الأعشى، 139/4، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 277.

(4) تل باشر: قلعة منيعة مشهورة، ولها قلعة معمورة، تبعد نحو ثلاثين ميلا غربي معبر نهر الفرات، و اثنا عشر ميلا عن الرها شمالا عند البيرة التي تسيطر على الطريق بين الرها وأنطاكية، طولها إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، أنظر، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، حققه، يحيى عبّادة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1928، 1/ 100، ياقوت، معجم البلدان، 2/ 204.

(5) الراوندان: قلعة صغيرة على رأس جبل عال منفرد في مكانه، لا يحكم عليها منجنيق ولا يصل إليها نبل، وهي من أقوى القلاع وأحسن البقاع ويحف من جهة الغرب والشمال، وهو كالخندق، وفيه نهر جار، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 94/1، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 267.

(6) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 52، Runciman: The first cruasade, Constantinople to Antioche, p 302.

(7) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 1/ 183، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 87.

م، وليس هذا فحسب بل أن ثوروس عرض على بلدوين أن يتخذه ولدا يرثه في حكم المدينة، نظرا لكونه رجلا طاعنا في السن وليس له من الأولاد من يخلفه.[1]

رحَّب بلدوين بما عرضه عليه ثوروس، فغادر تل باشر في ربيع الأول سنة 491هـ/ فبراير 1098م، على رأس جيش صغير مؤلف من 80 فارسا،[2] وعند وصوله إلى الرها استقبله حاكمها ثوروس وأهالي المدينة بالبشر والترحاب، وسرعان ما أقام ثوروس حفلا أعلن فيه تبنيه بلدوين وأعطاه الحق في وراثة عرشه.[3]

غير أن ثوروس لم يبق طويلا على قيد الحياة، فقد قامت ثورة ضده بعد خمسة عشر يوما من قدوم بلدوين في 30 ربيع الأول 491هـ/7 مارس 1098م انتهت بمقتله،[4] وبذلك آل حكم مدينة الرها إلى بلدوين، الذي تمكن بفضلها من تأسيس قاعدة أمامية مهمة للكيان الصليبي فيما بعد.[5]

وبعرضنا هذا لكيفية تأسيس أولى الكيانات الصليبية في ممتلكات الدولة الإسلامية، يتضح لنا بأن المهمة لم تكن صعبة بالنسبة للقوات الصليبية، التي لم تدخل في مواجهة عسكرية مع المسلمين لانتزاعها منهم، فقد كان الاستيلاء عليها سلميا، غير أنه رأينا من الضروري إبراز ردود الفعل الإسلامية الأولية بعد سقوط الرها في أيدي الصليبين، وموقفهم من ذلك.

لقد عرفت السنوات الأولى للتواجد الصليبي في مدينة الرها انعدام تشكل جبهات مقاومة إسلامية ضدَّها، نتيجة ما كانت عليه العلاقات بين مختلف القوى الإسلامية في تلك الفترة، حيث يعلل ذلك ابن الأثير بقوله: " واتفق لهم (أي الصليبيين) اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا، تفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء، وتمزقت الأحوال"، وقوله أيضا: " واختلف السلاطين على ما نذكره فتمكن الفرنج من البلاد".[6]

وعلى كل حال فقد رسمت أولى معالم المقاومة الإسلامية ضد صليبيي الرها في حرَّان سنة 498هـ/ 1104م) إثر حلفٍ صغير جمع الأميريين التركيين، معين الدين سقمان الأرتقي (

---

[1] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 52، 53. محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 45.

[2] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص53. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 1/ 184.

[3] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 88.

[4] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 53.

[5] Runciman: A Hist of the Crusades, I, p 206.

[6] ابن الأثير، الكامل، 242/10.

495هـ- 498هـ/ 1101م- 1104م) حاكم ماردين، وشمس الدين جكرمش أتابك الموصل، حيث أنزل هذا الحلف هزيمة قاسية بالصليبيين وأوقعت ببلدوين وجوسلين أسيرين في قبضة القوات الإسلامية،[1] وقد كان بإمكان هذا الحلف تقويض الوجود الصليبي في الرها، غير أن الاختلاف حول اقتسام الغنائم أدَّى إلى تفكك هذا التحالف.[2]

ويجدر الإشارة هنا إلى أن إمارتي حلب والموصل قد كانتا أكثر المناطق الإسلامية تعرضا للاعتداءات الصليبية، نتيجة وقوعهما بين إمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين، وهو ما جعل منهما مركزين أساسيين للمقاومة الإسلامية في منطقة الجزيرة وشمال الشام.

وإضافة إلى الحلف الإسلامي الأول الذي أشرنا إليه سابقا ضد الوجود الصليبي في الرها وما جاورها، فقد تشكلت بعده العديد من التحالفات بين الأمراء المسلمين،[3] والتي كانت ظرفية سرعان ما تتفكك بعد وضوح نوايا أطراف هذه التحالفات، وخيانة البعض منهم للحلف.

ولعل من أبرز تلك التحالفات ذلك التكتل الذي تشكل بضغط من الخليفة العباسي المستظهر بالله (487هـ- 513هـ/ 1094م- 1118م)، حيث جمع العديد من الأمراء بقيادة مودود أتابك الموصل[4] فاستطاع أن يفتح عِدَّة حصون صليبية تابعة لإمارة الرها، غير أنَّه لم يتمكّن من استعادة المدينة،[5] وقد أبرز العديد من المؤرخين أسباب ذلك إلى حالة التمزق والانقسام التي كانت تحكم العلاقات بين الأمراء المسلمين، فيقول عن ذلك ابن القلانسي:" وظهر لظهير الدين طغتكين من سوء نية المقدمين فيه ما أوحشه منهم، ونفر قلبه من المُقام بينهم، وذُكر له أن الملك فخر الملوك رضوان راسل بعض الأمراء في العمل عليه والإيقاع به".[6]

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، 148/2، ابن خلدون، العبر، 69/5-70، كمال بن مارس، **العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص 83.

(2) ابن الأثير، الكامل، 10/ 375.

(3) نفسه، 10/ 483.

(4) تشكل هذا الحلف بعد قدوم بعض أهالي حلب إلى عاصمة الخلافة العباسية، يحثون فيها الخليفة على الأمر بجهاد الصليبيين، فبعث على إثر ذلك إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه أن يتولى هذه المهمة ويدرأ الخطر الصليبي على مدينة حلب، فترتب عن ذلك تكتل إسلامي في أوائل سنة 505هـ/ 1111م، جمع بين الأمير مودود أتابك الموصل، والأمير سقمان القطبي صاحب تبريز، والأمير برسق بن برسق صاحب همذان، والأمير أحمديل صاحب مراغة، والأمير إيلغازي صاحب ماردين، أنظر: ابن الأثير، الكامل 483/10.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 173، 174.

(6) نفسه، ص177.

إلا أن الأفظع من كل هذا فهو اتفاق البعض من قادة هذا التكتل مع الإفرنج وعقد اتفاقات سرية معهم، مما أسرع بتفتيت هذا التحالف، فيقول عن ذلك ابن الأثير:" فشرع (طغتكين) في صلح الفرنج سرًا من مودود، فصالحوه وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم".[1]

وعلى أية حال فإنَّ ما يمكن استخلاصه من ردود الفعل الأولية لتأسيس الكيانات الصليبية، أنَّه وعلى الرغم من محدودية مكاسبها إلا أنّها أوعزت للصليبيين بأخذ احتياطاتهم من قوة المسلمين عند اتحادهم، وأسهمت في زرع بذرة المقاومة الإسلامية الجدية، والّتي ستنمو لتحقق أهدافها لاحقًا.

1-2-2 إمارة أنطاكية (رجب 491هـ/ جوان 1098م)

لم تكن طريقة الاستيلاء على مدينة أنطاكية بنفس الكيفية التي تم الاستيلاء بها على مدينة الرها، فهذه الأخيرة قد صارت إمارة صليبية دون حدوث مواجهة عسكرية بين الصليبيين والمسلمين، غير أن أنطاكية أصبحت في حوزة الصليبيين بعد صراع عنيف بين الجبهتين، راح ضحيته الكثير من الطرفين، لتصير في الأخير ثاني الكيانات الصليبية التي تؤسس على الأراضي الإسلامية، وأولاها في بلاد الشام.[2]

استمر الصليبيون في زحفهم من آسيا الصغرى باتجاه الجنوب تحت قيادة ريموند كونت صنجيل وبوهيموند النورماندي في الشهور الأخيرة من سنة 490هـ/ 1097م، حيث بلغوا مدينة أنطاكية في ذي القعدة 490هـ/ أكتوبر1097م،[3] وفرضوا عليها حصارا دام قرابة السبعة شهور، أدَّى إلى وقوع العديد من الاشتباكات بين الصليبيين ورجال ياغي سيان حاكم المدينة.[4]

وقد كان من الممكن للقوات الإسلامية أن يفيدوا ممَّا وقع بين قادة الجيش الصليبي المحاصر لأنطاكية من اختلاف حول كيفية الاستيلاء عليها وتحديد التوقيت المناسب لذلك، حيث كان بوهيموند يسعى إلى الانفراد بالاستيلاء على المدينة دون أن ينازعه فيها أحد، إضافة إلى الظروف التي صاحبت حصارها كنفاذ المؤونة وإطباق المجاعة على الجند بعد حلول فصل الشتاء، إضافة إلى

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص17- 18.

(2) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 53- 54.

(3) بطرس توديبود، تاريخ، ص 135، فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 54، ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص85- 86، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 125.

(4) يذكر ابن خلدون أن حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية دام سبعة شهور، العبر، 40/5-41، الحريري، الإعلام، ص8-9.

رغبة بوهيموند في إبعاد القوات البيزنطية وعدم تمكينها من المشاركة في عملية الاستيلاء، حتَّى يستبعد أي حق بيزنطي في المدينة.[1]

غير أن ما نلاحظه في هذه الفترة أن حالة الانقسام والتمزق التي كانت عليها القوات الإسلامية، لم تكن لتسمح لها بالإفادة من أوضاع الصليبيين، حيث أن ياغي سيان حاكم مدينة أنطاكية، لمَّا علِم بزحف الصليبيين إليها، قام باستصراخ القوى الإسلامية المحيطة بها طلبا للنجدة ولمساعدته في الوقوف ضد الغزو الصليبي،[2] فيقول عن ذلك ابن القلانسي:" وسير ولده إلى دمشق، إلى الملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، والبعث على الخفوف إلى الجهاد، وقصد تحصين أنطاكية".[3]

غير أن رواسب الصراعات المريرة التي كانت تحكم العلاقات بين أمراء البلدان الإسلامية، حالت دون تكتل الجهود في مواجهة الغزو، فرضوان صاحب حلب لم يسهم بقواته في مساندة ياغي سيان، وذلك لانحياز الأخير إلى جانب دقاق في الصراع الذي دار بين الإثنين،[4] كما وأنَّ الفاطميين في مصر قد فكّروا في التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم السلاجقة، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية لعقد اتفاق بينهم حيث تكون أنطاكية وبلاد الشام للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين، [5] إضافة إلى كل هذا فقد حدث أن أخذت العصبية العنصرية بين العرب والترك دورها في زيادة حدة الانقسام والتشتت، وعن ذلك يقول ابن العديم:" وجرت بين العرب والأتراك الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته"،[6] كما وأن موقف كربوغا حاكم الموصل من رفضه لقتال الصليبيين حال خروجهم من أنطاكية وسوء معاملته لبقية الأمراء،[7] قد كان له وقع أيضا في إضعاف جهود القوات الإسلامية.[8]

---

[1] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 54، 55، ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص88-90.

[2] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 54.

[3] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص218.

[4] ابن الأثير، الكامل، 269/10.

[5] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 220-221، ابن الأثير، الكامل ، 275/10.

[6] ابن العديم، زبدة حلب، 136/2.

[7] ابن خلدون، العبر، 41/5

[8] ويجدر الإشارة إلى أن هناك تحالفين تشكلا لنجدة ياغي سيان حاكم أنطاكية، الأول قاده رضوان صاحب حلب، وقد فشل نتيجة إعلام الصليبيين بخطة المسلمين من قبل السريان والأرمن، حيث ساعدوا الصليبيين منذ الوهلة الأولى، – لماَّ علموا بخطة القوات الإسلامية المتحالفة– فراسل هؤلاء المسيحيون بوهيمند في ربيع الآخر 491هـ/ فبراير 1098م، وأخبروه بخطة المسلمين

وعلى أية حال فقد تحقق الانتصار للصليبيين في رجب491هـ/جوان1098م، وسقطت بذلك أنطاكية في حوزتهم، ليؤول حكمها لبوهيموند، بعد أن تركها له ريموند معلنًا توجهه لبيت المقدس قصد السيطرة عليها.[1]

3-2-1 مملكة بيت المقدس (شعبان 492هـ/ جويلية 1099م)

بعدما تمَّ للصليبيين الاستيلاء على أنطاكية ومن قبلها على الرها، وبعد تأكدهم من مدى هشاشة القوات الإسلامية التي واجهتهم بسبب الانقسام والتشتت وسوء العلاقات الَّتي حكمت قادة القوى الإسلامية في تلك الفترة، فقد أخذوا يفكّرون بجدية في استغلال هذه الظروف للاستيلاء على بيت المقدس هدفهم المنشود، ولهذا فقد عقد الصليبيون مجلسًا بأنطاكية في 06 ذو الحجة 491هـ/05 نوفمبر 1098م، قرروا فيه مواصلة الزحف إلى بيت المقدس.[2]

ولأجل تأمين طريق الرحلة إلى بيت المقدس فقد أخذ القادة الصليبيون في الاستيلاء على كل الحصون والمدن والإمارات الإسلامية الواقعة على طريق الرحلة، كمعرَّة النعمان[3] التي تستوقفنا الأحداث التي ميَّزت استيلاء الصليبيين عليها، إذ تذكر المصادر التاريخية عن بوهيموند أنَّه قد أمعن في القتل والذبح حتَّى امتلأت المدينة بالجثث، بعدما قد وعد أهل المدينة بالأمان حين استسلموا له، وكان ذلك في محرم 492هـ/ ديسمبر 1098م.[4]

=الذين اجتمعوا بحارم على بعد 30كم شرق أنطاكية، والتي كانت ترمي إلى مهاجمة الجيوش الصليبية المتمركزة في حارم في الوقت الذي تخرج فيه حامية مدينة أنطاكية بقيادة باغي سيان وتهاجمهم من الخلف، فاتخذ بوهيمند الحيطة من هذه الخطة، أما التحالف الثاني الذي قاده كربوغا، فقد فشل هو الآخر للأسباب التي أوردناها في المتن، أنظر: كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية، ص 89.

[1] فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 57، بطرس توديبود، تاريخ، ص 165- 167. ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 120، ميشيل بالار، الحملات، ص 93.

[2] وليم الصوري، **الحروب الصليبية**، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، 2/ 17- 18، حسن حبشي، المرجع السابق، ص 159.

[3] معرَّة النعمان: بليدة بين حاب وحماه، كثيرة التين والزيتون، وهي مدينة وما حواليها أغذاء، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 46، القزويني، آثار، ص 272، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 265.

[4] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الأثير، الكامل، 178/8، الحريري، الإعلام، ص9، ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة،ص 170-172. بطرس توديبود، تاريخ، ص 257، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 442.

ونتيجة لهذه المذبحة التي تعرضت لها معرَّة النعمان، فقد أخذت الحصون والمدن الواقعة على طريق الصليبيين إلى بيت المقدس كحصن كفرطاب، إمارة شيزر[1]، حصن مصياف، صاحب طرابلس،[2] وصاحب حمص وغيرهم، يستبقون وصول الجيوش الصليبية بالرسل المحملة بالهدايا والعهود وتقديم العون بالأموال والمؤن تجنبا لما وقع لأهل معرَّة النعمان.[3]

وعلى كل حال فقد أتمت القوات الصليبية رحلتها إلى بيت المقدس 15رجب 492هـ/ 07 يونيو 1099م[4]، أين كانت حاميتها الفاطمية قد أعدَّت العُدَّة لاستقبالها بعد وصول أخبار زحف الجيوش الصليبية عليها، وقد صارت السلطة في المدينة المقدسة لصالح الفاطميين بعد أن انتزعوها من الأراتقة الذين أُسند إليهم حكمها من طرف تتش بن ألب أرسلان سنة 472هـ/حيث ظلَّ حكمها تحت سلطتهم إلى غاية سنة 491هـ/ 1098م، أين توجهة قوة فاطمية كبيرة إلى جنوب الشام، استطاعت أن تنتزع بيت المقدس، وكان ذلك في شعبان من العام نفسه، أي بعد أيام معدودة من سقوط أنطاكية بصفة نهائية في قبضة الصليبيين.[5]

إنَّ في ذلك التوافق في التوقيت بينَ هجوم الفاطميين على جنوب الشام لينتزعوا بيت المقدس من الأراتقة، والسيطرة الصليبية على أنطاكية لم يكن محض الصدفة وفق ما يُقرُّ به العديد من المؤرخين، كابن الأثير الذي يقول عن ذلك:"وقيل بأن أصحاب مصر من العلويين، لماَّ رأو قوة الدولة السلجوقية وتمكُّنها واستيلائها على بلاد الشام وغزة، لم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى

---

(1) شيزر: وهي ذات قلعة حصينة والعاصي يمرُّ بها من شماليها، وينحدر عندها النهر المذكور، ارتفاعه يزيد على عشرة أذرع يسمونه الخرطلة، وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة، بينها وبين حماه، تسعة أميال، وبينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلاً، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص263.

(2) طرابلس: مدينة على شاطئ الروم، عامرة كثيرة الخيرات والثمرات، القزويني، آثار، ص 408.

(3) Runciman: op, cit, p327. ، فوشي الشارتري، المرجع السابق، ص 68. بطرس توديبود، تاريخ، ص 262. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، 235.

(4) Runciman: The first, p327 فوشي الشارتري، المرجع السابق، ص 70، 71، بطرس توديبود، تاريخ، ص 313، وليم الصوري، الحروب، 2/ 94.

(5) ابن خلدون، العبر،5/43-44، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 147، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 102.

تمنعهم، ودخول أقسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، يكونوا بينهم وبين المسلمين، والله أعلم"[1]

وعليه فإنَّ ما عايشته مصر من أوضاع سيئة على كافة المستويات، بدآ بالحرب الأهلية بين 454هـ- 465هـ/ 1062- 1073م - أشرنا لها سابقا-،[2] إلى الأزمات الاقتصادية الخانقة التي ضربتها بين سنتي 457هـ- 464هـ/ 1065م- 1072م، وأدَّت إلى جلاء خلق عظيم من مصر،[3] ثمَّ تبعتها أزمة سياسية تمثلت في الصراع الذي كان دائرًا بين الوزراء والخلفاء فيها، إضافة إلى استمرار حربهم مع السلاجقة حول مناطق النفوذ في بلاد الشام، لتكون كلُّها عوامل حددت موقف الفاطميين من الحملات الصليبية عامةً وإبرام ذلك التحالف مع الصليبيين على حساب المسلمين بشكل خاص.

وعلى أية حال فإن فحوى العقد الذي كان بين كل من الفاطميين والصليبيين يقضي بسيطرة الأخيرين على شمال الشام، وإبقاء جنوبه للسلطة الفاطمية بما فيها بيت المقدس، ولهذا فقد كان افتخار الدولة الفاطمي حاكمًا للمدينة عند وصول الصليبيين[4] الذين كما نرى قد نقضوا عهدهم مع الفاطميين، وهو ما يوضِّح لنا قصر نظر هؤلاء لأطماع الإفرنج الحقيقية في بلاد المسلمين.

عمل حاكم المدينة جاهدًا على تحصينها حين بلوغه خبر مسير الجيوش الصليبية إليها، ولعلَّ هذا ما صعَّب من مهمة الاستيلاء عليها في بادئ الأمر، حيث سمَّمَ الآبار وقطع موارد المياه، وأخفى المواشي وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين، وأرسل إلى الفاطميين في مصر يطلب النجدة العاجلة.[5]

ونظرًا لمناعة أسوار المدينة، وتأكُّد الصليبيين من صعوبة الاستيلاء عليها بما يمتلكون من عتاد، فقد قاموا ببناء برجين خشبيين متحركين، نُصب أحدهما على باب صهيون فأحرقه المسلمون،

---

(1) و نشير هنا إلى أن ابن الأثير كما هو واضح، يقدم لنا قضية الاتصال بين الفاطميين والصليبيين على مسؤولية غيره، فقد بدأ الحديث بكلمة " وقيل" وختمه بقوله " والله أعلم"، أنظر: ابن الأثير، الكامل، 273/10.

(2) ابن ميسر، أخبار مصر، ص13، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 90-91.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 3/5- 4.

(4) Runciman: The first, pp315, Runciman: Hist of crusades, I, p 229. ، ابن الأثير، الكامل، 273/10، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 145/5، ابن خلدون، العبر، 42/5.

(5) Runciman: The first, p 333 ، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 104.

غير أن الصليبيين قد أحكموا سيطرتهم على الجزء الشمالي بباب العمود، وعن ذلك يقول ابن تغري بردي:" وعملوا برجين مطلين على السور، أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود...فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه، وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجلٍ واحد فانهزم المسلمون".[1]

وهكذا سقطت المدينة المقدسة في 23 شعبان سنة 492هـ/ يوليو 1099م،[2] في أيدي الصليبية الحاقدة، فاندفعت جيوشها في أنحاء المدينة كالسيل الجارف يقتلون ويذبحون دون تفرقة بين أعمارهم وجنسهم، حتى أنهم أقاموا مجزرة وحشية في المسجد الأقصى،[3] لم يستطع إنكارها حتَّى المؤرخون الإفرنج أنفسهم، حيث يصفها فوشي الشارتري فيقول:" وفي معبد سليمان جرت مذبحة بين المسلمين، أجهزت على حوالي عشرة آلاف منهم، ولو كنتَ هناك فإنَّ قدمك حتى كاحلها ستتلطخ بالدماء"[4]، وأما المؤرخون المسلمين فقد أفاضوا من ذكرها في مؤلّفاتهم، إذ يقول عنها ابن الأثير:" وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن السبعين ألفًا، منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبَّادهم وزُهَّادهم"،[5] أما ابن القلانسي فيقول:" وهجموا البلد فملكوه وانهزم بعض أهله إلى المحراب وقتل خلق كثير وجمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم"[6]، ويذكر عنها ابن الوردي بقوله:" وقتَل الفرنج في المسلمين أسبوعًا، وقتلوا في المسجد الأقصى فوق سبعين ألف بينهم أئمة وعلماء وزهاد..."[7]

ا. فقد صارت مدينة بيت المقدس ثالث الكيانات الصليبية التي تؤسس على الأراضي الإسلامية، حيث عقدت الرياسة عليها لجودفري دي بويون بصفته حامي الضريح المقدس، الذي اتخذ من سياسة التوسع الاستيطاني هدفًا لتأمين المدينة، فنجح في السيطرة على فلسطين ومعظم

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 148/5، بطرس توديبود، تاريخ، ص 317، ابن خلدون، العبر، 44/5، الحريري، الإعلام، ص10-11.

(2) الحريري، الإعلام، ص10، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 342.

(3) وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/ 126- 127.

(4) فوشي الشارتري، المصدر السابق، 75.

(5) ابن الأثير، الكامل، 283/10، 284.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص222.

(7) ابن الوردي، **تتمة المختصر**، بيروت، 1970، 2/ 20.

أراضي جنوب الشام، غير أن الموت أخذته بعد أشهر قليلة من الاستيلاء على المدينة المقدسة، فاتفق الصليبيون على استدعاء بلدوين البويني أمير الرها لتوليته السلطة باعتباره الوريث الشرعي بعد وفاة جودفري وأصبح أول ملك لمملكة بيت المقدس الصليبية.[1]

1-2-4 إمارة طرابلس (ذو الحجة 502هـ/ جويلية 1109م)

لقد شهدت محاولة الصليبيين الاستيلاء على مدينة طرابلس مشاق وصعاب لم يجابهوها في أي منطقة أخرى من المناطق التي استولوا عليها في البلاد الإسلامية، وذلك راجع لموقع المدينة الحصين من جهة، وكذا لاستماتة أهلها وحاكمها فخر الملوك أبو علي بن عمار من جهة ثانية.

وإذا رجعنا بأحداث التاريخ قليلا إلى الخلف، نتذكر ذلك التنافس الذي قام بين الزعيمين الصليبيين بوهيموند النورماني وريموند الصنجيلي من أجل السيطرة على أنطاكية، والتي آل حكمها في الأخير للزعيم الصليبي الأول، فما كان من الثاني إلا البحث عن مغنم آخر يبرر جدوى اشتراكه في الحملة الصليبية،[2] فتوجه بذلك صوب بيت المقدس لتحقيق ذلك الأمل، غير أن جودفري قد زاحمه عليه إذ انتزع منه قيادة رحلة المسير نحو المدينة المقدسة، وتولي السلطة بعد الاستيلاء عليها.[3]

وعلى الرغم من مشاركة ريموند في تلك الرحلة ومساهمته في الاستيلاء على بيت المقدس، فقد سعى إلى إقامة مُلك خاص بمنزلته كأمير من أمراء الحملة الصليبية، فكانت بذلك طرابلس مقصده لتحقيق تلك الغاية.[4]

اتجه ريموند بجيوشه إلى طرابلس قصد السيطرة عليها، والإطباق على الساحل الشامي من شماله إلى جنوبه، مما دفع بفخر الملك بن عمار حاكم طرابلس إلى الاستنجاد بحكام الإمارات الإسلامية المجاورة لحكمه كحمص ودمشق، اللذين سارعا إلى إرسال قوتين لمساعدته، إلا أنهما انحزما أمام جيوش ريموند الذي هادنهم على جزية من المال والخيل.[5]

لم يكتب لريموند تحقيق حلمه في الاستيلاء على طرابلس فقد توفي بعد أن أصيب بحروق نتيجة سقوط بعض الأجزاء المشتعلة من القلعة التي بناها بغية إخضاع طرابلس، حيث أحرقها ابن

---

(1) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 77، 85، بطرس توديبود، تاريخ، ص 319، وليم الصوري، الحروب الصليبية، 2/ 186- 187.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 1/ 212-213، ميشيل بالار، الحملات، ص107.

(3) Runciman: Hist of crusades, I, p271 - 272.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 1/ 230، 270.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 262-263، ابن الأثير، الكامل، 344/10.

عمار بعد ذلك،[1] فكان من أتباع ريموند أن اختاروا ابن خالته وليم جوردان لمواصلة العمل وتحقيق هدف ريموند، وكان ذلك في منتصف سنة 498هـ/ 1104م،[2] وعن حالة القتال الذي كان دائرا بين جيوش جوردان وأهل طرابلس يقول ابن الأثير:" ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت (وابن الأثير هنا يؤرخ لأحداث سنة 499هـ/ 1105م) فعدمت الأقوات به، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم، فجلا الفقراء، وافتقر الأغنياء، وظهر من بن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد".[3]

ونتيجة لسوء أوضاع طرابلس واشتداد وطأة القوات الصليبية المحاصرة لها، فقد ذهب ابن عمار يطلب العون بنفسه من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، غير أنهما وعداه بما لم يفيا به، فتركاه وحده في مواجهة خطر تلك الجيوش.[4]

وعلى أية حال فإن فخر الملك بن عمار عند عودته إلى طرابلس وجد بأن السلطة قد انتزعت منه وصارت بيد الفاطميين، الذين أرسلوا بطلب من أهل طرابلس واليا لهم هو شرف الدولة بن أبي الطيب، يعينهم على رد الحصار والاحتماء بالدولة الفاطمية، لتخرج بذلك المدينة عن سيطرة بني عمار نهائيا.[5]

وفي تلك الأثناء التي كانت فيه القوى الإسلامية في كل من بغداد والجزيرة على ذلك القدر من التفكك والتخاذل، ونتيجة لتكاسل القوة الفاطمية في الدفاع عن مدينة طرابلس، كانت الجبهة الصليبية تسعى جاهدة إلى تناسي الخلافات وتوحيد الجهود في سبيل الاستيلاء على المدينة، فحدث أن تجمع جيوش القادة الصليبيون، بلدوين ملك بيت المقدس، تنكريد أمير أنطاكية، وبلدوين أمير الرها ومعهم جوردان عند مدينة طرابلس التي لم تستطع أن تقاوم هذه الجموع من القوات الصليبية، وخاصة وأن الفاطميين قد تباطؤوا في نجدة أهل المدينة، فسقطت بذلك طرابلس في 11ذي الحجة 503هـ/12 جويلية 1109م.[6]

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 412/10.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2/ 362.

(3) ابن الأثير، الكامل، 412/10، ابن خلدون، العبر، 82/5-83

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 261-262، ابن الأثير، الكامل، 398/10- 390، ابن خلدون، العبر، 82/5، الحريري، الإعلام، ص16.

(5) ابن الأثير، الكامل، 454/10.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 189/5.ابن الأثير، الكامل، 457/10، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص263.

2- نماذج من جبهات المقاومة الإسلامية للعدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة

2-1 جبهة الجزيرة والشام (نموذج الموصل- حلب)، آل زنكي وتأسيس أولى نواة للمقاومة الإسلامية

2-1-1 الموصل – حلب: من دخول الإفرنج إلى تولي عماد الدين زنكي الحكم (490هـ – 521هـ / 1096م- 1127م)

اتضح لنا فيما مضى كيف استطاع الصليبيون تحقيق انتصارات عديدة على القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر، والّتي مكّنت لهم من الاستيلاء على ممتلكاتهم وتأسيس كيانات صليبية عليها، كما اتضح لنا كذلك مدى الانقسام والتشتت الذي طبع العلاقات بين مختلف تلك القوى، والّتي لم تستطع ردَّ ذلك العدوان وثنيه عن تحقيق مآربه التي رسمها في تلك الحملات.

غير أنَّ خلال عرضنا للطريقة التي أسست بها الإمارات الصليبية في الأراضي الإسلامية، قد تجلَّت لنا بعض ردود الفعل من طرف القوى الإسلامية، وبخاصة في منطقة الموصل وحلب، وإن كانت مكاسبها محدودة، إلاَّ أنَّ المؤرخين اعتبروها بذرة المقاومة الإسلامية التي نمت فيما بعد في عهد عماد الدين زنكي وحققت انتصارات باهرة على الوجود الصليبي في بلاد المسلمين.

وبداية بمنطقة الموصل فإننا نقول: بأنَّ موقعها الجغرافي قد سمح لها بأن تكون جبهة مقاومة رئيسية ضد الغارات الصليبية، أما عن ردود الفعل الإسلامية في هذه المنطقة (الموصل) فقد تجلَّت مباشرة بعد مجيء الصليبين سنة 490هـ/1096م، حين قاد حاكمها وقتذاك كربوغا (489هـ-495هـ/ 1095م-1101م) القوات الإسلامية التي واجهت الصليبيين المحاصرين لأنطاكية في سنة 491هـ/ 1097م،[1] إلاَّ أنَّ ما صاحب تلك المواجهة بين الفريقين، والَّتي تطرقنا إليها في السابق، حالت دون تحقيق مكاسب تذكر بالنسبة للجبهة الإسلامية، وقد ظهر بعد وفاة كربوغا رجل آخر كان له الفضل في الاعتناء ببذرة المقاومة الَّتي وضعها سلفه من قبل على أرض الموصل ألا وهو شمس الدولة جكرمش، الذي شارك في حلف جمعه بمعين الدين سقمان بن أرتق صاحب ماردين في مواجهة صليبي الرها، حيث ألحق هذا الحلف هزيمةً قاسية

[1] ابن خلدون، العبر، 5/40-41 ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص218، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص341.

بالصليبين وأوقعت ببلدوين وجوسلين أسيرين في قبضة القوات الإسلامية[1]، إلا أنَّ المطامع الشخصية كانت حائلاً دون إفادة هذا الحلف من هزيمة صليبيي الرها.[2]

أمَّا ثالث الرجال الذين نمت على أيديهم بذرة المقاومة الإسلامية في منطقة الموصل، كان شرف الدين مودود بن التونتكين (502هـ- 507هـ/1108م- 1113م) حيث يسجِّل التاريخ لهذا القائد رئاسته لذلك الحلف الذي أمر بتشكيله الخليفة العباسي المستظهر بالله وضمَّ العديد من أمراء المسلمين- تم التطرق إليه سابقا- من أجل استعادة إمارة الرها، غير أنَّ رواسب العلاقات المتوترة بين هؤلاء الأمراء، وكذا خوفهم من تعاظم شوكة مودود أمير الموصل بعد الاستيلاء على الرها، الذي من شأنه أن يقضي على تلك الإمارات الصغيرة المتناثرة في الشام والجزيرة، دفع العديد من أمراء ذلك الحلف إلى التباطؤ في دعمه،[3] بل أن منهم من هادن الصليبيين، كما فعل طغتكين صاحب دمشق[4]

واصل مودود أتابك الموصل سياسته الرامية إلى تقويض الوجود الصليبي في أراضي المسلمين، حيث اشترك في حلف آخر بطلب من طغتكين أتابك دمشق، الذي أدرك استحالة وقوفه في وجه بلدوين ملك القدس العازم على الاستيلاء على مدينة صور والمدعَّم من حلفاءه، فتشكل على إثر ذلك حلف ضم القائدين السالفي الذكر في سنة 505هـ /1111م، فتمكَّن من ردِّ الصليبيين عن هدفهم وهزمهم شر هزيمة في محرم 507هـ/ جوان 1113م،[5]، على أنَّ مسيرة هذا الرجل الجهادية

---

[1] قام إيلغازي بن أرتق حاكم ماردين الذي خلف سقمان بإطلاق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون ألف دينار، كما سعى بعد ذلك جوسلين لإطلاق سراح بلدوين بفدية قدرها ثلاثين ألف دينار، أنظر: ابن العديم، زبدة الحلب، 148/2، ابن خلدون، العبر، 87/5.

[2] ابن الأثير، الكامل، 10/ 375، ابن خلدون، العبر، 87/5-88.

[3] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص177.

[4] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص17، 18.

[5] راح ضحية تلك الواقعة بين الحلف الإسلامي المتكون من مودود أتابك الموصل وطغتكين أتابك دمشق، والجيش الصليبي بقيادة ملك بيت المقدس بلدوين، وصاحب أنطاكية روجر وبونس صاحب طرابلس، ما يقرب من ألف ومائتا من المشاة وثلاثين فارسا، حتى أن الملك الصليبي لم يتمكن من النجاة إلى بصعوبة بالغة أنظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 293- 295، ابن خلدون، العبر، 88/5-89.

قد انتهت على أيدي أحد من الباطنية، حين بقاءه في دمشق عند طغتكين، حيث طعنه وهو يصلي صلاة الجمعة في الجامع الأموي بدمشق.[1]

أسند السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه حكم الموصل لآقسنقر البرسقي، في السنة التي قتل فيها مودود (507هـ / 1113م)، غير أن صراع البرسقي مع صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق، وانهزامه أمامه دفعه بالعودة إلى إقطاعه في الرَّحبة،[2] فتولى حكمها بعده جيوش بك[3]، ثم عاد وحكمها البرسقي من جديد بتعيينٍ من السلطان وذلك في صفر من سنة 515هـ/أفريل 1121م، قضى خلالها خمس سنوات، استطاع فيها أن يُسهم بشكلٍ كبير في حركة المقاومة الإسلامية،[4] وأظهر من الكفاية والقدرة على مقاومة الصليبيين، ممَّا جعلته يجمع بين الموصل وحلب، بعد أن لجأ أهل هذه الأخيرة إليه يستنجدونه لمساعدتهم في درأ خطر الصليبيين سنة 518هـ /1125م، فأسرع لذلك وضمَّ المدينة الَّتي شكّلت فيما بعد مع الموصل نواة للمقاومة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة، تحت قيادته ثم على يد ابنه عماد الدين زنكي.[5]

وبالعودة إلى الوضع في حلب في الفترة الَّتي سبقت توحدها مع الموصل سنة 518هـ/1125م، نلاحظ أن الاضطراب وعدم الاستقرار قد كان ميزة الوضع السائد فيها، إذ أنّها ومنذ كانت تحت حكم رضوان بن تتش (ت 507هـ/ 1113م) قد لعبت دورا سلبيا في حركة المقاومة الإسلامية رغم أهمية موقعها، حيث أشرنا سابقا إلى الأطماع الشخصية لرضوان وتطلُّعاته في حكم دمشق، كما أشرنا إلى قيامه بأعمال ضد المقاومة الإسلامية كإثارته للعصبية بين الجند المسلمين من العرب والترك المحاصرين لأنطاكية، وكذا لموقفه البعيد عن روح التعاون فيما يخص الأحلاف التي كانت تتشكل من حين لأخر بين مختلف الأمراء المسلمين، وإضافة إلى كل هذا فقد

---

(1) ابن الوردي، تتمة المختصر، 36/2، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 207/5، ابن كثير، البداية والنهاية، 178/12، الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 161-162. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 298-299، ويرجح ابن الأثير أن يكون طغتكين هو من كان وراء تدبير عملية الإغتيال لخوفه من تعاظم نفوذ مودود في بلاد الشام، ابن الأثير، الكامل، 501/10.

(2) ابن خلدون، العبر، 89/5، ابن الوردي، تتمة المختصر، 37/2.

(3) ابن خلدون، العبر، 92/5

(4) ابن خلدون، العبر، 107/5-108، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 165.

(5) تعرض آقسنقر إلى الإغتيال على أيدي جماعة من الباطنية، وهو يصلي في جامع الموصل يوم الجمعة 09 ذو القعدة، 520هـ/ 26 نوفمبر 1126م، ثم خلفه عزالدين مسعود، أنظر، ابن العماد الحنبلي، شذرات، 67/4، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 341، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 230/5، ابن الأثير، الكامل، 587/10، ابن خلدون، العبر، 112/5-114

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حالف الصليبيين في الكثير من الأحيان لاتقاء شرِّهم من جهة وللحفاظ على مصالحه الشخصية من جهة أخرى.[1]

وعلى أية حال فإنه وبوفاة رضوان،[2] قد تحررت حلب من ذلك الوضع السلبي الذي أبعدها عن دائرة المقاومة الإسلامية، إلاَّ أنَّها قد شهدت نوعًا آخر من السلبية بعد رضوان، حيث سادها الإضراب ابتداءً من تولي الطواشي لؤلؤ حكمها في جمادى الآخرة 507هـ/ ديسمبر 1113م، الَّذي رفض فتح أبواب المدينة للجيوش السلطانية بقيادة برسق بن برسق أمير همذان، والتي أمرها السلطان السلجوقي باستعادة الرها، وعمل على محالفة ايلغازي وطغتكين وكذا أمير أنطاكية ضد جيوش برسق بن برسق.[3]

شهدت بعد ذلك حلب مرحلة أخرى من الانهيار بوفاة لؤلؤ، واغتصاب يارقتاش الأرمني حكم حلب، فقد عمل على استرضاء روجر حاكم أنطاكية، للحصول على الكثير من الامتيازات،[4] ونتيجة تفاقم وضع المدينة وزيادة الإضراب فيها وخوف أهلها من استيلاء الصليبيين عليها، رأوا ضرورة تسليمها لايلغازي بن أرتق حاكم ماردين، وكان ذلك في سنة 512هـ/ 1118م، وبتولي هذا القائد حكم حلب عرفت بداية مشاركتها في حركة المقاومة الإسلامية،[5] إذ حقق ايلغازي بمشاركة العديد من القادة المسلمين انتصارات مظفرة، كانت أبرزها تلك الموقعة التي انتصر فيها المسلمون بالقرب من أنطاكية، والتي يذكرها المؤرخون الصليبيون باسم ساحة الدم (15 ربيع الأول 513هـ/ 27 جوان 1119م). لكثرة من قتل فيها من الصليبيين،[6] وقد هزَّ هذا الانتصار وجدان المسلمين وتغنَّى به العديد من الشعراء[7]

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 464/10، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 219-220.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 301، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 205/5.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص190- 191.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 304-305، محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 71- 72.

(5) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، 73.

(6) ابن الأثير، الكامل، 553/10- 555، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 319-320، ابن العديم، زبدة حلب، 186/2-187، ابن منقذ، الاعتبار، ص 51، 54.

(7) ومما نُظِم من شعر في شجاعة إيلغازي جاء في كتاب ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 319- 320، بقول أحدهم:

قل ما تشاء فقولك المعقول　　　وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته　　　وبكى لفقد رجاله الإنجيل

واصل ايلغازي بن أرتق نشاطه الجهادي بغية استرداد الأراضي الإسلامية من الصليبيين طيلة فترة حياته، وأسهم بشكلٍ كبير في تحقيق العديد من الانتصارات المؤزَّرة الَّتي أعادت لمنطقة حلب جُزءاً من هيبتها بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من الخضوع للسيطرة الصليبية، إلاَّ أنَّه وبوفاة هذا القائد[1] عرفت حلب عودةً إلى وضعها السابق بعد أن آل حكمها لابن أخيه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق (516هـ / 1122م)، حيث يقول ابن الأثير عن فترة حكمه:" وقد أكثر الصليبيون من قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق، وكان بحلب حينئذ بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوة، وخافهم، يهادنهم على أن يسلِّم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوه لذلك".[2]

سرعان ما عاد الوضع في حلب إلى التحسّن باستيلاء بهرام بن أرتق صاحب خرتبرت[3] على المدينة، فقد تمكن من إحراز العديد من الانتصارات على الصليبيين بين (516هـ- 518هـ/ 1122م- 1124م)، كان أهمها تلك الموقعة التي أُسِر فيها جوسلين في قلعة خرتبرت،[4] لتدخل حلب في فترة لاحقة حلقةً أخرى من حلقات الاضطراب الداخلي، والضغوط الصليبية بعد وفاة بهرام، وبات وكأنّ المدينة على وشكِ السقوط في أيدي الإفرنج، مما دفع بأهالي المدينة إلى الاستغاثة بالبرسقي حاكم الموصل لإنقاذهم من الصليبين، فاعتبرها فرصة مواتية لبناء جبهةٍ تجمع الموصل وحلب في مواجهة الوجود الصليبي في شمال الشام والجزيرة، فكان مجيئه عام (518 ./ 1125م).[5]

---

[1] كانت وفاة سليمان بن إيلغازي بن أرتق صاحب ميافارقين، سنة 520هـ/ 1126م، وكان عادلاً شجاعًا جوادً، مات في شهر رمضان ودفن عند أبيه، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 230/5.

[2] ابن الأثير، الكامل، 610/10.

[3] حصن خرتبرت، يعرف أيضا بحصن زياد، يقع في أقصى ديار بكر، وبينه وبين ملطية مسيرة يومين، الحموي، معجم البلدان، 355/2.

[4] ابن الأثير، الكامل، 619/10.

[5] أبوشامة، الروضتين، 75/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 228/5، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 92.

2-1-2 عماد الدين زنكي وقيادة المقاومة الإسلامية (521هـ- 541هـ/ 1127م- 1146م)

في تلك المرحلة التي كانت تشهد ازدياد الضغوط الصليبية على منطقة الشام والجزيرة، وخاصةً بعد وفاة البرسقي حاكم الموصل وحلب،[1] ظهرت شخصية بارزة على مستوى الجبهة الإسلامية، سعت إلى تقويض الوجود الصليبي واستعادة الأراضي الإسلامية الإسلامية منه، وهي شخصية عماد الدين زنكي بن آقسنقر قسيم الدولة (521هـ-541هـ/ 1127م- 1146م)- وهو غير آقسنقر البرسقي حاكم الموصل المتأخر-،[2] فمنذ وفاة والده قسيم الدولة آقسنقر الذي لم يَخْلف من الأولاد إلا هُوَ، أحاطه مماليك والده وأصحابه وحكام منطقة الموصل من عهد كربوغا إلى غاية البرسقي المتأخر بالعطف والرعاية وحسن التربية، كما وقد ذاع صيته بعد بلوغه مرحلة الشباب ومشاركته في حروب الموصل ضد الصليبيين التي أظهر فيها شجاعة وبسالة لفتت الأنظار إليه، وهو الأمر الذي دفع بأعيان منطقة الموصل إلى الالتماس من السلطان السلجوقي تعيينه حاكما عليها بعد وفاة أتابكها عزالدين مسعود بن آقسنقر البرسقي (521هـ/ 1127م)،[3] فاستجاب السلطان لطلبهم، وأصدر منشوراً بتولية عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام.[4]

وعلى كل حال فإن عماد الدين زنكي ومنذ توليه حكم الموصل قد أخذ لنفسه ولمنطقة نفوذه سياسة قائمةً على ما تمَّ استخلاصه من معايشته لمختلف مراحل الصراع الإسلامي- الصليبي في هذه المنطقة، فقد عمل على الإفادة مما لم يستغلَّه سابقوه من أعدائه، وأن يَسُدَّ ثغرات الجبهة الإسلامية التي كانت أكثر ما ينفذ عبرها الصليبيون في ذلك الصراع.

نت أولى الخطوات التي قام بها زنكي في سبيل إقامة جبهة إسلامية قادرة على مواجهة الصليبيين واستعادة الممتلكات الإسلامية منهم، هي العمل على إنهاء الانقسام والتفتت الذي كانت عليه منطقة الجزيرة وشمال الشام واحتواء جميع الإمارات والقوى الإسلامية الصغيرة الموجودة هناك وضمِّها لنفوذه، لحمايتها من الخطر الصليبي أولاً، وبغية تأمين تخومه ثانيًا.[5]

---

(1) ابن خلدون، العبر، 114/5، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 230/5، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 341.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 234/5.

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 344، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 232/5.

(4) ابن خلدون، العبر، 114/5-118، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 327/2-328، ابن شداد، الأعلاق، 3/ 167.

(5) حامد غنيم، المرجع السابق، ص 171-172

نجح عماد الدين زنكي في الاستيلاء على جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار[1] والخابور وحرَّان[2]، وضمَّ إليها بعض مدن الشام كحماه وحمص وبعلبك،[3] كما استطاع بسطَ سيادته على حلب، والَّتي كانت قد خرجت من سلطة أمير الموصل بوفاة البرسقي[4]، فوصلها بقواته في جمادى الثانية (522هـ/ جوان 1128م)، أين استقبله أهلها واستبشروا لقدومه.[5]

أما الخطوة الثانية في سبيل بناء جبهته الداخلية، فقد تمثلت في تجنب مواجهة الصليبيين ومهادنتهم لمدَّةٍ تسمح له بالتركيز وإنجاح الخطوة الأولى، فيقول عن هذه السياسة ابن الأثير:" وأرسل إلى جوسلين – صاحب الرها- وغيرها من البلاد التي بيد الفرنج بالجزيرة، وهادنه مُدَّةً يسيرةً، يعلم أنَّه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم، ويعرف نصحهم وشجاعتهم"،[6] أما أبو شامة فيقول عن هذه السياسة:" وهادن الفرنج مُدَّة يسيرة يعلم أنَّه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، وملك مدينة حلب وغيرها".[7]

وما يسترعي النظر فيه من خلال هذه السياسة التي رسمها عماد الدين زنكي الرَّامية إلى التوسع على حساب الإمارات الإسلامية المتناثرة في بلاد الجزيرة والشام أنها تختلف كلية عن تلك التي لاحظناها سابقا، من استيلاء الفاطميين على بيت المقدس من الأراتقة، وتوسع الأمراء السلاجقة على حساب بعضهم البعض، فأما سياسة عماد الدين التوسعية فقد كان هدفها خدمة القضية الإسلامية بتقوية الجبهة الإسلامية ضد الوجود الصليبي، لكن غاية كل من الفاطميين والسلاجقة فقد كانت لمصالح ذاتية ضيقة.

هذا بالنسبة لسياسته الداخلية، أما عن الخارجية فقد تمثَّلت في الكفاح بكل الوسائل والعمل على إخراج الصليبيين من الأراضي الإسلامية، إذ عرف هؤلاء في تلك الفترة من القوة ما يتطلب

---

[1] سنجار: مدينة مشهورة، من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، ياقوت، معجم البلدان، 78/5، القزويني، آثار، ص 393، البكري، معجم ما استعجم، 3/ 760، الاصطخري، المسالك، ص 53، ابن شداد، الأعلاق، 154.

[2] حرَّان: بلدة من ديار مضر، إلى شرق الرها والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين، القلقشندي، صبحي الأعشى، 4/ 319.

[3] بعلبك: مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب، معدن الأعناب، سائر مدنها طيبة رحاب، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 160.

[4] أبو شامة، الروضتين، 77/1، ابن واصل، مفرج الكروب، 34/1-41.

[5] ابن خلدون، العبر، 119/5، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 133.

[6] ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 37.

[7] أبو شامة، الروضتين، 79/1.

توحيد كل الجهود في سبيل مواجهتهم، وعن ذلك يقول ابن الأثير:" لما ملك المولى الشهيد(يقصد عماد الدين زنكي) البلاد كان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وتضاعفت سطوتهم، وعلا شرهم، واشتدَّ بطشهم، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم، وضعف أهلها من كفِّ يتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، وركبوهم بالتبار والتباب، واستطار في البلاد شرر شرهم، وعمّ أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم،..."،[1] وعليه فإن موازين القوى وفق ما يذكر ابن الأثير كانت راجحة لكفة الصليبيين، وأن أمام عماد الدين تحد كبير وجب عليه مواجهته، فكانت سياسته الداخلية بداية النضال ضد الوجود الصليبي.

بعد تولي عماد الدين زنكي حكم الموصل وحلب أنفق الكثير من حياته في خدمة المقاومة الإسلامية، حيث عرف سجل انتصاراته أولى الصفحات حين انتهز فرصة اختلال الأحوال بأنطاكية سنة 524هـ/ 1130م فخرج على رأس جيوشه للجهاد، فعسكر أمام حصن الأثارب[2] المتاخم لأعمال حلب، فاشتبك مع حاميتها في قتال عنيف، انتهى بسقوط الحصن ومصرع العديد من الجند الصليبية،[3] ليواصل بعد ذلك زحفه نحو الغرب إلى غاية بلوغه قلعة حارم[4] الّتي هادنه أهلها، وبذلوا له نصف دخلها، حتى لا يتعرض لهم، فأجابهم إلى ذلك.[5]

كان لتلك الانتصارات الأولى التي حققها عماد الدين زنكي أثر بالغ في نفوس الصليبيين وحتى المسلمين، فعن الأوائل يقول ابن الأثير:" وضعفت قوى الكافرين وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع"،[6] وأما بالنسبة للمسلمين فقد كانت النتيجة عكسية تماما حيث يقول بن الأثير عنها:"

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص32.

(2) هو من أمنع القلاع الصليبية المتاخمة لمدينة حلب، حيث ظل هذا الحصن يشكل عاملا من عوامل الضغط الصليبي على المدينة، فكان أهلها يلاقون الكثير من الضرر والضيق من هذا الحصن، ويعتبر آخر شيء على حلب، ابن الأثير، الكامل، 662/10،

(3) أبو الفدا، المختصر، 3/3، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص39-42، أرنست باركر، المصدر السابق، ص155-156.

(4) حارم: حصن حصين وكورة جليلة اتجاه أنطاكية، طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة و ثلاثون دقيقة، بناها الوم لتكون حصنا يحمي مواشيهم من غارات العرب، وقد أخذها منهم المسلمون في فترة الحروب الصليبية، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 3/ 199، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 1/ 55- 56.

(5) أبو شامة، الروضتين، 78/1.

(6) ابن الأثير، الكامل، 663/10.

وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد، وأعلنت في الحاضر والباد". [1]

على أن جهود عماد الدين في مواجهة الصليبيين قد شغلت بالصراع الداخلي الذي نشب في منطقة الجزيرة وشمالي العراق، بين الأمراء السلاجقة من جهة وبين الخلافة العباسية والسلطان السلجوقي من جهة ثانية، [2] حيث لم يستطع أن يقف معزولاً عن تلك الأحداث ليقينه بأنَّ أي جُهدٍ في مواجهة الصليبيين لن يكون له معنى إلاَّ إذا كانت الجبهة الداخلية على قدرٍ من التوحد والاستقرار، على أنَّ ذلك الصراع قد خَفَّت حدَّته سنة 531هـ /1137م، [3] ممَّا جعل عماد الدين يعود إلى إكمال مسيرة الجهاد ضد الصليبيين، فأحرز عليهم أولى الانتصارات بعد تلك المحنة بانتزاع قلعة بعرين (أوبارين) [4] سنة 531هـ/ 1137م رغم توحُّد الأمراء الصليبيين واستنجاد ريموند صاحب طرابلس بفولك ملك بيت المقدس، وكذا بأميري الرها وأنطاكية، إلا أن عماد الدين ألحق بالفرنجة هزيمة قاسية أُسر على إثرها العديد منهم، ومن بينهم ريموند أمير طرابلس. [5]

لم تتوقف جهود زنكي المشرفة عند هذا الحد بل واصل عمله بغية توحيد الجبهة الإسلامية فاستولى على معرَّة النعمان وكفر طاب وغيرها من البلاد الواقعة بين حلب وحماه،كما سعى إلى ضَمِّ دمشق إلى حاضرة نفوذه فهاجمها سنة 534هـ /1139م، غير أن استنجاد نائب أتابكها معين الدولة أنر بالصليبيين، حال دون تمكن زنكي من ضمها للجبهة. [6]

وعلى أية حال فإنَّ كُلَّ ما حققه زنكي إلى غاية سنة 534هـ/ 1139م، لا يمكن أن يقارن بما حققه بعد ذلك، وذلك لأنَّ الصليبيين لا يزالون محافظين على إماراتهم التي أسسوها في

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص42.

(2) ابن الأثير، الكامل، 11/ 35-46.

(3) ابن الأثير، الكامل، 11/47-48، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 406-407.

(4) كانت هذه القلعة من أمنع معاقل الصليبيين وأحصنها، حيث اتخذها الصليبيون قاعدة يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص وحلب، أنظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص407-408، ابن الأثير، الكامل، 51/11، إلاَّ أنَّ أبا شامة يرى بأن فتح بعرين كان في سنة 524هـ/ 1130م، الروضتين، 87/1، وقد تسلم عماد الدين زنكي القلعة من أهلها مقابل خمسين ألف دينار، وذلك بعد أن سمع بوصل إمدادت الصليبيين من الجيوش، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 408، ابن الأثير، الكامل، 52/11.

(5) أبو شامة، الروضتين، 1/ 87-88، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 100.

(6) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 161-162.

حملتهم الصليبية الأولى، فإنْ أراد عماد الدين منح قيمة لانتصاراته أمام المسلمين، وكذا لإبراز قوته للصليبيين فقد وجب عليه استعادة تلك الإمارات منهم، وعليه فقد كانت إمارة الرها هدفه المنشود.

كانت إمارة الرها تشكل خطرًا كبيراً على المسلمين، لموقعها بين العديد من الإمارات الإسلامية، فكانت عائقًا حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها لصالح خصوم عماد الدين من الأمراء المسلمين في المنطقة، كما أنّها كانت تُمثِّل قاعدة للصليبيين في غاراتهم على أملاك المسلمين في بلاد الجزيرة،[1] ولهذا فقد كان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية.[2]

سعى عماد الدين إلى استعادة الرها بشتى الطرق، حتَّى وإن كانت بالحيلة، فعماد الدين رأى بأن مسيره إلى الرها مباشرة سيدفع بالفرنجة إلى التوحُّد ضده، وبالتالي إحباط حملته، فاتجه إلى ديار بكر مُوهمًا صاحب الرها (جوسلين الثاني الذي كان بتل باشر) بأنَّه مُنشغلٌ عنه بإخضاع حليفه صاحب ماردين قر أرسلان، فتمكَّن عماد الدين من الاستيلاء على العديد من القلاع في ديار بكر،[3] أما صاحب الرها فلم يكن بإمكانه الانشغال عن حليفه أمير ماردين فخرج بجيوشه لمساعدته في رد حملة عماد الدين،[4] تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة.[5]

لما سمع عماد الدين بتحرك جوسلين من الرها، عقد الصلح مع الأراتقة وسار إليها،[6] وفرض عليها حصاراً دام أكثر من ثمانية وعشرين يومًا، أرسل فيها لأهل المدينة يعرضُ الأمان مقابل تسليمها إيَّاه، لكنَّ زعماء المسيحيين رفضوا عرض زنكي أملاً في وصول نجدات الأمراء الصليبيين،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 11/98-100، أبو الفدا، المختصر، 3/7، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/275.

(2) ابن الأثير، الكامل، 11/99، .Runciman: vol II, p 235، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص436.

(3) ابن العديم، زبدة حلب، 2/ 276- 277.

(4) .Runciman: vol II, p 235، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 167.

(5) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، 168.

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 437-438.

ممَّا دفع بعماد الدين إلى تشديد الهجمات عليها حتى سقطت في حوزته، في 16 جمادى الآخرة 539هـ/23 ديسمبر 1144م.[1]

كان لانتصار عماد الدين زنكي المظفَّر على صليبيي الرها الأثر البالغ في خضوع منطقة شرق الفرات للسيطرة الإسلامية، حيث أنَّه وباستعادة الرها تمكَّن من استرجاع العديد من القلاع والأقاليم المجاورة للمدينة والّتي كانت تحت السيطرة البيزنطية كسروج[2] والبيرة[3] وغيرها.[4]

واصل عماد الدين زنكي سياسيته في تقويض الوجود الصليبي في بلاد المسلمين، منذ استعادته للرها وإلى غاية تعرضه للاغتيال على يد أحد غلمانه، وذلك في ربيع الثاني 541هـ/سبتمبر 1146م،[5] لتنتهي بذلك صفحة مشرقة في تاريخ المقاومة الإسلامية على يد هذا البطل الذي قيل بأن مقتله كان بمثابة قتل المسلمين جميعًا.

2-1-3 نورالدين محمود ومواصلة مسيرة الجهاد ضد الصليبيين (541هـ- 569هـ/ 1146م-1174م)

بوفاة عماد الدين زنكي رجل المقاومة الإسلامية في بلاد الجزيرة والشام، انقسمت إمارته إلى قسمين، سيطر فيها الابن الأكبر سيف الدين غازي على الموصل، أمَّا أخوه نورالدين فقد تولَّى حكم حلب، فيما وُلِّي الابن الثالث نصير الدين حكم حرَّان التابعة لنورالدين، في حين بقي الابن الرابع قطب الدين في رعاية أخيه غازي بالموصل،[6] وقد كان من أثر وفاة عماد الدين أن سعى جوسلين الثاني لاستعادة الرها الّتي انتزعها منه عماد الدين في وقت سابق، حيث أرسل إلى أهلها

---

[1] ابن العديم، زبدة حلب، 2/ 277-279، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 94، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، 2/ 606.

[2] سروج: بلدة قريبة من شمال حران في ديار مضر ببلاد الجزيرة، حسنة حصينة، كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب، طولها ثلاث وسبعون درجة وعرضها سبع وثلاثون، أنظر، ياقوت، معجم البلدان، 5/ 42، البكري، معجم ما استعجم، 737/3، الاصطخري، المسالك والمالك، ص 55، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 101.

[3] البيرة: قلعة حصينة على جبل مشرف على الفرات من شرقيها على الطول مائي، لها مما يلي الفرات حائط ممتد، ومما يلي البر سور وأبرجة طولها اثنتان وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون، ابن شداد، الأعلاق، 120/3.

[4] ابن الأثير، الكامل، 102/11، ابن واصل، مفرج الكروب، 96/1 ، أبو شامة، الروضتين، 103/1، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 106/3.

[5] أبو شامة، الروضتين، 107/1، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 444، ابن الأثير، الكامل، 110/11، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 278/5 ، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 183.

[6] البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 191-192، ابن الأثير، الكامل، 112/11-113، الحويري، المرجع السابق، ص 94.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سنة 541هـ/1146م يُحرِّضهم على العصيان وتسليمِ المدينة إليه فأجابوه إلى ذلك، وسار إليها واستعادها،[1] لتكون هذه الحادثة اختبارًا حقيقيًا لخلفاء عماد الدين في الحفاظ على ما حققه والدهم، وبالفعل فإن سيف الدين غازي أمير الموصل ونورالدين محمود صاحب حلب لم يقصرا في نجدة الرها وسارا إليها بجيوشهما فنجحوا في استردادها بعد قتال عنيف لقي فيه الصليبيون والأرمن هزيمة فادحة، حيث اعتبر ابن الأثير استعادة الرها بمثابة فتح ثان.[2]

أصيب الصليبيون بصدمة عنيفة بعد سقوط الرها في أيدي المسلمين من طرف عماد الدين واستعادتها من جوسلين عقب تسليم أهلها المدينة له، فأرسل على إثر ذلك جوسلين إلى البابا في أوروبا لوجين الثالث يستنجده، ويطلب منه إنفاذ حملة تُمكِّنه من استعادة البلاد المنتزعة منه، فكان ردُّ البابا إيجابيًا بعد أن وقف على ما يكتنفُه صليبيو الشام من ضعفٍ، فسيَّر حملة صليبية ثانية إلى بلاد الشام سنة 543هـ/ 1148م بقيادة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا.[3]

غير أن مهمة هذه الحملة الَّتي سعى من خلالها جوسلين إلى استعادة الرها قد مالت عن هدفها، ودخلت في دوامةٍ من المصالح المتضاربة بين قادة الصليبيين في بلاد الشام، حيث سعى ريموند صاحب أنطاكية إلى توجيه هذه الحملة ضدَّ حلب للانقضاض على قوة نورالدين فيها والَّتي ظلَّت تُهدده في الكثير من المرَّات، أمَّا أمير طرابلس ريموند فقد سعى إلى تسخير الحملة لاستعادة قلعة بارين التي كانت خاضعةً لنفوذه، في حين أن جوسلين الثاني أمير الرها فقد كان يرى أنَّ واجب الحملة هو استعادة مدينة الرها من سيطرة نورالدين، غير أن تأثير مملكة بيت المقدس على قادة الحملة جعلتها تتوجه صوب دمشق لضمِّها لممتلكات المدينة المقدسة نظرًا لأهمية دمشق العسكرية والاقتصادية، على الرغم مما كان يربط دمشق بالفرنجة من علاقات صداقة قديمة.[4]

لم تتمكن الحملة الصليبية الثانية من تحقيق هدفها في الاستيلاء على دمشق، وذلك لاستنجاد صاحبها معين الدولة أنر بكل من نور الدين صاحب حلب وسيف الدين غازي صاحب الموصل،[5] اللذين لم يتوانا في تقديم المساعدة له، عارفين بأن سقوط دمشق سيكون له أبعادٌ خطيرة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 114/11.

(2) ابن الأثير، الكامل، 114/11، أبو شامة، الروضتين، 125/1-126، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 95/3.

(3) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 147، الحويري، المرجع السابق، ص 100-102.

(4) Runciman: vol II, p273، حامد غنيم، المرجع السابق، ص 272-273.

(5) الحريري، الإعلام، ص 26، ابن الأثير، الكامل، 129/11-130، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، 463-465.

على الجبهة الزنكية في شمال الشام والجزيرة، فدخلت الجيوش الصليبية مع أهل دمشق في قتال عنيف أبان فيه الدماشقة بسالةً كبيرة جعلت الصليبيين يفقدون الثقة في الاستيلاء عليها، كما أنَّ تهديد معين الدولة أنر القوات الصليبية بقرب وصول قوات سيف الدين ونورالدين عجَّل برحيلهم عن دمشق، حيث يقول عن ذلك ابن القلانسي:" وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى جهادهم، والمسارعة إلى استئصالهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحلول الدمار، وأعطوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها، والهوَّة الَّتي ألقوا بأنفسهم إليها، غير الرحيل..."[1]

كان لفشل الحملة الصليبية الثانية أثرٌ بالغ على الوجود الصليبي في بلاد الشام والجزيرة، ذلك أن الصليبيين قد أحسُّوا بأن المسلمين الذين وقفوا في مواجهتهم، ليسوا كأولئك الذين قابلوهم أيام الحملة الصليبية الأولى، فقد أخذت موازين القوى بين الجبهتين تتأرجح، بعدما كانت مائلة كل الميل لصالح الجبهة الصليبية.

لقد جعلت الظروف من نورالدين رجل تلك الفترة من تاريخ الصراع الإسلامي- الصليبي بدون منازع، فجهود والده عماد الدين في تصفية منطقة الموصل وشمال الجزيرة من الوجود الصليبي، قد دفع بحلب إلى أن تكون مركز المقاومة الإسلامية بغية استعادة الممتلكات الإسلامية في بلاد الشام،[2] فكان على نورالدين تحمُّل العبء الأكبر في تلك المرحلة من الصراع.

واصل نورالدين جهوده في مقاومة الصليبيين ببلاد الشام بعد تمكُّنه من استعادة الرها من جوسلين وكذا رد الحملة الصليبية الثانية عن حصار دمشق، فوجَّه بعد ذلك نشاطه نحو أنطاكية الَّتي التقى فيها بأميرها ريموند دي بواتيه في معركة يُغرى Yoghra سنة 543هـ/ 1149م، فألحق به هزيمة مريرة، وأرسل من الغنائم الكثيرة والأسرى التي ظفر بها إلى كل من أخيه سيف الدين غازي، والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (530هـ- 555هـ/ 1136م- 1160م) وللسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه.[3]

بعدما حققه نورالدين محمود على حساب أمير أنطاكية، سعى جاهدًا لإخضاع الإمارة لسيطرته، إذ استطاع بذلك الاستيلاء على العديد من الحصون التابعة لها كحصن حارم وحصن

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص465.

(2) حامد غنيم، المرجع السابق، ص186.

(3) ابن الأثير، الكامل، 134/11، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 460-461، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 57/1.

إنب،[1] هذا الأخير الذي وقعت فيه معركة كبيرة بين قوات نورالدين وقوات ريموند أسفرت عن مقتل هذا الزعيم الصليبي وكان ذلك في 21 صفر 544هـ/ 29 جوان 1049م، فكان من نتيجة ذلك أن ساءت الأحوال بأنطاكية، فعمل نورالدين على استغلال الفرصة لإخضاع ما تبقى من حصون الإمارة، فاستولى على حصن أفامية في ربيع الأول 544هـ/جويلية 1149م، وحين علم نورالدين بمجيء الإمدادات الصليبية من مملكة بيت المقدس وطرابلس رفع عنها الحصار.[2]

وعلى أية حال فإن ما حققه نورالدين على مستوى الجبهة الإسلامية في شمال الشام وحتى في بلاد الجزيرة من خلال تصفيته لما تبقى من إمارة الرها،[3] فقد أسهم بشكل كبير في حركة المقاومة الإسلامية التي نمت من مرحلة البذرة إلى مدِّ جذورها في العديد من الأقاليم الإسلامية.

غير أن أهم عمل قدمه نورالدين خدمة للمقاومة الإسلامية هو تحقيقه الوحدة التي طالما سعى أسلافه إلى تحقيقها مع دمشق، حيث أنفق الكثير من الوقت والجهد بغية تحقيق ذلك الهدف، رغم أن حكام المدينة مسلمون وليسوا إفرنج، ولعلَّ رغبة نورالدين في حقن دماء المسلمين وتجنب المواجهة العسكرية مع أهل دمشق، الذين كانت تربطهم عهود تحالف مع صليبي مملكة بيت المقدس، هو السبب في إطالة مدة تحقيق تلك الوحدة مع الجبهة الإسلامية في حلب،[4] إلاَّ أنَّ ما يدهش المتتبع لأحداث تلك الفترة هو استمرار حكام المدينة في تحالفهم مع مملكة بيت المقدس رغم سعي هذه الأخيرة إلى توجيه الحملة الصليبية الثانية للاستيلاء عليها.

ومهما يكن من أمر فإن رغبة نورالدين في ضمِّ دمشق لحوزته دون وقوع مواجهة عسكرية بين المسلمين، دفعه إلى استخدام الحيلة مع حاكمها مجير الدين أبق[5] الَّذي تولاها بعد وفاة معين

---

(1) كانت معركة إنب 543هـ/ 1149م وحارم 559هـ/ 1164م متشابهتين من حيث المنطقة المفتوحة التي تمتا فيها، ممَّا أكسب طابعهما الحسم، ففي الأولى سقطت كل من حارم وأفامية في يد نورالدين، رغم أنَّ الصليبيين استردوا حارم من يد نورالدين عام 552هـ/ 1157م، فقد خسروها مرة أخرى عقب انتصار نورالدين عليهم خارج أسوارها في عام 559هـ/ 1164م، ومنحه ذلك النجاح بانياس أيضاً، كما أن أنطاكية بعد هاتين الهزيمتين لم تعد قوة عسكرية ذات شأن، أنظر: كمال بن مارس، العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، ص 97.

(2) ابن الأثير، الكامل، 144/11، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 473، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 284/5. الأصفهاني، تاريخ آل سلجوق، ص207.

(3) الحويري، المرجع السابق، ص 107.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص480.

(5) سعى نورالدين إلى إظهار المودة لمجير الدين أبق، كما عمل جاهدا على بث نار الفتنة بينه وبين أمراءه، فكان يبعث برسائل من حين إلى آخر لمجير الدين يخبره بأنه تلقى عروضا من أمراءه للتدخل ضده، لكنه رفض للمودة التي كانت بينهما، مما دفع بمجير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدولة أنر،[1] وقد تحقق لنورالدين ذلك الهدف في صفر 549هـ/ أفريل 1154م، بعد تسليمها له من طرف حاكمها مجير الدين.[2]

ولا ننسى في هذا الصدد أن ننوه بالدور الكبير الذي لعبه أسد الدين شيركوه في جانب نورالدين وكذا أخوه نجم الدين أيوب في جانب دمشق، الّذين كانا لهما دورٌ كبير في تحقيق الوحدة بين المنطقتين،[3] فكان لذلك وقع في تبوؤهما مكانة سامية لدى نورالدين، وفي المقاومة الإسلامية فيما بعد، خاصةً بعد ضمِّ مصر إلى الجبهة الإسلامية واعتلاء بنو أيوب الحكم فيها بعد الفاطميين، حيث برزت جبهة مقاومة أخرى في الجنوب من الشام تولى القيادة فيها صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، فدخل بذلك الصراع الصليبي- الإسلامي مرحلة جديدة، كان إقليمها جنوب الشام، وبطلها صلاح الدين الأيوبي بدون منازع.

2-2 جبهة مصر وفلسطين: الأيوبيون على خطى الزنكيين في مقاومة الصليبيين

2-1-1 ضم مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية بالشام والجزيرة

منذ تحقيق نورالدين محمود للوحدة مع دمشق وضمان وجود جبهة إسلامية في شمال الشام والجزيرة، رأى أنه من الضروري ربط هذه الجبهة بأخرى في الجنوب حتَّى يكتمل الطوق البري على الصليبيين وحصرهم في الساحل الشامي، بُغية تقليص نفوذهم وإخراجهم بعد ذلك من ديار المسلمين.

على أنَّ رغبة نورالدين تلك، اصطدمت بواقع مصري تحت سلطة فاطمية، لم يبرز لها أثر في حركة المقاومة الإسلامية، بقدر ما كان لها دور في إضعاف المسلمين بالتحالف ضد أعدائهم في كثير من المواضع، وكما أشرنا سابقا فإن الأوضاع التي ميزت مصر في العهد الفاطمي سواء في علاقاتها مع القوى الإسلامية المجاورة لها، أو حتَّى على مستوى البلاط الفاطمي نفسه، لم تكن بأي حال من الأحوال لتمكِّنها من المساهمة في حركة المقاومة الإسلامية.

=الدين إلى التخلص منهم ومصادرة أملاكهم، حتى أنه حين قدم إليه نورالدين للاستيلاء على المدينة وجد نفسه وحيدا أمام قوات نورالدين، أنظر: الحويري، المرجع السابق، ص 113.

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 286، ابن الأثير، الكامل، 197/11.

[2] ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص504-505.

[3] كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 161.

ففي الفترة التي سبقت ضمّ مصر إلى الجبهة الإسلامية بفضل نورالدين محمود، وقيادة صلاح الدين لحركة المقاومة فيها، قد عرف البلاط الفاطمي أقصى مراحل الصراع بين الوزراء الفاطميين، في حين لم يكن للخليفة الفاطمي معهم حكم على حد تعبير ابن الأثير[1]، وهو ما فتح باب الصراع بين الصليبيين ونورالدين للسيطرة عليها لتدعيم مناطق نفوذهما،[2] فقد حدث في رمضان 558هـ/أوت 1163م أن سار أبو الأشبال ضرغام بن عامر إلى القاهرة متحدياً الوزير شاور السَّعدي، الذي كان يتولَّى الصعيد قبل هزمه للزريك بن الصالح طلائع وتولِّي الوزارة في البلاط الفاطمي.

تمكَّن ضرغام من إلحاق الهزيمة بشاور، مما اضطر هذا الأخير إلى الاستنجاد بنور الدين في دمشق[3] وطلب منه إرسال عساكر معه إلى مصر ليعيده إلى منصبه، مقابل الاعتراف بسيادته على المناطق الواقعة على التخوم، وأن يؤدِّي له جزية سنوية مقدارها ثلث خراج مصر.[4]

وجد نورالدين في ذلك العرض فرصةً لضمِّ مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية، وتحقيق بعض النقاط الإيجابية في صراعه مع الصليبيين، فهدَف من خلال ضمِّها إلى التمكين للسنة على حساب الشيعة وبذلك إنهاء الانقسام المذهبي الذي كان مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، كما أنَّ استيلاءه على مصر سيمكِّنه من استخدام أسطولها البحري ضد السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين، الأمر الذي يترتب عليه قطع خطوط مواصلاتهم مع أوروبا الغربية، إضافة إلى خلق طريق تجاري، تخرج منه تجارة دمشق، بحيث لا يمرّ عبر أراضي الصليبيين.[5]

أرسل نور الدين في جمادى الثانية 559هـ/أفريل 1164م، أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب على رأس جيش إلى مصر، تمكَّن من هزم ضرغام وأعاد منافسه شاور إلى منصبه،[6] إلاَّ أنَّ هذا الأخير تنكَّر لوعوده التي قطعها على نورالدين، حيث يحدثنا عن ذلك ابن الأثير فيقول:" وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه، وعاد عن ما كان

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 142/11، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 313، ابن عماد الحنبلي، شذرات، 177/4.

(2) حامد غنيم، المرجع السابق، ص 213-216

(3) ابن الأثير، الكامل، 290/11، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 263/5، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 43.

(4) ابن الأثير، الكامل، 298/11-299.

(5) محمود محمد الحويري، بناء الجبهة، ص 130- 131، سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 15- 16.

(6) أبوشامة، الروضتين، 332/1، ابن الأثير، الكامل، 299/11

قره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضًا، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام..."،[1] بل أنَّه توجه إلى الصليبيين يستصرخهم على أسد الدين شيركوه وابن أخيه، وهي الفرصة التي طالما انتظرها الصليبيون لمدِّ نفوذهم إلى الديار المصرية، فيقول عن ذلك أبو شامة:" فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نورالدين إن ملك مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها"[2] فقاد أملريك عموري ملك بيت المقدس رجاله إلى الديار المصرية في رمضان 559هـ/ أوت 1164م،[3] مما جعل قوة نورالدين والقوة الصليبية المدعمة من الفاطميين في مواجهة مباشرة حول ضمِّ مصر.

فور وصول عموري الأول إلى مصر، اتصل بشاور واتفقا على حصار شيركوه في بلبيس[4] – التي اتخذها قاعدة له بعد غدر شاور–، وبعد حصارٍ دام ثلاثة شهور، دافع خلالها شيركوه عن بلبيس، تَمَّ الاتفاق بين شيركوه وعموري في ذي الحجة من نفس العام/أكتوبر 1164م على مغادرة مصر، بعد أنِ اتضح لشيركوه أنَّ الموقف لمْ يعُد في صالحه، لأنَّ المؤن المتبقية لديه أوشكت على النفاذ، فضلاً عن تفوق الجيوش الصليبية– الفاطمية في العدد، أماَّ عموري الأول فقد حرص على الانسحاب من مصر لأنَّ نورالدين انتهز فرصة تغيبه في مصر وشدَّد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام وخاصة قلعة حارم، لإرغامه على رفع الحصار عن شيركوه.[5]

توالت أحداث ذلك الصراع بين نورالدين من جهة والصليبيين والفاطميين من جهة أخرى على أرض مصر، حيث عاود نورالدين تسيير حملة ثانية على الإقليم في ربيع الأول 562هـ/جانفي1162م، أين عاود شاور الاتصال بالصليبيين لردِّ الحملة، فكانت نتيجة أحداثها، انسحاب كل من عموري الأول وشيركوه عن مصر للمرة الثانية، على أنَّ مواصلة شاور الاستعانة بالصليبيين في رد حملات نورالدين قد أبرق لهم مدى ضعف الجبهة المصرية، وصاروا يتطلعون للاستيلاء عليها بدل مساعدة الفاطميين.[6]

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 299/11.

(2) أبو شامة، الروضتين، 335/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 347/5.

(3) حامد غنيم، المرجع السابق، ص 218.

(4) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت، معجم البلدان، مج1، 376/2.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 121– 122، أبو شامة، الروضتين، 335/1– 337.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، 1/ 149، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 132.

كان لعزم ملك بيت المقدس على ضمِّ مصر إلى الممتلكات الصليبي أن دفعه إلى المسير صوب مصر على رأس حملة كبيرة من عسقلان في محرم 564هـ/ أكتوبر1168م، فاتجه صوب بلبيس الَّتي حاصرها ثلاثة أيام، ؛ اقتحمها، وأخذ في نهب أهلها وسبيهم، وتخريب بيوتهم وقتل الكثير منه بصورة بشعة[1]، ثمَّ واصل زحفه إلى القاهرة بغية الاستيلاء عليها، فما كان للخليفة العاضد أمام هذه الأخطار المحدقة بعرش الدولة الفاطمية، أن أرسل كتاباً إلى نورالدين يستصرخه ويستنجد به من الغزو الصليبي، فأجابه إلى ذلك وسيَّر حملة ثالثة إلى مصر بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في سنة 564هـ/ 1168م، غير أنَّ وصول قوات نورالدين إلى القاهرة نجدةً لها قد كان بعد انسحاب القوات الصليبية عنها بستة أيام وعودتها إلى بيت المقدس.[2]

والمهم في كل هذا أن قوات نورالدين بقيادة أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين قد عزما على تخليص مصر والإسلام من شاور[3] الذي يقول فيه ابن تغري بردي:" شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام"،[4] وفي ربيع الآخر 564هـ/ جانفي 1169م ذهب شاور إلى معسكر أسد الدين، وهناك هاجمه صلاح الدين وسجنه في خيمة، ثمَّ قتل بطلب من الخليفة العاضد.[5]

ولَّى الخليفة الفاطمي أسد الدين شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور، فكانت بذلك أولى الخطوات في تأسيس الدولة الأيوبية ومعها إكمال بناء الجبهة الإسلامية في الجنوب من بلاد الشام، غير أنَّ أسد الدين توفي بعد فترة وجيزة من توليه المنصب،[6] ما دفع بالخليفة العاضد لأخذ العهد بالوزارة لصلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان ذلك في جمادى الآخرة 564هـ/مارس 1169م.[7]

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 138، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 5/ 350.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 45، حامد غنيم، المرجع السابق، ص 225-227

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 140، أبو شامة، الروضتين، 396/1- 397.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 351/5.

(5) ابن الأثير، الكامل، 12/ 335- 336، ابن واصل، مفرج الكروب، 161/1-162.

(6) لم تدم فترة حكم أسد الدين شيركوه في الوزارة الفاطمية سوى خمس وستين يوما، توفي بعدها، فكانت وفاته في 22 جمادى الآخرة سنة 564هـ/ 23 مارس 1169م، ويذكر المؤرخون أن سبب وفاته هو كثرة تناوله للحوم المدهنة فأصيب بالتخمة والخوانيق، أبو شامة، الروضتين، 438/1، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 4/ 211.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 381، ابن الأثير، الكامل، 343/11-344، ابن شداد، النوادر، ص 50، ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات،** تحقيق حسن محمد الشماع ، بيروت، 1970، مج4، 1/ 67.

وبتولي صلاح الدين الوزارة في مصر واستئثاره بالسلطة فيها، عزم قائده نورالدين على إنهاء الحكم الفاطمي عليها، فأمره بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566هـ- 575هـ/ 1170م- 1180م) تحقيقًا لوحدة العقيدة الإسلامية، وقد اعتذر صلاح الدين لقائده خوفا من قيام المصريين بثورة ضدَّه، لكن نورالدين عاد وألزمه بذلك، حيث يقول في هذا الصدد ابن واصل:"كان العادل نورالدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وأنه لم يبق لهم منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة العباسي، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك، لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نورالدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه إلزامًا لا فسحة فيه..."[1] فأمر صلاح الدين الخطباء في القاهرة والمدن المصرية بقطع الخطبة على الخليفة العاضد الفاطمي في أول جمعة من محرم 567هـ/ 10سبتمبر 1171م، وإقامتها للخليفة العباسي، ففعلوا ذلك، ولم يجد صلاح الدين صعوبة في تغير تبعية مصر من الفاطميين إلى العباسيين، لينتهي بذلك عهد الدولة الفاطمية التي عمرت قرنين وسبعين عاما من الزمن.

2-1-2 صلاح الدين وإعادة بناء جبهة المقاومة الإسلامية (564هـ- 589هـ /1169م- 1193م)

لم يكن من اليسير على صلاح الدين خلال السنوات الأولى الَّتي تولَّى فيها حكم مصر، تأسيس جبهة مقاومة إسلامية ضدَّ الوجود الصليبي في الساحل الشامي، فقد واجه العديد من العقبات التي أبطأت من دخوله في مواجهة الصليبيين بعزيمة وجدْ بغية إخراجهم من الممتلكات التي استحوذوا عليها في حملتهم الصليبية الأولى، فقد تجلت أولى تلك العقبات، عقب إسقاطه للخلافة الفاطمية، حيث بقي من أنصارها في مصر من أرادوا إعادة إقامتها من جديد، فحدثت مؤامرتين من هؤلاء، كانت الأولى سنة تولي صلاح الدين الحكم في مصر سنة 564هـ/1169م، وأمَّا الثانية فكانت سنة 569هـ/1173م،[2] وقد سعى أنصار الفاطمية إلى دفع صلاح الدين لمواجهة الصليبيين، الذين لم يتوانوا في المساهمة في هذين المؤامرتين لإبعاد الخطر الذي كان يهدد كياناتهم في بلاد الشام، حيث يحدثنا ابن الأثير عن رد فعل الصليبيين بعد تملُّك أسد الدين شيركوه لمصر

---

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، 200/1، الحويري، المرجع السابق، ص 157.

[2] ابن الفرات، تاريخه، مج4، 67/1- 68، حامد أبو غنيم، المرجع السابق،ص 245.

فيقول:" فكان إفرنج الساحل لمَّا ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك"[1]، وعلى هذا فقد سعى أنصار الفاطمية إلى شغل صلاح الدين بمواجهة الصليبيين، حتَّى يتسنَّى لهم إعادة سلطة الفاطميين على مصر.[2]

إضافة إلى هذه العقبة فقد حدث أن ساءت علاقات صلاح الدين بقائده نور الدين، ومرَّت بفترة من الفتور تحولت فيما بعد إلى شبه عداء بينهما، حيث ترجع بداية هذه الوحشة بين الاثنين إلى صفر سنة 567هـ/ أكتوبر 1171م، وذلك عندما دعا نورالدين نائبه صلاح الدين وطلب منه المسير بجيوشه إلى حصن الشوبك[3] بغية حصاره والاستيلاء عليه، فقام صلاح الدين بما أمره به سيده، وضيَّق الحصار على الحصن حتَّى كاد أن يفتحه، إلا أنَّه لما علم بقدوم نور الدين رفع الحصار ورجع إلى مصر، ثمَّ أرسل إليه كتاباً يُبيِّن له الموقف في مصر وضرورة العودة حتى لا تضطرب البلاد ويغتنم أنصار الفاطميين غيابه عنها، للاستيلاء على السلطة، كما وتحجَّج بمرض والده نجم الدين، وهو الأمر الذي أغضب نور الدين ودفعه إلى التفكير في إبعاد صلاح الدين عن مصر.[4]

وقف صلاح الدين أمام عزم قائده نور الدين بحيرةٍ كبيرة وأحسَّ بأن علاقته معه تسير إلى نفقٍ مظلم، فأخذ يستشير خواصه وأقاربه لإيجاد وسيلة تُثني نور الدين عن القدوم إلى مصر، فأشار عليه ابن أخيه تقي الدين عمر بمواجهته عسكريا، غير أنَّ والده نجم الدين أقنعه بضرورة أن يكتب إلى نور الدين كتاباً يُظْهر له فيه الولاء والطاعة، ويُحذره من مغبة مواجهة نور الدين لأنَّ ظهوره في مصر سيكون كافياً لتخلي قوات صلاح الدين عنه، وهذا ما أدركه صلاح الدين ووعاه فعلا فأجاب والده لذلك.[5]

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 143.

(2) يذكر أبو شامة عن هؤلاء أن عزمهم على إعادة بعث الخلافة الفاطمية، وتيقنهم إلى حد كبير بنجاح المؤامرة كان أن دفعهم إلى تعيين الرجل الذي سيتولى الخلافة فيها، وكذلك الرجل الذي كان سيتولى مقاليد الوزارة، أنظر: الروضتين، 564/1.

(3) الشوبك: بلد صغير، كثير البساتين وغالب ساكنيه النصارى، وهو شرقي الغور، وهو على طرق الشام من جهة الحجاز وينبع من ذيل قلعتها عينان، أحداها على يمين القلعة والأخرى عن يسارها وهي في واد من غربي البلد، وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 247.

(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 158-161، أبو شامة، الروضتين،560/1-565، ابن واصل، مفرج الكروب، 221/1، ابن الفرات، تاريخه، مج4، 1/ 184- 185.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 158- 159، ابن واصل، مفرج الكروب، 222/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 22- 23، المقريزي، السلوك، 1/ 49، أبوشامة، الروضتين، 518/1.

ظلّت العلاقة بين القائدين متوترة، رغم أنهما اشتركا في العديد من المعارك ضد الصليبيين جنبا إلى جنب، كمحاولتهما فتح حصن الكرك جنوب البحر الميت سنة 568هـ/1173م، والدليل على أن العلاقة بينهما لم تزل على حالها من الفتور أن صلاح الدين فكر في مناطق يلتجأ إليها في حالة إقدام قائده نور الدين على إخراجه من مصر، فعمل على فتح النوبة في سنة 568/ 1172م، وكذا اليمن والحجاز في السنة الموالية،[1] وفي كلام ابن الأثير عن هذا الأمر تأكيد لذلك إذ يقول:" وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم .حول إلى مصر وأخذها منهم، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التي فتحوها"[2]

أخذت تلك العقبات التي وقفت في وجه صلاح الدين تنزاح الواحدة تلوى الأخرى، ففي رمضان 569هـ/أفريل1174م نجح صلاح الدين في استئصال شأفة بقايا أنصار الدولة الفاطمية المتآمرين مع الصليبيين، بعد أن أمسك بخيوط المؤامرة واطلع على تفاصيلها، فقبض على زعماء المتآمرين وأمر بشنقهم جميعًا، وأمَّا العقبة الثانية فقد زالت بوفاة نور الدين وهو يهيئ نفسه للسير إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين، فكان ذلك في 11 شوال569هـ/ 15 ماي 1174م،[3] لتنتهي بذلك حياة رجل قضى أزيد من ثمانية وعشرين عامًا في جهاد الصليبيين، والنضال من أجل بناء الجبهة الإسلامية.[4]

ويجدر بنا الإشارة إلى أن خلافات صلاح الدين وقائده نور الدين، قد أخذت طابع السرية والتكتم، وهذا لبعد نظر الرجلين وإدراكهما بأن شيوع أي خلاف يقع بينهما سيكون له آثار سلبية على الجبهة الإسلامية الَّتي عمل عماد الدين جاهدًا على إقامتها في مواجهة الوجود الصليبي، كما ويتوجب علينا كذلك أن نوضِّح المكامن الخفية وراء صراع القائدين الإسلاميين، فنقول: بأن نور

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص 55.

(2) ابن الأثير، الكامل، 386/11- 387.

(3) ابن الأثير، الكامل، 402/11، الحريري، الإعلام، ص30، ابن شداد، النوادر، ص 56.

(4) يذكر ابن شداد عن وفاة نورالدين فيقول: "كانت وفاته رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته، عجز الأطباء عن علاجها، ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكان جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال: شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاه رحمه الله تعالى ورضي عنه"أنظر، النوادر السلطانية، ص56.

الدين كان يرى في صلاح الدين مجرد نائب عنه في مصر، وأن دور مصر لا يعدوا أن يكون ولاية من الولايات التي تمدُّه بنفقات الحرب والقوات البشرية، وأنَّ بلاد الشام هي ميدان الصراع الحقيقي بين المسلمين والصليبيين، إلاَّ أنَّ طموح صلاح الدين وهدفه لم يكن ليقف على حدود النيابة عن نور الدين في مصر، بل أنَّ تطلعاته تسمو حد إقامة دولة تحمل اسم أسرته، وتلعب دورًا مستقلاً عن الشام في مواجهة الصليبيين، ونظرًا لهذا التباين في مواقف كلا القائدين اتجاه مصر أخذت العلاقات بينهما تسير نحو المجهول، حتَّى كانت وفاة نور الدين التي أطفأت نيران صراع بدأ يشب في الأفق كان سيأتي على الجبهة الإسلامية ككل.

وبوفاة نور الدين دخلت منطقة حكمه في شمال الشام والجزيرة دائرة من الصراعات بين خلفائه، كان لزامًا على صلاح الدين التدخل لإنهائها، حفاظًا على وحدة المسلمين، ولعدم تمكين الصليبيين من الإفادة من هذه الصراعات، فقد تولَّى الحكم بعد نور الدين في حلب ودمشق ابنه الصالح إسماعيل (560هـ- 576هـ/ 1174م- 1181م) وكان غلامًا في الحادية عشر من عمره،[1] فتولَّى تدبير مُلكه الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدِّم، وقد بعث صلاح الدين إلى الصالح إسماعيل بكتاب يهنئه فيه بتوليته ويعزيه في موت والده نور الدين،[2] ويعلن طاعته له وأنَّ الخطبة ستكون باسمه، غير أنَّ بعض كبار القواد قد طمعوا في الصالح إسماعيل، وحاول كل منهم أن يسيطر عليه، حتَّى يكون صاحب النفوذ والكلمة، ولذلك فقد ظهرت أمام صلاح الدين عقبةٌ جديدة لم يكن لينتظرها قبلاً.

برز صراع بين كبار قواد نور الدين أدَّى إلى قيام مركزان متصارعان أحدهما في دمشق بقيادة ابن المقدم الذي تولَّى تربية الصالح إسماعيل، أما الثاني فكان في حلب ويترأسه شمس الدين علي بن الداية أحد أكابر الأمراء النورية،[3] وكانا كلاهما لا يثقان في صلاح الدين، ويتوجَّسان خيفة من تطلعاته، فكانت هوة الخلاف بينهم كبيرة، وليس هذا فحسب بل إن سيف الدين غازي بن عماد الدين صاحب الموصل عمل على ضمِّ العديد من البلدان في بلاد الجزيرة لنفوذه، وأنَّه سعى لضم

(1) ابن الأثير، الكامل، 405/11.

(2) أبو شامة، الروضتين، 231/1.

(3) محمود محمد الحويري، بناء الجبهة، ص 165، حامد أبو غنيم، المرجع السابق، 247.

حلب لتكون كما كانت في عهد والده عماد الدين، والأخطر من كل هذا أن مدبر ملك الصالح إسماعيل (الأمير ابن المقدم) قد ارتمى في أحضان الصليبيين وعقد معهم هدنة بغية تحصين ملكه.[1]

وعلى إثر هذه الأوضاع التي آلت إليها بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، فقد كانت الجبهة الإسلامية التي أقامها عماد الدين وابنه نور الدين، والتي أحدثت في نفوس الصليبيين رُعبًا رأوا من خلاله نهاية وجودهم في بلاد المسلمين، قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

كان على صلاح الدين أن لا يقف ساكنا أمام تدهور أوضاع الشام لعلمه بأنَّ الصليبيين سيستغلون الأوضاع فيها ويعاودوا استرجاع ما كان قد أخذه منهم عماد الدين ونور الدين، لهذا فقد سعى جاهدً إلى إنهاء ذلك الصراع وتوحيد الجبهة الإسلامية من النيل إلى الفرات، رغم ما كان يتعرض له في الجبهة المصرية من أخطار سواء من الصليبيين في الشمال أم في الجنوب من قبل المتمردين عن حكم صلاح الدين.[2]

وعلى أية حال فقد كلّلت جهود صلاح الدين في مواجهته لتلك الأخطار التي تربصت بالجبهة المصرية، كما أنهى ذلك الصراع الذي شهدته جبهة الشام والجزيرة بين كبار أمراء نور الدين، وصارت خاضعة لسيطرته، ليكْمل بذلك الطوق البري حول الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، الذي طالما سعى أسلافه إلى تحقيقه،[3]، فحقق بذلك آماله الّتي كان يعبر عنها بقوله:" لمَّا يسر الله لي الديار المصرية، علمت أنَّه أراد فتح الساحل، لأنَّه أوقع ذلك في نفسي"،[4] فأنفق صلاح الدين في سبيل تحقيق إعادة بناء الجبهة الإسلامية في مواجهة الوجود الصليبي على أرض المسلمين أكثر من عشر سنوات، وجه بعدها جهوده لمحاربة الصليبيين واستعادة ممتلكات المسلمين منهم.

2-1-3 – صلاح الدين في مواجهة الصليبيين: من حطين إلى استرداد بيت المقدس (583/ 1187م)

على الرغم من اشتغال صلاح الدين لأزيد من عقد وأربع سنوات في سبيل إعادة بناء الجبهة الإسلامية التي تعرضت للكثير من العقبات سواء في عاصمة حكمه مصر أو في بلاد الشام والجزيرة، على أنَّ ذلك لم يثنه عن القيام بواجبه في تخليص أراضي المسلمين من السيطرة الصليبية خلال تلك

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، 2/7، أبو شامة، الروضتين، 589/1.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 16– 17، ابن الأثير، الكامل، 11/ 414.

(3) **الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)**، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، 1/ 31.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 41.

الفترة، كمَّا وأنه يمكننا القول: بأن أحداث تلك السنوات التي قضاها صلاح الدين في سبيل إعادة بناء الجبهة الإسلامية كانت عاملاً مهمًا وحاسما فيما تبقى من مرحلة الصراع الصليبي- الإسلامي بعد ذلك.

فموازين القوى بين الصليبيين والمسلمين في تلك الفترة كانت متعادلة إلى حد ما، نظرًا لما شهدته كلتا الجبهتين من إضرابات داخلية،[1] فانعكس ذلك على الصراع بينهما، فتارةً يكون النصر للصليبيين كما حدث في موقعة الرملة 573هـ/ 1177م،[2] وتارةً يكون النصر حليف المسلمين كما وقع في معركة بانياس[3] 573هـ/ 1177م، الّتي قتل فيها هنفري، أحد الأمراء الصليبيين الأشداء،[4] وكذا في معركة مرج عيون 575هـ/1179م،[5] وكانت النتيجة في بعضها دون منتصر،كما وقع في ربيع الأول 578هـ/ جويلية 1182م، حين التقت القوتين الإسلامية والصليبية على مشارف قلعة كوكب الهوى، أين دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت دون نتيجة حاسمة لكليهما، وقد عرفت تلك الفترة نوعًا من الهدوء النسبي خلال بعض السنوات سببه ما كان يجري بين صلاح الدين والصليبيين من اتفاقيات هدنة غالبًا ما يتم نقضها من الطرف الصليبي.[6]

فقد حدث في 582هـ/ 1187م أن نقض البرنس رينودي شاتيون صاحب الكرك الهدنة مع صلاح الدين، وقام بالاستيلاء على قافلة كبيرة كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق، ولم يجب إلى طلب صلاح الدين بإطلاق سراح أسرى القافلة وتقديم تعويضات لهم،[7] فما كان أمام صلاح

---

(1) بالنسبة للجبهة الإسلامية فقد تحدثنا على أهم العقبات الداخلية التي اعترضت صلاح الدين عن استئناف حركة الجهاد ضد الصليبيين بعزم وجدية، أما على مستوى الجبهة الصليبية فهي الأخرى كانت تعاني من إضرابات، تجلت في انهيار ذلك التحالف الذي كان قائما بين البيزنطيين والصليبيين، كما وأن العلاقات بين الأمراء الصليبيين قد ساءت، خاصة بعد وفاة ملك بيت المقدس عموري (أملريك)، واختلافهم في تولية خليفة له، أنظر: باركر، الحروب الصليبية ص 80 – 82.

(2) ابن شداد، النوادر، ص 66، المقريزي، السلوك، 64/1.

(3) بانياس: على طرف الحولة وحدة الجبل، وهي بلدة صغيرة، ذات أشجار محمضات وأنهار، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميل إلى الجنوب والصبيبة اسم لقلعتها، وهي من الحصون المنيعة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 249، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 160، القلقشندي، صبحي الأعشى، 104/4.

(4) ابن الأثير، الكامل، 11/ 453، ابن واصل، مفرج الكروب، 73/2.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، 75/2- 77.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 81- 82، ابن الأثير، الكامل، 11/ 456- 457، الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص 185.

(7) ابن الأثير، الكامل، 527/11-528، حسن حبشي، المصدر السابق، 32/1.

الدين إلى إعلان القتال ضد الصليبيين، فأرسل إلى القوات الإسلامية في كل من حلب ودمشق والموصل والجزيرة، إضافةً إلى القوات المصرية، فتمكّنت من إحراز العديد من الانتصارات، كانت أولاها عند صفورية في أواخر صفر 583هـ/ماي1187م، ثم تلتها مدينة طبرية[1]– وكانت صاحبتها إيشف زوجة ريموند الثالث كونت طرابلس– والّتي سقطت في أيدي القوات الإسلامية في 17 ربيع الثاني 583هـ/ 26 جوان1187م،[2] لتنذر تلك الانتصارات من الجانب الإسلامي بقرب مواجهة عسكرية ضخمة يشارك فيها من الجانبين غالبية الجيوش.

كان من نتيجة سقوط طبرية دون قلعتها، ووصول أنباء ذلك إلى الصليبيين، أن جهزوا جيوشهم وزحفو بها لملاقاة القوات الإسلامية، حيث التقى الجمعان عند حطين، وبعد قتال عنيف بين الطرفين انتزع المسلمون فيه النصر على أعدائهم، وكان ذلك يوم السبت 25 من ربيع الثاني 583/ 04 جويلية1187م،[3] وقد قتل وأسر في هذه الموقعة الكثير من الصليبيين حتى أن ابن الأثير يذكر عن نتائجها بقوله: "وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنَّ هناك أسرى ومن عاين الأسرى لا يظن أنَّ هناك قتلى"[4] حتىَّ أنَّه وقع من جملة الأسرى الصليبيين، صاحب الكرك أرناط وملك بيت المقدس جاي دي لوزجنان وأخوه والعديد من الفرسان.[5]

لا شك في أن موقعة حطين كانت نقطة تحول هامة في تاريخ الصراع الإسلامي– الصليبي، فبانتصار المسلمين فيها، صارت المدن الصليبية كلها مفتوحة أمام صلاح الدين وقواته نظرًا لفقدان الطرف الصليبي فرسانه ومقاتليه، ممَّا جعل مدنه خاليةً ممن يدافعون عنها،[6] فكان لانتصار حطين في مستهل 583هـ/ 1187م بداية لانتصارات عديدة خلال هذه العام، تمكّن خلالها صلاح الدين من فتح الكثير من المدن الساحلية والقلاع،[7] أثمرت في النهاية على استرداد المدينة المقدسة من الصليبيين بعد إحدى وتسعين سنة من تملُّكها خلال الحملة الصليبية الأولى 491هـ/ 1099م.

---

[1] طبرية: وهي في الغور على ضفة بحيرة لها طولها إثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال، والجبل من غربي المدينة والبحيرة من شرقيها والجبال تدور بها وكانت طبرية قديما قاعدة الأردن، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 247.

[2] ابن الأثير، الكامل، 531/11–534، الحريري، الإعلام، ص 33، حسن حبشي، المصدر السابق، ص 32.

[3] ابن الأثير، الكامل، 534/11، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 97– 103.

[4] ابن واصل، مفرج الكروب، 193/2، ابن الأثير، الكامل، 537/11.

[5] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص80، أبو شامة، الروضتين، 82/2، ابن واصل، مفرج الكروب، 193/2، ابن الأثير، الكامل، 537/11–538.

[6] أحمد الشامي، المرجع السابق، ص 132.

[7] ابن الأثير، الكامل، 540/11.

فقد هدى تفكير صلاح الدين إلى توجيه جهود المقاومة صوب المدن الساحلية بغية استردادها، لأهمية ذلك في تضيق دائرة الحصار الإسلامي على الساحل الشامي الواقع تحت السيطرة الصليبية، فكان قبل ذلك قد توجه صوب قلعة طبرية التي استلمها من صاحبتها الكونتسية، حيث طلبت الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها مقابل تسليمها له، فأجابها صلاح الدين إلى ذلك،[1] ثُمَّ توجه بعد ذلك لإخضاع مدن الساحل ففتح منها عكّا[2] والناصرة[3] وقيسارية[4] وحيفا ليأخذ بعدها الطريق نحو الداخل حيث تمكّن من استرداد صفورية[5] ومعليا[6] والفولة[7] وسبسطية[8] ونابلس[9][10]، ولم يواجه صلاح الدين أية صعوبات تذكر في استيلائه على تلك الجهة نظرا لخلوها من المدافعين عنها، حيث كان غالبية الجيش الميداني الصليبي قد قضي عليه في حطين.

إن اشتغال صلاح الدين بإخضاع الساحل الشامي لم يكن لينسيه ضرورة السيطرة على المدن والحصون الواقعة في داخل البلاد الصليبية، فقد كان يوجه أخاه الملك العادل وابن أخيه عمر تقي الدين للاستيلاء عليها، حيث نجح في ضم تبنين[11] ومجدليابه[12]، كما واصل مسيرة إخضاع

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 538/11.

(2) عكّا: مدينة كبيرة من سواحل الشام، وداخلها عينٌ تعرف بعين البقر، وبها مسجد يُنسب إلى صالح عليه السلام وبين عكا وبين طبرية أربعة وعشرون ميلاً، ومنها إلى مدينة صور إثنا عشر ميلاً، استرجعها المسلمون من يدي الإفرنج سنة تسعين وستمائة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 243.

(3) النَّاصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ومنها اشتق اسم النصارى، ياقوت، معجم البلدان، مج4، 360/8.

(4) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعدُّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، كانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، ياقوت، معجم البلدان، مج4، 107/7.

(5) صفورية: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية، ياقوت، معجم البلدان، مج3، 195/5.

(6) معليا: من نواحي الأردن بالشام، ياقوت، معجم البلدان، مج4، 288/8.

(7) الفولة: بلدة بقلسطين من نواحي الشام، ياقوت، معجم البلدان، مج3، 6/ 448.

(8) سبسطية: مدينة قرب سميساط، محسوبة من أعمالها على أعلى الفرات ذات سور، والمشهور هي بلدة من نواحي فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان، ياقوت، معجم البلدان، 5/ 19.

(9) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، مستطيلة لا عرض لها، القزويني، آثار، ص 277، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 44.

(10) ابن الأثير، الكامل، 540/11، ابن واصل، مفرج الكروب، 202/2-203، الحريري، الإعلام، ص 35-36

(11) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور، ياقوت، معجم البلدان، مج1، 431/2.

(12) ابن الأثير، الكامل، 541/11، ابن شداد، النوادر، ص 105.

مدن الساحل فاستولى على يافا[1] وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان[2] وغزة[3] والدَّاروم،.... وغيرها من مدن الجنوب الشامي.[4]

وأمام هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين على الصليبيين، باستيلائه على أغلب مدن الساحل الشامي- ماعدا صور-، صوَّب جهوده لاستعادة بيت المقدس وإرجاعها مدينة إسلامية كما كانت قبل استيلاء الصليبيين عليها، حيث أرسل وهو بعسقلان أوامره إلى الأسطول الإسلامي بمصر للقضاء على أي سفينة صليبية في السواحل الجنوبية، كما زحف هو بقواته إلى بيت المقدس فوصلها في رجب583هـ/ سبتمبر1187م، أين وجد الصليبيين وقد أعدُّوا أنفسهم للحرب، مستفيدين من الفرصة التي أتاحها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمة المدينة بعد موقعة حطين، فحصَّنوا المدينة ونصبوا المجانيق على أسوارها، غير أن تصميم صلاح الدين على تملُّكها واستعادتها منهم دفعه إلى الأمر بالمهاجمة من الجهة الشمالية،[5] فدار على إثرها قتال عنيف بين القوتين يصفه لنا ابن الأثير بقوله:" وقوتلوا أشدَّ قتال رآه أحد من النَّاس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون"[6]

وبعد تلك الجولة من القتال العنيف، أدرك الصليبيون أنَّهم على مشارف الهلاك، فأخلدوا إلى المفاوضة وطلبوا الأمان من صلاح الدين مقابل تسليم المدينة، غير أنَّه رفض العرض قائلا:" لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعة مائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها"[7] فما كان من باليان بارزان صاحب الرملة وطرابلس- وقد كان ببيت المقدس عند حصارها

---

(1) يافا: بلدة صغيرة كبيرة الرخاء، ساحلية من الفرض المشهورة، ومدينة يافا كانت حصنا كبيرا فيه أسواق عامرة ووكلاء النجار ومينا كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين والمقلعة منها إلى كل بلد، وبينها وبين الرملة ستة أميال وهي في الغرب عن الرملة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 239.

(2) عسقلان: بلد بها آثار قديمة على جانب البحر بينها وبين غزة إثنا عشر ميلا، وبينها وبين الرملةثمانية عشر ميلا، وهي من جملة ثغور الإسلام الشامية، وهيؤ من أجل مدن الساحل، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص 239.

(3) غزة: بلدة متوسطة في العظم ذات بساتين على ساحل البحر، وبها قليل نخيل وكروم، بينها وبين البحر أكوام رمال، ولها قلعة صغيرة، اختلف في طولها والأقوى أنه ستٌّ وخمسون على ما ذكره صاحب كتاب الأطوال، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص239.

(4) ابن الأثير، الكامل، 542/11-543، ابن واصل، مفرج الكروب، 206/2. الحريري، الإعلام، ص 35-36، ابن شداد، النوادر، ص 116.

(5) ألبير شاندور، المرجع السابق، ص 230.

(6) ابن الأثير، الكامل، 547/11، حسن حبشي، المصدر السابق، 41/1- 42.

(7) ابن الأثير، الكامل، 548/11، الحريري، الإعلام، ص 36.

– أن هدد بقتل أسرى المسلمين، وحرق المدينة وتخريب قبة الصخرة، وإتلاف ممتلكات الصليبيين وأموالهم، ومواصلة الحرب ضد المسلمين حتى آخر نفس، وحينها استشار صلاح الدين رجاله فأجابوه إلى الأمان والمصالحة وتسلم المدينة دون تخريب.(1)

وبهذا استقرت شروط تسليم المدينة بالأمان لصلاح الدين على أن يفتدي الرجل لنفسه مقابل عشرة دنانير، أما المرأة فتفتدي نفسها بخمسة دنانير، وعلى كل ولد أو بنت دينارين،(2) ومنح الجميع مهلة أربعين يوما، فمن أدى الضريبة حينها سمح له بالخروج من المدينة آمنا بماله، ومن لم يؤدها أخذ مملوكًا، كما سمح للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين من البقاء في القدس كرعايا.

كان لهذا النصر الذي حققه المسلمون على الصليبيين باسترداد بيت المقدس، من أجلّ الأعمال التي قام بها قادة المقاومة الإسلامية، إذ تكمن أهمية ذلك في أن الصليبين قد فقدوا أهم إقليم استولوا عليه في حملتهم الصليبية الأولى، مما كان له أثر بالغ على باقي الصليبيين في الإمارات الأخرى، كما وأن هذا النصر كان له وقع جليل في نفوس المسلمين الذين استبشروا له، وأثنوا على صلاح الدين، لما للمدينة المقدسة من مكان في قلوبهم.

على أية حال فإن حركة المقاومة الإسلامية التي زرع نواتها حكام مدينة الموصل في بلاد الجزيرة، ثم سقاها حكام حلب ودمشق في الشام، قد تكفّل بقطف أحسن ثمارها صلاح الدين من إقليم مصر، لتكون الفترة الممتدة من حكم عماد الدين زنكي (521هـ- 541هـ/ 1127م- 1146م) مروراً بفترة حكم نور الدين (541هـ- 569هـ/ 1146م- 1174م) وإلى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين (583هـ/ 1187م) من أهم فترات الصراع الإسلامي ضد الوجود الصليبي على أراضي الإسلام.

---

(1) ألبير شاندور، المرجع السابق، ص 229- 232.

(2) هكذا عند ابن الأثير وابن واصل، فدية الطفل من الذكور و الإناث دينارين، الكامل، 549/11، مفرج الكروب، 234/2، أما ابن شداد، فيذكر أن فدية الطفل دينار واحد، النوادر، ص 82، أنظر كذلك: ألبير شاندور، صلاح الدين، ص 232.

الفصـل الثالث:

الغزو المغولي للمشرق الإسلامي ومقاومة البلدان الإسلامية له

(615هـ- 658هـ/ 1218م- 1260م)

1 – موطن المغول، أصلهم وبدايات غزوهم لشرق العالم الإسلامي

1-1 نظرة عامة عن حياة المغول وأصلهم

1-2 تكوين الإمبراطورية المغولية وبدايات زحفها على البلاد الإسلامية

2- نماذج من ردود الفعل الإسلامية على الغزو المغولي للمشرق الإسلامي

2-1 **الجبهة الخوارزمية:** الخوارزميون بوابة العالم الإسلامي في مواجهة مباشرة مع المغول

2-2 **جبهة مصر فلسطين،** المماليك ينهون قصة الغزو المغولي على العالم الإسلامي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- موطن المغول، أصلهم وبدايات غزوهم لشرق العالم الإسلامي

1-1 نظرة عامة في حياة المغول وأصلهم

1-1-1 موطنهم

تعدُّ هضبة منغوليا في شمالي صحراء جوبي، الموطن الَّذي نشأت فيه السلالة المغولية، وهي تمتد من أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي تركستان بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا،(1) فهي بذلك تشغلُ جزءاً واسعًا من وسط آسيا، وهذه الهضبة تعتبر حدًا فاصلاً بين الأقاليم الصينية الحارَّة في الجنوب والأراضي الباردة في سيبيريا،(2) كما وأنَّ الظروف المناخية في هذا الإقليم قد جعلت منه مُقفراً وصعَّبت من استقرار السكان فيه، فكان المغول كثيري الترحال.

فشتاء هذه المناطق طويلُ وقاسي البرودة، تهطل فيه الأمطار وتنخفض فيه درجات الحرارة إلى أبعد حد، إذ تصل في بعض الجهات إلى 58° تحت الصفر، أمَّا صيفها فهو قصير وحار تصل فيه درجات الحرارة أحيانًا إلى 60°، كما وأنَّ الرياح الشمالية الباردة الَّتي تهب على هضبة منغوليا عادةً ما تؤثر على الماشية وكلأها، الَّتي تعتبر مصدر الرزق الأساسي للقبائل المغولية، إضافة إلى الصيد البري، فضلاً عن موت الكثير من البشر بسبب موجات البرد تلك.(3)

وبهذا نرى بأن البيئة التي نشأ فيها المغول حتَّمت عليهم أن يعيشوا حياة رعوية، وأن يتنقلوا من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق وطيب العيش، فكانوا بذلك لا يعرفون معنى للحضارة شيئا باعتبار أن الاستقرار كان شرطًا أساسياً لقيامها، بل أن حياتهم كانت لا تخلو من الصراع والتنافس، فلا منطق بينهم إلا القوة ولا حكم عليهم إلا بالسيف.(4)

---

(1) العريني، المرجع السابق، ص 5-8، محمود سعيد عمران، **المغول وأوروبا**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ت، ص 31، مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، ص74-75.

(2) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص126، ثروت عكاشة، **إعصار من الشرق(جنكيز خان)**، دار الشروق، ط5، بيروت، 1992، ص 17- 18.

(3) الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص19-20، فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص30-31.

(4) الخالدي، المرجع السابق، ص 20، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص127. فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، ص34.

وقد ذكر العديد ممن زاروا منغوليا عن مناخها القاسي، فهذا القس وليام فريار william friar يقول بأن البرد قتل عددا كبيرا من الحيوانات، أما وليام كربيني william crapini فيذكر عن منغوليا حين زيارته لها بأ المناخ بها ليس كثير الثبات على حالة واحدة في أواسط الصيف، وأن الرعد والبرق الذي يودي بحياة كثير من الناس لا يكاد ينقطع، وأن الثلج يسقط بات كبيرة وأن أعاصير باردة الريح لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه، تهب هبوبا شديدا.[1]

وقد كان لهذا المناخ الذي يميز منغوليا أثر على فقر الغطاء النباتي، إذ أنه وفي مثل خصائص هذا المناخ لا تعدو أن تكون الحياة النباتية عبارة عن غابات سيبيرية في الشمال، تقل كثافتها كلما اتجهنا جنوبا، كما وتنمو حشائش رعوية جافة قصيرة في الوسط والجنوب،[2]وعلى ذلك فإن الشعب المغولي كان يكره الزراعة كرها شديدا لعدم معرفته بها، فعلى الرغم من أن المغول كانوا يحتلون بعض السهول الخصبة أحيانا، فإنهم لم يحاولوا زراعتها، بل كانوا يهاجرون من السهول إلى الجبال في فصل الصيف ولا يتركون هذه الجبال إلا إذا انعدم العشب فيها وأصبح من المتعذر عليهم البقاء مع ماشيتهم.[3]

يتضح لنا من خلال كل هذا بأن البيئة التي نشأ فيها المغول لم تكن لتتيح لهم الاستقرار، وإقامة حضارة كتلك التي تقع إلى الجنوب منهم والمتمثلة في الحضارة الصينية، أو تلك التي تقع إلى الغرب من موطنهم والمتمثلة في الحضارة الإسلامية، فكانت عيشتهم بربرية تتوق إلى تفنق نعيم وغضارة عيش، والتخلص من حياة التنقل جريا وراء الرزق، فسعوا إلى تحقيق ذلك بغزواتهم التي شملت معظم أراضي العالم القديم، حتى أن الصينيين القدماء أقاموا سورا عظيما لدفع غارات المتبربرين من الشمال وكان المغول منهم طبعا.

2-1-1 الأصول العرقية للمغول

جاء في شجرة الترك، بأنهم من نسل يافث بن نوح عليه السلام، ويوصلهم ذلك النسل بآدم عليه السلام، وتعد أولادهم يافث بأنهم (ترك)، ومنهم "ترك" الذي خلف أباه في حكومته، ولقب بابن يافث، وقد توفي هذا وخلف أربعة أبناء في حكومته منهم، طوطوق خان الذي خلفه

---

(1) مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، ص75.

(2) مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص75، عكاشة، المرجع السابق، ص 18- 19.

(3) العريني، المغول، ص 6.

ابنه إيليجه خان، ثم خلفه ابنه ديباقوي خان، ثم جاء من بعده ابنه قويوخان، وبعد وفاته خلفه في الحكم ابنه ألنجاخان، وقد دام ملكه طويلا.[1]

ولد لألنجاخان توأمان، أكبرهما هو تتار خان والأصغر مغل خان، فقسَّم ألنجاخان ملكه بين ولديه، واستمرت مملكتا الأخوين على وفاق، إلى أن دب بينهما نزاع في عهد إيلخان ملك المغول وسوينج خان ملك التتار، وقد أدى هذا النزاع إلى حروب بينهما انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان، غير أن المغول عادوا وتجمعوا وحاربوا التتار، فاستردوا بذلك حريتهم وسيادتهم، وصار الحكم متوارثا فيهم إلى زمن يسوكي بهادرخان والد جنكيزخان.[2]

يمكن القول بأن التتار والمغول هم من أصل واحد من جنس الترك،[3] والذي تشعب إلى قبائل عديدة، تزايدت أعدادها مع الوقت بحكم انقسامها وانفصالها عن بعضها، حاملة أسماء جديدة.[4] كقبائل: القفجاق، المركيت، النايمان، الكرايت، التتار والمغول، السلاجقة والخوارزميون، القرغيز، الأويغور والقارلوق،[5] غير أن من المؤرخين من يرى بأن التتار والمغول ليسوا تركا وإنما سادت بينهم وبين الأتراك حروب كثيرة، أدت إلى إخضاع العديد من القبائل التركية لنفوذ المغول والتتار، مما جعل العديد من المؤرخين يعتقدون أن أصلهم من الترك.[6]

وما يهمنا في هذا الصدد هما التتار والمغول، فإن الكثير من الكتاب والمؤرخين كثيرا ما يستخدمون كلمة تتار كمرادف للمغول،[7] وذلك لكون التتار كانت لهم أسبقية النفوذ على تلك الأقوام، فقد استطاعوا أن يخضعوا أغلب القبائل، وكانوا يتمتعون بشهرة واسعة وشوكة كبيرة، حيث أن قبائل الأتراك الأخرى على اختلاف مراتبهم كانوا يسمون باسمهم، فأطلق على الجميع اسم "تاتار" أو "تتر"، فيقول عن ذلك رشيد الدين الهمذاني:" إنه لهذا السبب لا زال للآن في بلاد الخطا

---

(1) ابن خلدون، العبر، 5/ 596، محمد فتحي أمين، **الغزو المغولي لديار الإسلام**، دار الأوائل للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2005، ص25.

(2) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 4/ 130-131.

(3) ويذكرهم ابن الأثير بالألف " التتار"، في حين أن النسوي يضيف لها ألفين" التاتار"، ابن الأثير، الكامل، 12/ 258، النسوي، سيرة جلال الدين، ص 71- 99.

(4) المدائني، **حملات الغزو المغولي للشرق**، دار لارماتون، باريس، 1995، ص 21- 22.

(5) رجب محمد عبد الحليم: **انتشار الإسلام بين المغول**، دار النهضة العربية، القاهرة، دتا، ص16، الصياد، المرجع السابق، ص 24-40.

(6) الخالدي، المرجع السابق، ص23-25.

(7) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، 4/ 130

والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والكلار والباشغر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب، يطلقون اسم "تاتار" على أقوام الأتراك"[1]، إلا أن ظهور جنكيزخان ودخوله في صراعات مع التتار، مدفوعا بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم، بعد تأكُّده من كونهم سبب مناوئة القبائل الأخرى للمغول وثورتهم عليه، فتمكن بذلك جنكيزخان من نزع منصب الزعامة على تلك القبائل بإخضاعها له واستئصال شأفة التتار، فأمر جنوده بقتل كل التتار حتى النساء والأطفال، بل أنه أمر بشق بطون الحبالى، ومحاربة كل من يحاول حمايتهم أو إخفاءهم.[2]

وللإشارة فإن المغول الذين عرفوا خلال أحداث التاريخ الوسيط في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كانوا عبارة عن قبائل عديدة مستقلة عن بعضها البعض تتقاتل فيما بينها أو مع جيرانها وبخاصة التتار، ومن بين هذه القبائل كانت هناك طائفة صغيرة اسمها " قيات" وتعرف باسم " بورجقين"، هذه الطائفة بعينها هي التي نشأ فيها جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية بعد توحيده لتلك القبائل.[3]

وعلى كل فإنه ورغم التضارب في أصول تلك الأقوام التي غزت العالم المتحضر في بلاد الصين والعالم الإسلامي، إلا أن طبائعهم الاجتماعية ومعتقداتهم وطبيعة عيشتهم البدوية المستوحاة من مواطن سكنهم، كانت متشابهة إلى حدٍّ كبير، فتلك الصفات هي التي كان لها الدور الأكبر في نشوب الصراعات الدائمة بينهم، ثم توجيه غزواتهم إلى الأقاليم المجاورة لهم بعد ذلك.

ولإعطاء صورة واضحة عن مصطلحي المغول والتتار الذين عرفت بهما تلك الغزوات التي قادها جنكيزخان في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على شرق العالم الإسلامي، يمكن القول: بأن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول، وبانتصار جنكيزخان عليهم أبقى على اسمهم علي أتباعه، وحتى حين بدءه الهجوم على الممالك الإسلامية، كانوا يعرفون بالتتار، كما أطلق عليهم اسم المغول، فاشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين.

---

[1] رشيد الدين الهمداني، **جامع التواريخ**، ترجمة محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، الجمهورية العربية المتحدة، دت، 58/1.

[2] الهمذاني، جامع التواريخ، 62/1-63.

[3] الصياد، المرجع السابق، ص 27. رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص16.

3-1-1 الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية للمغول

كان لبيئة المغول المقفرة في هضبة منغوليا أثر بالغ على طبيعة الحياة الاجتماعية الّتي كانوا يحيونها، حيث ظلوا دائمي التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ للماشية والأغنام، فالذين أقاموا في منطقة الغابات حول بحيرة " بايكال" ونهر " عامور" اعتمدوا في عيشهم على صيد الحيوانات في الغابات والأسماك في الأنهار والبحيرات، وأمّا الذين كانوا يقيمون في الإستبس فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه.[1]

والمجتمع المغولي كباقي مجتمعات العصور الوسطى لم يحِد على النظام الطبقي، إذ كانت كل قبيلة من القبائل المغولية مقسمة إلى ثلاث طبقات هي: طبقة النبلاء الذين كانوا يلقبون بألقاب " بادر" أي الباسل، و" توبان" أي النبيل و"ستسن" أي الحكيم، أما الطبقة الثانية فهي طبقة الـ " نوكور" أي الأحرار وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، والطبقة الثالثة هي طبقة العامة وطبقة الأرقاء.[2]

وكان لكل قبيلة من قبائل المغول رئيس يحمل لقب " نوين" Noyan تُطيعه وتأتمر بأمره، بل أنَّ كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم إلى جماعات لكل جماعةٍ رئيسها، وتدفع كلٌّ واحدة إلى النوين عددًا معينا من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم،[3] كما وأنَّ بعض القبائل الصغيرة كانت تلجأ أحيانًا إلى إحدى القبائل الكبيرة، وذلك لعجزها في الدفاع عن نفسها، فكانت حياة تلك القبائل مليئةَ بالمنازعات القبلية نتيجة العصبية التي كانوا مفطورين عليها.[4]

وأما أكلهم فغالبيته من لحوم الحيوانات على اختلافها، من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفئران،[5] أما ملابسهم فهي مصنوعةٌ من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن هناك فرق بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكان من عاداتهم أنهم لا يغيرون ملابسهم طوال فصل الشتاء، وأمّا في فصل الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر.[6]

---

(1) الصياد، المرجع السابق، ص 329، الخالدي، المرجع السابق، ص 30، عكاشة، المرجع السابق، ص 19- 20.

(2) الخالدي، المرجع السابق، ص29.

(3) مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 72.

(4) العريني، المغول، ص 38.

(5) الصياد، المرجع السابق، 330-331.

(6) القلقشندي، صبحي الأعشى، 4/ 312.

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين، وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشامانية Shamanisme، وقد ظلّوا يعتقدون بها إلى أن حلّت محلّها الديانة اللامية أو البوذية، وكان المغول وفق عقيدتهم الشامانية يعبدون كل شيء يسمو فوق مداركهم ويرهبهم ويدخل الخوف إلى أفئدتهم، فكانت لهم آلهة الشمس والقمر والبرق والرعد والنهر وغيرها.[1]

إنَّ المغول وفق تلك الطبيعة الاجتماعية لم يكن بمقدورهم إقامة نظام سياسي يكون فيه الجميع خاضعون لسلطة واحدة، فكانوا بحياتهم البدوية تلك لا يلتزمون من النظام إلا بما يعود عليهم وعلى خيولهم وأغنامهم ومواشيهم بالمنفعة، وكانت هذه الحياة نفسها تفرض عليهم نوعا من الوحدة والطاعة لرئيس القبيلة الذي يتصف بالحنكة والشجاعة والجرأة.[2]

بدأ المغول يكونون لأنفسهم كيانًا سياسيًا بفضل تيموجين، الذي اختاره رؤساء القبائل ليكون خانا عليهم، وذلك لما يتمتع به من الصفات التي يتطلبها هذا المركز، فكان الخان يجمع بين يديه جميع السلطات ويوزعها بين أعوانه المقربين، كما وأنه يحيط نفسه بأتباع مخلصين يضع فيهم ثقته ويمنحهم أحسن السبايا وأنفس الغنائم.[3]

وضع جنكيزخان بعد اعتلاءه عرش المغول قانونا (دستورا)، كان أهم مظهر نظم حياتهم السياسية، حيث اعتمد في وضعه على بعض القوانين والآداب التي كانت تحكم المغول قبلاً، ومما تعرض له هو من مؤامرات وخيانات في حروبه، فكانت عاملا في صياغة مواد ذلك القانون الذي كان يسمى بـ " الياسا"،[4] ثم أمر بتدوينها وحفظها في خزائن أمراء المغول،[5] وقد حدد هذا

---

[1] مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 82، عادل إسماعيل هلال، **العلاقات بين المغول وأوروبا**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1997، ص167.

[2] الخالدي، المرجع السابق، 37.

[3] العريني، المغول، ص 48، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص 31-32.

[4] يحدثنا المقريزي عن الياسا فيقول:" إن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان، وصارت له الدولة، قرر قواعد أثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تمم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم، وكان جنكيزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على اخباره، فصار الياسه حكما باتا بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه"، الخطط، 2/ 220-221.

[5] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 242-243، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، 249/2.

الدستور علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع، فكانت هذه القوانين مرجعا للأقوام المغولية في أمور الحكم والسياسة بعد ذلك.(1)

فرضت الحياة الاجتماعية التي كانت عليها القبائل المغولية من نزاعات حول مواطن الكلأ والمياه، أن يدرِّبوا أنفسهم على حبِّ المخاطرة ومواجهة الشدائد وأن يغرسوا هذه الصفات في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فعلَّموهم استعمال القوس والنَّشاب وهم في سن الثالثة، وكانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران وحتى ركوب الخيل، كما عملت كل قبيلة على الإكثار من أفرادها بتشجيع الزواج حتَّى تكون في قوة تسمح لها بالدفاع عن موطنها والسطو على ممتلكات القبائل الأخرى.(2)

جعلت تلك النشأة كل فرد من هؤلاء القوم رجلاً محاربًا مستعدا دائما لأي خطر، وهو السبب الذي يفسر لنا تمكُّن جنكيزخان من تحقيق انتصارات حاسمة على الجيوش التي واجهها سواء في الجنوب حيث أسرة كين الصينية أو حين واجه القوات الخوارزمية في الغرب،(3) إضافةً إلى هذا فإن تقيُّد المغول بالقوانين التي وضعها جنكيزخان جعل المجتمع أكثر تماسكًا داخليًا والجيوش أكثر تنظيمًا وعزمًا على تحقيق أهدافهم في السيطرة على جيرانهم والاستئثار بحضاراتهم.(4)

انصبّ اهتمام جنكيزخان في تكوين إمبراطوريته على الجيش لإدراكه بأنه الأساس في ذلك، فحرص على تنظيمه والإكثار من عدده، فكان الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشر والستين مُلزمون بالخدمة العسكرية وفقًا للعُرف المغولي، كما وقسَّم جنكيزخان جيشه إلى فرق كبيرة يتكون كل منها من عشرة آلاف رجل (تومان)، ثمَّ يتدرَّج هذا التقسيم إلى فرق أقلَّ في العدد، ويرأس كل فرقة قائد من القواد على أن يأتمر الجميع بأمر جنكيزخان.(5)

وبهذا فإنَّ نمط حياة القبائل المغولية الَّتي فُطروا عليها انطلاقًا من بيئتهم وعاداتهم قد كان لها أثر في تحديد دورهم على مسرح أحداث التاريخ الإنساني خلال العقد الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إلا أنَّه ومع اعتلاء جنكيزخان العرش على قبائل المغول، عرفت أوضاعهم تغيراً كبيراً، سواء على صعيد الحياة الاجتماعية السياسية وحتى العسكرية، وذلك نتيجة

---

(1) الخالدي، المرجع السابق، 38، الصياد، المرجع السابق، 338.

(2) Lamp: Genghis khan, p19، الهمداني، جامع التواريخ، ص 92.

(3) عكاشة، المرجع السابق، ص 21- 22.

(4) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 243- 244.

(5) الصياد، المغول، ص 361، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 34.

احتكاكهم بالأقوام المجاورة لموطنهم واستفادتهم من مباهج حضاراتهم، فانعكس ذلك على حياتهم العامة.

1-2 تكوين الإمبراطورية المغولية وبدايات زحفها على البلاد الإسلامية

1-2-1 جنكيزخان " إمبراطور البشر" وبداية تكوين الإمبراطورية

اقترن ذِكرُ المغول في التاريخ العام للإنسانية بشخصية تيموجين (جنكيزخان)[1]، ذلك لأنَّه قبل ظهور هذه الشخصيَّة لم يكن من المعقول أن يستقر لهؤلاء القوم كيان سياسي بتلك البلاد، وهم على تلك الحالة من الفوضى السياسية والاضطراب الاجتماعي، كما وأنَّ حالتهم تلك لم تكن لتجعلهم يساهمون في بناء الحضارة الإنسانية – إن كانوا على قدر منها–، ولهذا فقد كان يستلزم وجود شخصية قوية توحد القبائل المغولية أولاً، وتُسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك ثانيا.

كان تيموجين بن يسوجاي صاحب الفضل الأكبر في تحقيق لحمة الأمم المغولية، فقد كان والده يسوجاي بهادر زعيما لقبيلة "قيات" والعديد من القبائل المغولية الأخرى،[2] حيث ساهم في الكثير من حروب المغول مع القبائل المجاورة لهم وكذا مع الإمبراطورية الصينية، غير أن وفاته كانت لها آثار سيئة على حياة أسرته، إذ كان من أثرها أن انفضَّت تلك القبائل التي خضعت لحكم يسوجاي عن ابنه الذي كان يبلغ من العمر وقتذاك إحدى عشر سنة،[3] فعاش تيموجين مع أمه وإخوته حياة بؤس وشقاء، كان لا يأكل فيها بالثلاثة أيام والأربع، وكان يصطاد مع إخوته الذين يصغرونه سنا الحيوانات الصغيرة التي توجد في المراعي القريبة مثل، السمور والفأر البري والثعلب الأسود لأكل لحومها.[4]

وهكذا بعد عديد السنوات التي قضاها تيموجين شريدا طريدا، تتلقفه أيدي المشفقين عليه من أتباع والده، وبعد بلوغه سن السابعة عشر بدأ نجمه يلمع، واستطاع بما يمتلكه من ذكاء وحنكة في أن يجتذب إليه كبار رجال المغول من قبيلته، حتى تمكن من إحكام سيطرته التامة عليها، وليس هذا فحسب بل مكنه ذكاءه وبأسه من أن يوحد كل أهالي أقاليم آسيا الشرقية شمالي بلاد الصين

---

(1) جنكيزخان، معناها (ابن السماء) و(المحارب الكامل) باللغة الصينية، أنظر: محمد فتحي أمين، المرجع السابق، ص38، عكاشة، المرجع السابق، ص 31-35.

(2) ابن خلدون، العبر، 5/ 623، محمد فتحي أمين، المرجع السابق، ص 35. Lamp: op. cit, p25

(3) Lamp: op. cit, p26.، محمد عبد المنعم الجمل، **الدول الإسلامية في الشرق، تاريخ وحضارة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 371.

(4) عكاشة، المرجع السابق، ص 36 وما بعدها.

تحت لوائه، فتراه يستعين بالقبيلة ضد الأخرى ويتحالف مع القوي على الضعيف فيهزمه،[1] وأخيرا تربع تيموجين على عرش هذه القبائل جميعها فاختارته إمبراطورا عليها، فسمى نفسه "جنكيزخان"، أي أعظم الحكام The greatest of rulers أو إمبراطور البشر The emperor of all man ، واتخذ من "قره قورم" عاصمة لإمبراطوريته.[2] وقد كان ذلك في مستهل سنوات القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي، وبالضبط في سنة 603هـ/ 1206م.

بعد تربع جنكيزخان على عرش المغول، اتخذ لنفسه سياسة واضحة ترمي إلى إخضاع كل المتربصين بملكه، وذلك با وسع على حساب ممتلكاتهم،[3] فبدأ بالأقاليم الجنوبية أين حكام إمبراطورية كين، الذين كانوا لا يكفون عن تحريضِ القبائل المغولية ضدَّ بعضهم البعض حتى يُضعفوهم ويبقون أسيادًا في تلك المنطقة، فأراد جنكيزخان – بعد تأكده من قوة جيشه– أن يُنهي تدخلاتهم في شؤون القبائل، كما وأنَّه لم ينس ما لاقاه آباؤه وأجداده من معاملة سيئة على أيديهم، فصمّم على محاربتهم والانتقام منهم.[4]

آل حكم الأقاليم الشمالية لبلاد الصين داخل سورها العظيم لأسرة كين Kin [5] القادمة من إقليم منشوريا في الشمال، بعد أن أرغمت حكام البلاد من أسرة سونغ Sung التي بدأ الضعف يدب إليها على السماح لها بالسكن هناك، كما وأرغمت هذه الأسرة على دفع جزية سنوية لأسرة كين، فكانت بذلك البلاد الصينية موزعة بين حكام أسرة سونغ، حكام البلاد الأصليين وحكام أسرة كين المغتصبين، فكان ذلك الوضع مريحا أمام جنكيزخان لتحقيق سياسته التوسعية، كما وكانت أخبار البلاد الصينية تصل جنكيزخان عن طريق الجنود الذين كانوا يقعون في أسر قواته، فوقف على حالة الضعف التي كانت تميِّزها.[6]

---

(1) عبد القادر أحمد اليوسفي، **العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين 11م و15م**، المكتبة العصرية، بيروت، 1969، ص 190-192، عكاشة، المرجع السابق، ص 43- 44.

(2) محمد فتحي عاشور، **مصر قاهرة المغول في عين جالوت**، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص9.

(3) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 128.

(4) الصياد، المرجع السابق، ص 51.

(5) حكم بلاد الصين في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، أسرة تانغ Tang لتي انهارت سنة 295هـ/ 907م، مما أدى إلى تفتت البلاد وانقسامها، لتتوحد بعدها تحت حكم أسرة سونغ (394هـ- 521هـ/ 965م-1127م ، ثم ما لبثت أن تدهورت أحوال هذه الأسرة لتحكم بدلها أسرة كين، أنظر: حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 129

(6) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، 129-130.

؛ نهمل في هذا الصدد ما كانت تتمتع به الحضارة الصينية من ثراء وأبَّهة بهرت المغول، الذين لم يُوقفوا غاراتهم على تلك البلاد، حتّى أنَّ الصينيين بنو سورا في الشمال لردِّهم، فقد كانت تلك الحضارة عاملاً آخر حفَّز جنكيزخان وجنوده على المُضِي في تحقيق أهدافهم.

وعلى أية حال فإنَّ جنكيزخان قد شرع في غزو البلاد الصينية بدءًا بسنة 608هـ/1211م، وبعد سلسلة من الحملات دامت أربع سنوات تمكّن من إخضاعها لحُكمه، وإسقاط حكم أسرة كين عليها سنة 612هـ/ 1215م مما دفع بإمبراطورها "واي وانج" إلى الرَّحيل عن بكين والذهاب نحو الجنوب حيث أسرة سونج عدوه القديم،[1] ليتخذ جنكيزخان بعد ذلك بكين عاصمة لمستعمرته ويُعين أحد قواده عليها، ويعود هو إلى حاضرة ملكه "قره قورم".

وجَّه جنكيزخان بعد إخضاعه لأسرة كين في الجنوب أنظاره صوب الغرب، حيث يوجد أعداءه من القبائل التي لم تخضع لسيادته، والّتي لم تتوقف عن الكيد لإمبراطوريته طيلة سنوات حروبه في الجنوب، فسعى للقضاء عليهم وخاصة كشلوخان[2] الذي تبوء عرش دولة الخطا وأسَّس لنفسه دولة قوية على تخوم الدولة الخوارزمية.

وقد أوردنا سلفا خلال هذا البحث، كيف كانت علاقة الخوارزميين بكل من الخطا والمغول قبل غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي، وكيف ساهمت حروب علاء الدين خوارزم شاه ضد الخطا في ضعاف قوتهم، مما سهل على المغول إزالتهم بدون عناء يذكر، فقد سير جنكيز خان – بعد أن وطد سلطانه في شرق آسيا – لإخضاع القبائل العاصية التي دخلت في نطاق دولة كشلوخان، فأرسل قائده " سوبوتاي" لإخضاع قبائل المركيت Merkits التي انضمت إلى كشلوخان، كما أرسل قائده " شبي" Chepé للبحث عن كشلوخان وإحضاره حيا أو ميتا[3]، حيث اعتقله بعض الصيادين وسلموه للمغول الذين كانوا يبحثون عنه، فقتلوه على الفور وأرسلوا رأسه إلى جنكيزخان في عاصمته "قره قورم" وكان ذلك في سنة 615هـ/ 1218م.[4]

---

(1) Lamp: op. cit, p100-103

(2) من المصادر من يذكر هذا القائد باسم "كوجلك خان"، وهو ابن الملك نايمان، كان عدوا لدودا لجنكيز خان، وقد استمر حكمه على الخطا ما بين سنتي (607هـ- 615هـ/1211م- 1218م) أنظر: المدائني، حملات، ص 29.

(3) Lamp. op. cit, p 110. يذكر: فؤاد عبد المعطي الصياد بأن اسم القائد الذي كلفه جنكيزخان بإحضار كشلوخان، حيا أو ميتا هو "جبة نويان"، المغول، ص 56.

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 398- 399.

وبهذا الانتصار الذي حققه المغول على الخطا زادت رقعة نفوذهم، ودخل في طاعة حكمهم جميع القبائل التركية، فصارت بذلك تجاور من ناحية الغرب ممتلكات الدولة الخوارزمية، التي عمد جنكيزخان إلى .نتهم وعدم مجاهرتهم بالعداء فتميزت العلاقات بينهما في بادئ الأمر بطابع السلام، حتى أنه عُقدت بينهما معاهدة تجارية ومبادلات دبلوماسية.[1]

غير أن سير العلاقات بين المغول والخوارزميين قد أخذت منحى مخالف بعد حادثة مقتل التجار المغول في أراضي الدولة الخوارزمية،[2] لتكون سببًا مباشرا وراء إقدام جنكيزخان على غزو بلاد المسلمين والعبث بأهلها بتلك الصورة الّتي أبرزتها كتب المؤرخين المسلمين وغير المسلمين.

1-2-2 دوافع الزحف المغولي على ممتلكات الدولة الخوارزمية

اتضح لنا من خلال ما تعرضنا له سابقًا أنَّ السبب المباشر وراء إقدام المغول على غزو المشرق الإسلامي هو حادثة التجار الذين أرسلهم جنكيزخان إلى ممتلكات السلطان محمد خوارزم شاه، فكان مقتلهم على يد ينال خان حاكم ولاية أترار التابعة للخوارزميين، بمثابة الباب الذي فُتح أمام الجيوش المغولية، لتعبث بالمسلمين وديارهم بتلك الطريقة البشعة قرابة الأربعة عقود.

غير أن تلك الحادثة ما كانت لتأخذ تلك الأهمية وتتحول إلى السبب الأساسي الذي جنا على العالم الإسلامي بسبب ذلك الغزو، لولا العديد من الظروف التي هيأت أجواءه، وسمحت لجنكيزخان وخلفائه من بعده بالاستيلاء على معظم البلاد الإسلامية، فالمشرق الإسلامي من حدوده الشرقية مع المغول إلى حدوده الغربية مع البيزنطيين والصليبيين، لم يكن على حال تسمح له بمواجهة خطر الزحف المغولي.

وإن كُنَّا قد أفردنا لأحوال المشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي والصليبي فصلاً كاملاً، إلاَّ أنَّه رأينا من الضروري ربط تلك الأحوال بالظروف التي صاحبت ذلك الغزو لاستخلاص أهم الدوافع التي جعلت جنكيزخان يُقدم على ذلك دون تردد في الأول، ومن ثمَّة مقدرة هؤلاء القوم على الاستيلاء على معظم ديار الإسلام دون وجود قوة ترد ذلك الغزو ثانيا.

فبرجوعنا إلى طبيعة العلاقات السياسية بين مختلف القوى الإسلامية - خلال نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وبداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي- نجد

---

[1] الخالدي، المرجع السابق، ص 80، الصياد، المرجع السابق، ص 57.

[2] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 399- 400، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص83.

بأنها قد وصلت إلى درجة من التأزم الذي لا يمكن من خلاله ردُّ هجمات جنكيزخان، ولعلَّ أبرز هذه العلاقات تلك التي كانت تحكم الخلافة الإسلامية في بغداد بمختلف القوى الإسلامية الأخرى.

فالخوارزميون بعد أن تمكّنوا من إنهاء الحكم السلجوقي في بغداد سنة 590هـ/ 1193م،[1] بعد هزيمة طغرلبك الثالث على يد علاء الدين تكش في معركة الري، طمحوا لأن يكون لهم شأن لدى الخلافة العباسية مثل البويهيين والسلاجقة من قبلهم، كما ادعوا أحقيتهم في ما كان يتمتع به السلاجقة من حقوق في الخلافة العباسية، وطالبوا بإقامة الخطبة لهم على المنابر، غير أن ردَّ الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575هـ- 622هـ/ 1180م- 1225م) كان سلبيًا.[2]

فكان من نتيجة ذلك أن تأزمت العلاقة بين القوتين الإسلاميتين ووصلت حدًا من التوتر ترجمه علاء الدين محمد خوارزم شاه بمحاولة غزو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية،[3] وهو الأمر الذي دفع بالخليفة العباسي إلى الاستنجاد بمن يقوى على الخوارزميين، فلم يجد منها غير قوة جنكيزخان الذي ذاع صيته في تلك الفترة، لتكون هذه الخطوة من الخليفة بمثابة دعوة صريحة للمغول للقيام بتلك الحملات، حيث يشير بن الأثير إلى هذه الحقيقة بقوله:" وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عنها كل ذنب عظيم".[4]

وعلى الرَّغم من أنَّ نتيجة محاولة علاء الدين غزو بغداد قد فشلت، إلاَّ أنّها كانت عاملاً مهما في إضعاف القوة الخوارزمية الَّتي تعرضت إلى عواصف ثلجية وهي في طريقها لإسقاط الخلافة العباسية، أهلكت الكثير من جنده وعتاده ودوابه، كما تعرض الجنود الباقون لغارات الأتراك والأكراد،[5] ليكون ذلك حافزًا أمام المغول لتخطي بوابة العالم الإسلامي من جزءه الشرقي بدون عناء.

أما ثاني العوامل التي ساهمت في تهيئة أجواء ذلك الغزو فتمثل في اشتغال القوى الإسلامية في بلاد الجزيرة والشام ومصر برد العدوان الصليبي على البلاد الإسلامية واستعادة الممتلكات التي استولى عليها الصليبيون قبل قرن من الزمن، إضافة إلى صراعاتهم الداخلية سواء في البيت الأيوبي بعد

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 134/6.

(2) ابن الأثير، الكامل، 145/12.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 219/6-220، العريني، المغول، ص 111.

(4) ابن الأثير، الكامل، 440/12.

(5) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 56- 57.

صلاح الدين، أو بين الأتابكيات المنتشرة في العديد من أقاليم الدولة الإسلامية، فكانت عائقًا أمام توحد القوى في مواجهة الغزو المغولي.[1]

كما وأنَّ سوء تقدير السلاطين الخوارزميين لقوة المغول وكذا لاغترارهم بما كانوا عليه من النفوذ والشكيمة في تلك الأقاليم الشرقية، أن ساهموا في إضعاف قوة الخطا التي كانت تعتبر حاجزا بينهم وبين قوات جنكيزخان، فكان زوالها نتيجة حتمية لمجاورة المغول للممتلكات الدولة الخوارزمية،[2] التي صار عليها لزاما التعامل بحذر مع هؤلاء القوم، خاصة بعدما فعلوه مع أسرة كين الحاكمة في الأقاليم الصينية، فلو أبقى الخوارزميون على قوة دولة الخطا لخفف ذلك من حجم الكارثة التي حلّت بهم وبالمسلمين عامة.

عرفت الطائفة الإسماعيلية ازدياد نشاطها خلال تلك الفترة التي سبقت الغزو المغولي، حيث واصلوا تحقيق غايتهم في نشر المذهب الإسماعيلي، متخذين كل الوسائل في سبيل ذلك، من اغتيال لقادة المسلمين وعلمائهم السنيون،[3] إلى التحالف مع القوى الأجنبية الطامحة إلى الاستيلاء على الممتلكات الإسلامية،[4] غير أنَّ أمر هذه الطائفة قد زاد استفحاله بعد استعانة العديد من القادة المسلمين بهم في مواجهة بعضهم البعض، وهو ما عزز من سلطتهم وكان له دور في استحالة القضاء عليهم،[5] فكانوا عاملا آخر أضاف للعالم الإسلامي من الوهن والتصدع، ما يستحيل به مواجهة حملات جنكيزخان.

أمَّا على الجانب المغولي فإنَّه خلال تلك الفترة التي كان فيها المشرق الإسلامي على ذلك الحال من الضعف والانقسام والتشتت، فقد كان جنكيزخان يعيش على نَخوة انتصارات إمبراطوريته التي أسسها من على تلك الأراضي القاحلة الجرداء في منغوليا، فقد رسم جنكيزخان لدولته سياسة قوامها القسم بالطاعة والولاء للإمبراطور، وسعى إلى وضع دستور اجتماعي قوي ونظام حربي لا يقل عنه قوة، استنبطه من البلاد الصينية عند غزوها، فكانت الجيوش المغولية بذلك تتمتع بقوة يصعب مواجهتها أو الحد من تقدمها.[6]

---

(1) حامد غنيم، المرجع السابق، ص 7- 12.

(2) ابن الأثير، الكامل 168/11-170، الديار بكري، المصدر السابق، 367/2.

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 230، ابن الأثير، الكامل، 184/11 – 185.

(4) أبو شامة، الروضتين، 57/1، الحلبي، نهر الذهب، 1/ 191.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، 145/2، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 215.

(6) محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص 27- 28، عكاشة، المرجع السابق، ص97- 99.

وإن كنا قد تعرضنا إلى هذه العوامل الخمسة والتي اعتبرناها مهمة في تهيئة الأجواء لقيام أسباب الغزو المغولي على ديار الإسلام، إلا أن هناك عوامل أخرى ساهمت بشكل كبير في إضعاف المسلمين وجعلتهم غير قادرين على صد الاعتداءات الخارجية المحدودة القوة، فضلاً عن قوة المغول التي استطاعت أن تجتاح معظم أراضي العالم الإسلامي في تلك الفترة الزمنية القصيرة.

3-2-1 الاجتياح المغولي للدولة الخوارزمية

كانت حادثة مقتل التجار على يد حاكم ولاية أترار سببًا في عزم جنكيزخان زعيم المغول على الانتقام من الخوارزميين، خاصة بعد رفض علاء الدين طلبه لرأس ينال خان حاكم الولاية للاقتصاص منه وحقنا للدماء، إلا أنَّ رفض السلطان الذي أخذته العزة بالإثم،[1] كان مبررا لجنكيزخان من أجل العبور إلى ممتلكات علاء الدين خوارزم شاه بدءاً بسنة حادثة مقتل التجار، أي سنة 615هـ/ 1218م، ليتم إخضاعها في فترة وجيزة لم تتجاوز الأربع أعوام، أي بنهاية سنة 620هـ/1222م.[2]

شرع جنكيزخان في إعداد جيوشه لملاقاة أعدائه من المسلمين، فوضع خطة عسكرية محكمة، قسَّم فيها قواته على أربعة جيوش، بغية إخضاع المدن الواقعة مابين نهري سيحون وجيحون (بلاد ما وراء النهر) التي كان يسكنها أقوام من الترك والفرس والعرب،[3] فكانت خطته قائمة على أخذ المسلمين في هذه المدن على حين غرَّة، وقطع كل سبل الإمدادات إليها عبر النهر من الأقاليم الأخرى فوجه كل جيش إلى إقليم معين.[4]

عهد جنكيزخان إلى كل جيش بمهمة الاستيلاء على جزء معين من بلاد ما وراء النهر، فكانت أولاها تحت قيادة ابنيه "جحتاي " Tchagati و" أجتاي" Ogtai، وقد ألقي على عاتق هذا الجيش مهمة إخضاع مدينة " أترار"، أمَّا ثاني الجيوش فقد كان تحت قيادة ابنه الأكبر " جوجي" Djoutchi ومهمته إخضاع مدينة "جند"[5] إحدى الحصون الإسلامية الهامة على نهر سيحون، أمَّا الجيش الثالث، فقد أوكل جنكيزخان قيادته لثلاثة من كبار قواده، وكان عليه الاستيلاء

---

(1) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 78، أبو الفدا، المختصر، 3/ 121

(2) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 135.

(3) أنظر الخريطة رقم (05)

(4) المدائني، حملات، ص 31- 32، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص137-138.

(5) جَنْد: اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة آيام، تلقاء لاد الترك، ممَّا وراء النهر، قريب مننهر سيحون، ياقوت، معجم البلدان، مج2، 80/3.

على مدينتي " بنكت "[1] و"خجندة "[2] وهما من أهم المعاقل على نهر سيحون، وأمَّا الجيش الرابع فكان تحت قيادة جنكيزخان نفسه ومعه ابنه تولوي Touloui، حيث اتَّجه به إلى قلب ما وراء النهر لإخضاع أهم مدنه كبخارى وسمرقند، ويحول بذلك دون وصول جيوش علاء الدين إلى المدن المحاصرة في هذا الإقليم.[3]

وبدأ بالجيش الأول الذي توجه إلى مدينة أترار والَّتي تُعد مفتاح إقليم ما وراء النهر، فقد كان هجومه عليها عنيفًا، رغبة في الثأر من حاكمها "ينال خان"، هذا الأخير الذي سارع إلى تحصين المدينة وقلعتها وعمل على تزويدها بحامية كبيرة للدفاع عنها، فكانت النتيجة أن صمدت المدينة لمدة خمسة أشهر من الحصار الذي فرضه عليها أجتاي وجحتاي،[4] غير أنَّ سكانها فقدوا رباطة جأشهم ويأسوا من مقدرتهم على مواصلة الصمود، حتَّى أنَّ القائد العسكري للمدينة فكَّر في التسليم.[5]

وعن ينال خان العارف لمصيره في حالة استيلاء المغول على المدينة، فإنه لم يدخر جهده في الدفاع عنها دفاع اليائس المستميت، فصمد – بعد استيلاء المغول على المدينة سنة 616هـ/1219م– في قلعتها لقرابة الشهر يوقع الضربات بجنود المغول، ويُنزل بهم أفدح الخسائر، حتَّى إذا وجد نفسه محاصراً من كل جانب وسقط جنوده صرعى من حوله، قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل فتبعه جنديان مغوليان، وهو لا يملك ما يدافع به عن نفسه سوى قذفهما بالحجارة التي كانت تناوله إياها بعض النسوة.[6]

وأخيراً وقع ينال خان في قبضة المغول الذين قادوه إلى معسكر جنكيزخان، الذي كان وقتها يحاصر مدينة سمرقند، فوجدها فُرصةً سانحة للتشفي من عدوه (قاتل التجار) فعمد إلى التنكيل به،

[1] بِنْكت: قرية من قرى اشتخن من صغد سمرقند، وهي قصبة الشاش واسعة الرقعة فسيحة المنازل، منها أبو الحسن علي بن يوسف بن محمد البنكتي، كان فقيها صالحا، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 276، ياقوت، معجم البلدان، مج1، 394/2.

[2] خجندة: بلدة مشهورة من الإقليم الرابع، طولها إثنتان وتسعون درجة ونصفاً وعرضها سبع وثلاثون درجة وسدساً، وهي بما وراء النهر على شاطئ سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقا، ياقوت، معجم البلدان، مج2، 216/3.

[3] الصياد، المرجع السابق، ص 112.

[4] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 402، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 38.

[5] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 402، الخالدي، المرجع السابق، ص 79.

[6] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 403.

وأمر رجاله بأن تُصهر كميةٌ من الفضة وتُسكب في عينه وأذنيه فمات بهذه الطريقة البشعة،[1] ليفتح سقوط مدينة أترار الباب بمصراعيه أمام المغول لإخضاع كل إقليم بلاد ما وراء النهر.

سار ثاني جيوش حملة جنكيزخان على إقليم ما وراء النهر صوب مدينة "جند " بقيادة "جوجي"، حيث وصلها بعد أن استولى على الكثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، فتمكن من إخضاع كل مجرى هذا النهر تقريبا، وما إن اقتربت جيوش المغول من هذه المدينة حتى غادرها جنود خوارزم شاه تاركين لسكانها أمر الدفاع عنها.[2]

نصب المغول المجانيق حول المدينة، واستعدوا لدكِّ أسوارها ثمَّ أرسل قائد الجيش رسولاً إلى أهالي المدينة يدعوهم إلى تسليمها، فانقسم سكانها على ذلك إلى فريقين، أحدهما يرى ضرورة الدفاع عن المدينة، وأمّا الفريق الثاني فيرى بأن المقاومة لا جدوى منها ودعوا إلى التسليم فوراً، والظاهر أن الرأي الأخير كان يُناصره أكثرية سكان "جند" بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة داخل المدينة وهم يقتحمون أسوارها.[3]

أمر "جوجي" بتشديد الحصار على المدينة، حتَّى سلَّمها أهلها في صفر 617هـ/أفريل 1220م، وأُجبر سكانها على مغادرتها، فسلِم من سلَّم من أهلها وقتل من قاتل المغول، ليولِّي "جوجي" على المدن التي استولى عليها حكامًا مخلصين، ويسير هو وجنوده قاصدين إقليم خوارزم.[4]

أمَّا ثالث الجيوش التي سيَّرها جنكيزخان لإخضاع إقليم ما وراء النهر فقد توجه إلى مدينة "بنكت"، حيث تمكَّن من الاستيلاء على المدينة بعد أن سلمها أهلها، مقابل تأمينهم على حياتهم، غير أنَّ هؤلاء المغول لم يكونوا ليتقيدوا بعهود ومواثيق مع قوم ضعاف كالخوارزميين، فأمعنوا في الجند القتل والتعذيب، واختاروا من المدنيين خيرة الشباب لينتفعوا بهم في أعمالهم الحربية.[5]

توجَّه بعد ذلك هذا الجيش صوب مدينة "خجندة " إلى الجنوب من النهر، وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها، وانتعاش التجارة فيها كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم، غير أن حاكمها " تيمور ملك" غادرها إلى جزيرةٍ وسط نهر سيحون مع ألفِ مقاتل، بعد أن وقف على

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، 1/ 303، الصياد، المرجع السابق، ص 113.

(2) الخالدي، المرجع السابق، ص 79.

(3) الصياد، المرجع السابق، ص 114.

(4) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 140.

(5) الصياد، المرجع السابق، ص 115، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 140.

صعوبة الدفاع عنها لأنّها مكشوفة أمام الأعداء، فظلَّ يُحارب المغول انطلاقًا من هذه الجزيرة ببسالة وشجاعة، ويفسد كُلّ خِطط الوصول إليه، حتى شدد عليه الحصار فركب سفنه واتجه بها إلى الشمال من النهر حيث مدينة جند أين كان ينتظره "جوجي " بن جنكيزخان الذي سدَّ شمال النهر بقنطرة من السفن، كما وأن المغول كانوا يراقبون تحركات " تيمور ملك " على أطراف النهر.[1]

اضطر تيمور بعد ضغط القوات المغولية المتعقبة له في النهر إلى الذهاب نحو الساحل، حيث امتطى جواده وقاتل أعدائه قتال اليائس، ومع ذلك تمكَن من الفرار والوصول إلى مدينة خوارزم، التي كان يرابط بها جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزم شاه.[2]

سار جنكيزخان ومعه ابنه " تولوي" على رأس رابع جيوش الحملة، فكان هدفه إخضاع وسط إقليم ما وراء النهر، حيث قصد أهم مدن هذا الإقليم وهي بخارى،[3] وقبل ذلك عمل الخان الأعظم على إخضاع المدن التي صادفته في طريقه إلى هذه المدينة، فكان يجردها من كنوزها، ويضع عليها حكامًا من قبله، كما اختار من أهل هذه المدن من يصلح للاستعانة بهم في حصار بخارى.[4]

بدأ جنكيزخان حصاره للمدينة سنة 616هـ/ 1219م، فهاجمها لأيام متتالية، أحسَّ خلالها المدافعون عنها بعدم مقدرتهم على مجابهة المغول فقرروا الانسحاب ليلاً، وعلى الرغم من أنَّ القوة الإسلامية التي أوكلت لها مهمة الدفاع عن المدينة قدرت بنحو عشرون ألف مقاتل، إلاّ أنها نهارت أمام استعدادات المغول وروح معنوياتهم العالية، ففرت تلك القوة ولحقت بها الجيوش المغولية لتشتبك القوتين في قتال عنيف قرب نهر سيحون كان فيه النصر حليف المغول.[5]

حين وجد سكان مدينة بخارى أنَّه لم يعد لهم حول ولا قوة بعد أن فرّ جندها المرابطون بها، أرسلوا قاضيها "بدر الدين قاضي خان"رسولا إلى جنكيزخان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها، فأجابه الخان لذلك وتسلّمها في نفس السنة التي حاصرها فيها 616هـ/

---

(1) خالد عزام، **موسوعة التاريخ الإسلامي، – العصر العباسي –**، دار أسامة، ط1، عمان، 2003، ص 287.

(2) الخالدي، المرجع السابق، ص 79.

(3) المدائني، حملات، ص 31- 32، العريني، المغول، ص 123.

(4) محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص39، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 143.

(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 407.

1219م.[1] أما القلعة فقد استمرت تقاوم مدة اثني عشر يوما، وكان بها 400 شخص دافعوا عنها دفاعًا مستميتا إلى أن سقطوا جميعا صرعى على أيدي جنود جنكيزخان.[2]

كان لتلك المقاومة التي أبداها الرجال المرابطون في القلعة أن سقط العديد من جنود المغول قتلى، مما جعل جنكيزخان يستشيط غضبًا لذلك فأمر جميع سكان المدينة بالخروج منها مجردين من أموالهم، ولا يحمل أحدا منهم غير ملابسه التي يرتديها، ثم دخل المغول المدينة فأمعنوا فيها النهب وأحرقوا أغلب أبنيتها المصنوعة من الخشب فصارت بذلك أطلالاً باليةً، كما قتلوا كل من صادفهم من السكان،[3] حيث يصف لنا ابن الأثير الوضع في المدينة يوم سقوطها بقوله:" وكان يوما عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضًا وأصبحت بخارا (كذا) خاوية على عروشها كأن لم تُغنَ بالأمس...."[4].

وعلى أية حال فقد ترك جنكيزخان مدينة بخارى على أنقاضها وسار إلى مدينة سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر،[5] مصطحبًا معه العديد من الأسرى ليستعين بهم في حصار المدينة، غير أن معظم هؤلاء قد قُضي عليهم في الطريق بعد أن بدا عليهم العجز والإعياء بسبب المشقة.[6]

ظلَّت مدينة سمرقند وإلى غاية غزوها من قبل المغول من أحسن حواضر الشرق الإسلامي، بل والعالم كله، فكانت مدينة تجارية محاطة بأسوارٍ عليها أبراجٌ للدفاع عنها، ولها اثنا عشر بابا من حديد، أمَّا حامية الدفاع فكانت تتألف من ستين ألفًا من الأتراك وخمسين ألفًا من الفرس،[7] إلاَّ أن كل هذه التحصينات لم تشفع للمدينة حين أقدم جنكيزخان على الاستيلاء عليها، لكون الروح القتالية التي كان عليها الخوارزميون لا تسمح بمواجهة القوات المغولية.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 365/12، المدائني، حملات، ص 32.

(2) ويذكر أن جنكيز خان لما تملَّك المدينة مر أمام مسجدها ثم دخله ممتطيا جواده، وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فلما قيل له أن هذا هو بيت الله نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر، وصاح قائلا:" لقد تقطع العلف إعطوا الخيل طعاما" وقد فهم المغول من هذه العبارة أن جنكيز خان يشير على جنده بأن ينهبوا المدينة، أنظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 407-408.

(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 408.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 366-367.

(5) المدائني، حملات، ص 34- 35، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص408- 409، العريني، المغول، ص 124.

(6) ابن الأثير، الكامل، 367/12

(7) Barthold: op. cit, p411

سيَّر جنكيزخان جيوشه لحصار المدينة بعد أن انضمَّ إليها كثير من رجال الفرق المغولية الثلاثة الأخرى، وكذا الأسرى الذين يصلحون للخدمة الحربية، فكان عدد هذه الجموع ضخمًا بحيث ظن الخوارزميون أنَّ كلَّهم من الجند المقاتلة مما بثَّ في نفوسهم الذعر، وجعلهم يفقدون الثقة في مقدرتهم على الوقوف في وجهها.[1]

دخلت القوتان المغولية والخوارزمية المرابطة في المدينة في مواجهة مباشرة خلال اليوم الثالث من الحصار، بعد أن ظلَّ جنكيزخان يتفقد حصون المدينة في اليومين الأولين، فكانت نتيجة المعركة هزيمة منكرة للجند الخوارزمية على أيدي جنود الخان، بلغ فيها عدد الضحايا قرابة السبعين ألفًا، فكان لذلك أكبر الأثر في إثارة مخاوف الجنود المحاصرين.[2]

راسلت حامية المدينة – التي كانت تضم غالبية جندها من القبائل التركية– جنكيزخان وعرضوا عليه الصلح والانضمام إليه على أساس أنهم هم والمغول من أصل تركي واحد، فقبِلهم وأدخلهم في خدمته، وساروا هم وعائلاتهم إلى المعسكر المغولي، ليكون أهالي المدينة بعد كل هذا أمام خيار واحد تمثل في تسليم المدينة لجنكيزخان مقابل التأمين على حياتهم، فأرسلوا قاضي المدينة رفقة كبار علمائها ليعرضوا طلب الأهالي على الخان المغولي فوعدهم بإجابة رغبتهم، ليتسلم على إثرها المدينة في العاشر من محرم 617هـ/17 مارس 1220م،[3] على أن المغول لم يتقيدوا بعهدهم الذي قطعوه على أهل سمرقند، فكان مصيرها لا يختلف عن المصير الذي لقاه أهل بخارى ومدينتهم، كما فرض جنكيزخان على أهل المدينة جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار.[4]

وهكذا تمكَّن جنكيزخان من إخضاع كل بلاد ما وراء النهر التي اتخذها الخوارزميون مركزًا للدفاع عن ممتلكاتهم الواقعة إلى الغرب من النهر فكانت خطة جنكيزخان الحربية محكمة بالقدر الذي مكَّنه من القضاء على هذه البلاد دفعة واحدة، لم يقدر للمسلمين خلالها رد المغول عن أهدافهم، ليسقط بذلك هذا الجزء الهام من البلاد الخوارزمية، فسهلت مهمة المغول بعد ذلك في الاستيلاء على باقي الأقاليم دون عناء.

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 12/368– 369.

(2) نفسه، 12/ 369– 370.

(3) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 127.

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 409– 410.

2- نماذج من ردود الفعل الإسلامية على الغزو المغولي للمشرق الإسلامي

2-1 الجبهة الخوارزمية: الخوارزميون بوابة العالم الإسلامي في مواجهة مباشرة مع المغول

2-1-1 ردود الفعل الخوارزمية في عهد السلطان علاء الدين (615هـ- 617هـ/ 1218م- 1220م)

سيَّر جنكيزخان – بعد استيلائه على سمرقند- جيشين تحت قيادة قائديه " تشبي" Tchébé و "سوبوتاي" Souboutai وأمرهما بتعقب السلطان علاء الدين، وأن لا يتوقفا في الطريق حتى يتخلصوا منه نهائيًا، كما أمرهما بعدم الاصطدام معه إن كان على رأس جيش كبير وانتظار المدد من الجيوش المغولية، أما إنْ آثر الفرار على المواجهة فيجب عليهما تتبعه بلا تردد، فعبرت بذلك قوات القائدين المغوليين نهر جيحون في ربيع الأول 617هـ/ ماي 1220م،[1] عازمين على تحقيق ما أمرهما به الخان الأعظم.

أخذ هذان القائدان يتتبعان أثر السلطان الخوارزمي الفار من المواجهة، فاستوليا في طريقهما على العديد من المدن التي صادفاها، كما وخربا المدن التي أبدت مقاومة لهما، وبينما كان المغول يكتسحون الأقاليم الخوارزمية كان السلطان يبحث عن مكان آمن يفر إليه ليقيه شر جنود جنكيزخان،[2] فبدأ رحلته في طريقه إلى الهرب من مدينة سمرقند وعول على الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاده، وأخذ يشاور كبار رجاله فيما يفعله اتجاه هذا الموقف فمنهم من أشار عليه بضرورة حماية الأقاليم الغربية لنهر جيحون بعد استيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر، ومنهم من أشار عليه بضرورة المغادرة إلى غزنة،[3] وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه القوات المغولية.[4]

فضل علاء الدين من الرأيين، الرأي الثاني فسار قاصدًا غزنة، لكنَّه حوَّل مسيرته إلى العراق العجمي - الذي كان تحت حكم ابنه ركن الدين- بعد أن أقنعه عماد الملك وزير ابنه في ذلك

---

[1] أبوالفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 127، العريني، المغول، ص 126.

[2] الصياد، المرجع السابق ، ص 120.

[3] غزنة: ولاية واسعة في طرف خراسان بينها وبين بلاد الهند، وهي من أعمال الباميان وليس بغزنة بساتين، وهي فرضة الهند وموطن التجارة ومن غزنة إلى باميان نحو ثمان مراحل، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 367، القزويني، آثار، ص 428.

[4] حافظ حمدي، المرجع السابق، 149.

الإقليم بالعدول عن الذهاب إلى غزنة مُوهمًا إيَّاه بأنَّه سيجدُ من المال والرجال في العراق العجمي ما يصدُّ به هجمات المغول، فقبل السلطان مشورته.[1]

قصد علاء الدين مدينة نيسابور[2] إحدى مدن إقليم خراسان، فلمَّا علم أنَّ المغول قد عبروا نهر جيحون، وأنَّهم يُجِدُّون في طلبه ترك المدينة واتجه صوب إقليم العراق العجمي، وحين وصل المغول نيسابور استولوا عليها وتابعوا سيرهم يلاحقون السلطان، وقد تمكَّن القائدان المغوليان من الاستيلاء على العديد من المدن التي صادفاها في الطريق، حتىَّ بلغا مدينة الرَّي الَّتي أخضعاها فكان لذلك وقع كبير في نفوس الخوارزميين، وأيقن الأمراء وقادة الجيوش أنَّ المقاومة لا فائدة منها، وهذا شيء طبيعي ما دام أنَّ السلطان نفسه آثر الفرار على المواجهة، فأخذ كل واحد منهم يفكر في طريقة تُنجيه من خطر القوات المغولية، وبهذا تفرَّق الجيش الخوارزمي الباقي.[3]

استمر علاء الدين في البحث عن مكان يُنجيه من خطر قوات القائدين تشبي وسوبوتاي حتى انتهى الأمر به إلى إحدى الجزر الواقعة في بحر قزوين،[4] والَّتي لا تبعد كثيرا عن ساحل إقليم مازندران،[5] حيث ركب سفنه واتجه بها هناك وهو في حالة نفسية يصفها لنا النسوي بقوله:" حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كُنَّا نسوق بالمركب وبالسلطان من علَّة ذات الجنب أيْسُه من الحياة، وهو يظهرُ الاكتئاب ضجرًا ويقول: لم يبق ممَّا ملكناه من الأرض قدرُ ذراعين نحفرُ فنُقْبر، فما الدنيا لساكنها بدار لا ركونه إليها سوى انخداع واعتزاز، ما هي إلاَّ رباطٌ يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب"[6]

لم يمكث السلطان علاء الدين في هذه الجزيرة وقتا كبيرًا، إذ اشتد عليه المرض فيها، فاستدعى أبناءه الثلاثة، جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه وأق شاه، ووكَّل أمور الدولة لابنه جلال الدين وأمر أخويه بطاعته والامتثال لأوامره، وبعد قرابة شهرٍ من وصوله إلى الجزيرة توفي ودفن فيها

---

(1) العريني، المغول، ص 125- 126.

(2) نيسابور: مدينة من مدن خراسان ذات فضائل حسنة وعمارة، وهي في أرض سهلة، ومن نيسابور إلى طوس ثلث مراحل وأكثر مياه نيسابور قنى وهي صحيحة الهواء، القزويني، آثار، ص 473، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص451.

(3) الصياد، المرجع السابق، ص 120- 121، حافظ حمدي، المرجع السابق، 150-151.

(4) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص39.

(5) مازندران: اسم لولاية طبرستان، يقول ياقوت الحموي، وما أظنُّ هذا إلا اسما محدثا لها، فإنني لم أره مذكورا في كتب الأوائل، ياقوت، معجم البلدان، مج4، 195/7.

(6) النسوي، سيرة جلال الدين، ص106- 107.

سنة 617هـ/1221م، غير أنَّ ما يؤسَف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى خلع شمس الدين محمود– وهو أحد المقربين منه– قميصه وكفنه به.[1]

وإن كان هذا هو حال السلطان الخوارزمي مع ذلك الغزو، فكيف يا ترى كان موقف أهالي أقاليمه التي تركها عرضةً لهجمات جنكيزخان وقواته؟ فهل كان موقفهم على ما كان عليه أمر زعيمهم؟ أم أن أهالي تلك المناطق اختاروا المقاومة سبيلاً للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم، ومواجهة قدرهم المحتوم بما أوتوا من قوة وما توفر لهم من إمكانيات؟.

فإذا عدنا إلى إقليم خوارزم حاضرة الدولة الخوارزمية، فإنَّ السلطة فيه كانت بيد تركان خاتون[2] والدة السلطان علاء الدين، هذا الأخير الذي بعث إليها ينصحها بضرورة مغادرة الإقليم حفاظا على حياتها من خطر قوات المغول، كما وأن جنكيزخان حاول استمالة والدة السلطان برسالة بعث فيها يعدها بأنَّه سيترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته وذلك لعلمه بالشقاق الذي يطبع علاقتها بابنها، إلى أنَّ السلطانة لم تعر الرسالة اهتماما وغادرت إقليم خوارزم حاملة معها ما خفَّ وزنه وغلى ثمنه، والتجأت إلى العراق العجمي،[3] ثم اعتصمت في الطريق بإحدى القلاع الحصينة بمازندران.[4]

وبهذا فقد خلى إقليم خوارزم من حكامه، وصار ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول مثل بقية الأقاليم الأخرى،[5] إلى أن قدم إليه جلال الدين منكبرتي بعد وفاة والده علاء الدين رفقة إخوته، لإعادة بعث الروح في أنقاض دولة والدهم، غير أن الطبيعة العرقية والقبلية التي كانت تحكم

---

[1] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 130.

[2] تزوج السلطان علاء الدين تكش خوارزم شاه من تركان التي تنتسب إلى قبيلة" كانكالي" التي تسكن شمال إقليم خوارزم، فأنجبت له علاء الدين محمد، وكان من أثر هذه المصاهرة أن نزح عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى الدولة الخوارزمية نفسها، وتكونت من هؤلاء قوة كبيرة، أصبحت تناهض قوة السلطان، أنظر: النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 42.

[3] ابن الأثير، الكامل، 12/ 373.

[4] في أثناء مطاردة القائدان المغوليان تشي وسوبوتاي لعلاء الدين خوارزم شاه، استوليا على هذه القلعة التي سلمت بعد ثلاثة أشهر من الصمود، حيث نفذ ما ادخره المحاصرون، وكان ذلك سنة617هـ/ 1220م، فوقعت بذلك تركان خاتون في أيدي المغول الذين قادوها هي وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر جنكيز خان، وظلت أسيرة في أيديهم حتى ماتت سنة 630هـ/1233م، أنظر: النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص120، ابن الأثير، الكامل، 12/ 375-376.

[5] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 410، النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 56.

أهالي خوارزم، دفعتهم إلى محاربة منكبرتي ورفض تسليم السلطة له، فكان من أثر ذلك أن غادر جلال الدين الإقليم قاصدًا خراسان، ليكون رحيله ضياع آخر أمل في إنقاذه من الخطر المغولي.[1]

أمَّا سكان خوارزم فقد آثروا الدفاع عن مدينتهم وعدم تسليمها للقوات المغولية، بعد إقدامها على غزوه، بالرغم من أنَّ السلطان علاء الدين المتوفَّى كان قد أرسل إلى سكان المدينة على إثر تقهقره وفراره ينصحهم بالتسليم، وعدم المقاومة صونًا لأرواحهم وإشفاقًا عليهم من شرِّ المغول.[2]

أما خراسان فإنها لم تكن محط أنظار الحملات المغولية في عهد السلطان علاء الدين، ما عدا ما كان يستولي عليه تشبي وسوبوتاي من مدن في هذا الإقليم وهم في طريقهم إلى إيجاد السلطان علاء الدين، إذ أنَّ المهمة التي كلَّفهما بها جنكيزخان لم تكن لتسمح لهما بالانشغال في إخضاع مدنه، غير تلك التي أبدت مقاومة لهما، حتّى أنَّ بعض مدنه كمدينة طوس[3] قد تخلصت عن التبعية للمغول بعد تمرُّد أهلها على الحاكم المغولي الذي عينه القائدان، ممَّا يبُرز لنا مدى عدم جدِّية تشبي وسوبوتاي في السيطرة على مدن خراسان.[4]

وعلى أية حال فإن ما نستخلصه من فترة حكم السلطان علاء الدين فيما يخص واجبه اتجاه أهالي الأقاليم الخوارزمية خاصة والمسلمين عامة خلال ذلك الغزو أن بإيثاره الفرار دون المقاومة، كان سببًا رئيسا في سهولة مهمة القوات المغولية في الاستيلاء على أراضي المسلمين وإذلالهم بتلك الطريقة التي لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيل، بعد أن كان موقفه من حادثة التجار سببا في إقدام المغول على القيام بتلك الحملات.

إضافة إلى هذا فإنَّ موقفه ذاك كان عاملاً مضعِّفا لمعنويات سكان الأقاليم الخوارزمية التي تعرضت للغزو في عهده، فلم يبرز لمدنها جبهات للمقاومة تحدُّ من تقدم الغزو، وترده عن المدن التي استولى عليها قبلاً، وإن كنَّا قد أشرنا سلفا إلى أن جنكيزخان قد وضع خطة محكمة في استيلائه على إقليم ما وراء النهر، إلا أنَّ ذلك لم يكن ليبرر لعلاء الدين عدم مواجهته الخطر المغولي في المناطق الغربية للنهر، وما زاد من حدَّة انحطاط معنويات المسلمين في تلك الفترة أنَّ هذا السلطان

---

(1) الصياد، المرجع السابق، ص 125.

(2) النسوي، سيرة جلال الدين، ص 93.

(3) طوس، مدينة بخراسان بقرب نيسابور مشهورة، وكانت طوس دار الإمارة بخراسان، ثم انتقلت الإمارة إلى نيسابور، وهي كورة ذات قرى كثيرة قصبتها طابران ونوقان، ولهما أكثر من ألف قرية، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 451، القزويني، آثار، ص 411.

(4) حافظ حمدي، المرجع السابق، ص 169- 171، الصياد، المرجع السابق، ص 129.

كان يحثُّهم على عدم مواجهة المغول خوفًا عليهم، رغم علمه بأن جنكيزخان وقواته لن يرحموا أحدا منهم سواء بالتسليم أو المقاومة.

2-1-2 المواجهة الخوارزمية – المغولية بعد السلطان علاء الدين (617 هـ- 618هـ/ 1220م - 1221م)

إن كان هذا هو حال المقاومة الإسلامية لمدن شرق العالم الإسلامي وأقاليمه في عهد السلطان علاء الدين فإنَّ الصراع المغولي – الإسلامي الذي كانت فيه الدولة الخوارزمية ممثلة له عن الجانب الثاني، قد استمر على نفس النهج في عهد السلطان جلال الدين منكبرتي خلال السنوات الخمس الأولى لتوليه عرش السلطنة، وذلك لعوامل عدة سواء على الجبهة الإسلامية أو على مستوى الجانب المغولي.

فبتولي جلال الدين العهد سنة 617هـ/ 1220م سار مع إخوته قاصدا خوارزم التي كانت على حال من الفوضى، بسبب مغادرة تركان خاتون لها دون الإبقاء على حاكم يدبر شؤونها،[1] فحين وصل جلال الدين إلى الإقليم استقبله الأهالي بالفرح والسرور، وقد استطاع جلال الدين تكوين جيش كبير ليواجه به المغول، إلا أنَّ عصيان العناصر التركية الَّتي كانت تنتمي إليها تركان خاتون ورفضهم توليه الحكم، بل والتآمر على قتله، دفعت بجلال الدين إلى الفرار من خوارزم صوب خراسان.[2]

رأى جنكيزخان بأن الخوارزميين يسعون إلى إعادة بناء قوتهم انطلاقا من هذا الإقليم بعودة جلال الدين إليه، فعزم على استباق تشكل تلك القوة، وأرسل إليه جيشا بقيادة أبنائه جوجي وجحتاي وأجتاي والذين كانوا قد أتموا الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، على أنَّ وصول تلك القوات في ذي القعدة 617هـ/ ديسمبر 1220م، كانت بعد انسحاب جلال الدين منها إلى خراسان ثم نيسابور.[3]

---

[1] الخالدي، المرجع السابق، ص 80- 81.

[2] كان علاء الدين خوارزم شاه قد اضطر أن يوصي لابنه أزلاغ شاه بالحكم من بعده تحت تأثير تركان خاتون، متخطيا في ذلك ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي، غير أن علاء الدين عاد وهو على فراش الموت، فنفض العهد الذي أعطاه لابنه الأصغر وأوصى بالحكم لجلال الدين بعد أن تأكد بأنه الوحيد الذي بإمكانه حماية الدولة الخوارزمية، وطبيعي أن يثير هذا حفيظة الجيوش الخوارزمية من قبيلة كانكالي التي تنتمي إليها تركان خاتون، والتي كانت تؤيد الابن الأصغر أزلاغ شاه، أنظر: حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 162.

[3] ابن الأثير، الكامل، 12/ 370- 371.

عسكرت القوات المغولية أمام المدينة، ثم طلب قوادها من الأهالي التسليم والتأمين على حياتهم، لكنَّهم ثبتوا على رأي المقاومة بعد أن انقسموا على رأيين ثانيهما يرى في التسليم ضرورة للحفاظ على حياة السكان والمدينة من التخريب،[1] فلمَّا رأى المغول رغبة السكان في المقاومة استعدوا هم كذلك للقتال، فنصبوا المجانيق وأخذوا يدكون الأسوار،[2] ولحسن الحظ أنَّ خلافًا نشب بين جوجي وجحتاي ساهم في تغلب الخوارزميين في أولى جولات هذه المعركة، ولكن سرعان ما أُعلم جنكيزخان بذلك فأمر ابنه أجتاي بإنهاء الخلاف وتولِّي قيادة الجيوش بدل أخيه جوجي كما أمدَّه بما يُعوِّضه عمَّا خسر من جنود.[3]

أعاد أجتاي تنظيم جيوشه، ثمَّ أمرهم بالهجوم على المدينة دون توقف، حتَّى استطاعوا أن يخترقوا أسوارها ويرفعوا أعلام النصر عليها، لكن ذلك لم يكن ليثني من عزم الخوارزميين الذين صمموا على مواصلة القتال للدفاع عن أنفسهم ومدينتهم، فدامت تلك الروح لسبعة أيام، وجد بعدها السكان بأن المغول محاصرين لهم من كل الجهات، فعرضوا على أجتاي تسليم المدينة.[4]

قبل القائد المغولي طلب السكان ودخل المدينة فشرع في تطبيق هواية قومه المفضلة، إذ قتلوا من أهلها ما يصوره لنا مؤرخو هذه الفترة بقولهم: أن كل جندي مغولي كان يقتل أربعة وعشرون رجلاً خوارزميا، فإذا علمنا أن جيش المغول كان يتكون من مائة ألف رجل، أدركنا جليا ذلك العدد الهائل الذي كان نصيبه الهلاك على أيديهم.[5]

استمات سكان خوارزم في الدفاع عن مدينتهم من هجمات المغول، لكننا وقبل ذلك سنعيب تصرف أولئك الجُند الذين وقفوا في وجه جلال الدين حين قدم إلى الإقليم رغبة منه في إعادة هيبة الدولة الخوارزمية، إذ كان من الممكن أن تكون المدينة بفضل هذا القائد أكثر قوة خاصةً وأنه ابن السلطان، كما وكان بالإمكان الاستفادة من الخلاف الذي نشب بين ولدي جنكيزخان وإنهاء المعركة لصالح الطرف الإسلامي.

---

(1) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 164.

(2) النسوي، سيرة جلال الدين، ص 171.

(3) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 165.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 394.

(5) وإذا أخذنا بقول هؤلاء المؤرخين فإن عدد من قتلوا في مدينة خوارزم على يد جيوش المغول يقارب عددهم مليونيين ونصف، وهذا الرقم مبالغ فيه وبعيد عن التصديق، أنظر، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 410.

وعلى أية حال فإن مستوى النضج العسكري الذي كان يتمتع به جنكيزخان كان يدفعه إلى تحقيق انتصارات مضفَّرة على الخوارزميين دون أن يجد مقاومة جادة تعيقه،[1] وقد تجلى ذلك في خططه الحربية التي سعى من خلالها إلى عدم ترك الفرصة للخوارزميين لإعادة بناء جبهتهم أو ترك المجال لهم للفرار من سيوف القوات المغولية، وقد رأينا في استراتيجيته لغزو بلاد ما وراء النهر أحسن دليل، كما تجلَّى لنا ذلك أيضا في مسارعته إلى إخضاع إقليم خوارزم بعد علمه بعودة أبناء علاء الدين إليه.

ويزيد تأكيدنا لذلك حين وجَّه الخان إحدى فصائله إلى إقليم خراسان في نفس الوقت الذي توجهت فيه جيوش أبناءه إلى خوارزم، وذلك لمساعدة الجيوش المرابطة على أسوار هذه المدينة و لقطع الطريق عن الفارين من مدن هذا الإقليم،[2] فكانت تلك السياسة الحربية للمغول من أبرز عوامل نجاح غزوهم للدولة الخوارزمية في عهد جنكيزخان.

إن عزم الخان الأعظم على إخضاع جميع أراضي الدولة الخوارزمية، قد جعله يفكّر جليًا في إخضاع إقليم خراسان، حيث عبر نهر جيحون بعد أن أخضع نخشب[3] وترمذ[4] وسار قاصدًا مدينة بلخ[5] التي تقع على الضفة الغربية، وكانت في ذلك الوقت من أهم مدن خراسان، فما إن وصلت قوات جنكيزخان حتى أبدى سكانها استعدادهم للخضوع والتسليم، ورغم ذلك لم يُعفها من التخريب وأهلها من القتل.[6]

---

(1) عكاشة، المرجع السابق، ص 97- 98.

(2) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 168.

(3) نخشب: مدينة مشهورة بأرض خراسان، وهذا اسمها فلما عربت قيل لها نسف، وهي في مستو من الأرض والجبال منها على نحو مرحلتين فيما يلي كش، وبين نسف وبين جيحون مفازة ولها نهر يجري في المدينة وهو مجمع مياه كش وينقطع في بعض السنة، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 491، القزويني، آثار، ص 466.

(4) ترمذ: مدينة على وادي جيحون، لها قهندز (قلعة) ومدينة وربض، ويحيط بالربض أيضا سور، ودار للإمارة، في القهندز، والحبس خارج القهندز ، والمسجد الجامع في المدينة، والمصلى داخل السور في الربض وأسواقها في مدينتها وأبنيتها طين ومعظم سككها وأسواقها مفروشة بالآجر، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 167،

(5) بلخ: مدينة عظيمة، من أمهات بلاد خراسان، وهي في مستو، بينها وبين أقرب الجبال إليها نحو أربعة فراسخ، ويسمى جبل كو، وعليها سور ولها ربض،والمسجد الجامع في المدينة في وسطها، وأسواقها حوالي المسجد الجامع، وهي نحو من نصف فرسخ في مثله، وبناؤها طين ولها أبواب يحف بها البساتين والكروم، القزويني، آثار، ص 331، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 154، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 455.

(6) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 411.

اكتفى جنكيزخان بالزحف عند بلخ، وعهد بمهمة إخضاع باقي المدن الخراسانية إلى ابنه " تولوي"، الذي سار بجيشه المكوَّن من عشرة آلاف جندي في خريف سنة 617هـ/ 1220م بقيادة توجاشر Togatcher زوج ابنة جنكيزخان، وحين وصوله إلى مدينة " نسا"[(1)] تعرَّضت إحدى كتائبه لرشق بالسهام من جند المدينة فقتل من المغول رجال كُثر، مما جعل توجاشر يشدد على أسوارها الحصار لخمسة عشر يومًا، حتَّى سقطت أخيراً، ليقوم بعدها بالتنكيل بأهلها دون تفرقة بين الرجال والنساء والأطفال، حيث يقدرهم النسوي بسبعين ألف قتيل.[(2)]

هدف تولوي بعدها إلى إخضاع مدينة مرو عاصمة الإقليم، والتي كانت حتى ذلك الوقت عامرة، يمتاز أهلها بالغنى والثراء،[(3)] غير أن الوضع السياسي فيها من تصارع على حكمها بين القبائل والتجاء بعض القادة إلى المغول إليها حال دون تمكنها من الوقوف في وجه قوات تولوي، بل ومكّنت هذا الأخير من الاستيلاء على المدينة دون مقاومة، فسلَّمها أهلها بعد أن تبيَّن لحاميتها عدم مقدرتها على مواجهة المغول، وطلبوا الأمان الذي لم يُمنح لهم كعادة المغول، فقتل الكثير من سكانها، وأخذ منهم أربعمائة من الحرفيين للاستفادة منهم في الأعمال الحربية، ثم هدمت المدينة لتصبح أثر بعد عين.[(4)]

سار بعد ذلك تولوي صوب مدينة نيسابور، التي وصلها قبله توجاشر محاولاً الاستيلاء عليها فسقط قتيلا بسهم أحد المدافعين، مما جعل تولوي يعزم على الأخذ بالثأر لمقتل زوج أخته، فسار بجيشه إلى نيسابور بعد أن فرغ من إخضاع مرو، وقد كان الأهالي يتوقعون بدورهم الشر والبلاء الذي ينتظرهم على يد القوات المغولية، ممَّا جعلهم يستعدون للمواجهة وسخَّروا كل الإمكانيات العسكرية لذلك، غير أنهم سرعان ما فقدوا رباطة جأشهم أمام قوات تولوي ومعداتهم الحربية، فأرسلوا نوابًا عنهم من أئمة وكبار رجالهم إلى معسكر تولوي يعرضون عليه تسليم المدينة ويتعهدون له بدفع ضريبة سنوية.[(5)]

---

(1) نسا: مدينة بخراسان، بقرب سرخس وأبيورد، وهي خصبة كثيرة المياه والبساتين، نزهة ولها رساتيق واسعة في أضعاف الجبال، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص 451، القزويني، آثار، ص 465.

(2) النسوي، سيرة جلال الدين، ص 114- 115.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 252/8.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 391- 392.

(5) ابن الأثير، الكامل، 12/ 392، الخالدي، المرجع السابق، 82.

قابل تولوي هذه العروض كُلَّها بالرفض لرغبته في الأخذ بالثأر من مقتل زوج شقيقته،[1] وفي الثاني عشر صفر 618هـ/ السابع أفريل 1221م، أمر قواته بمهاجمة المدينة من كل مكان، فاستمر القتال طيلة اليوم، حتى تمكّن المغول من احتراق حصونها وإحداث ثغرات عديدة فيها، فدخلوها مملوءين برغبة الانتقام لمقتل " توجاشر"، فأحدثوا مذبحة مروعة في أهلها لم يسلم منها حتى الكلاب والقطط،[2] كما وأنَّ تلك الرغبة دفعت تولوي – حين رأى بعض السكان يلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى– إلى الأمر بقطع جميع رؤوسهم ووضعها جانب الجثث، حيث يقدر عدد من هلكوا في تلك المدينة بمليون وسبعمائة ألف رجل.[3]

لم يبق لتولوي من مدن خراسان الهامة سوى مدينة هراة،[4] حيث سار إليها بجيشه ليصلها بعد خمسة أيام، ثُمّ أرسل إلى حاكمها رسولاً يطلب منه التسليم، فكان مصير هذا الرسول القتل، وقد أمر حاكم المدينة الرجال بالدفاع عنها بكل ما أوتوا من قوة، فشرع تولوي بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها في يوم واحد، وبعد ثمانية أيام من الاقتتال لم ير حاكمها بُدًّا من التسليم بشرط أن يؤمِّن المغول حياة السكان، فقبل تولوي طلب التسليم وأخلف وعده بالتأمين، فأمر بقتل عدد كبير من جند الخوارزميين من أتباع جلال الدين منكبرتي ومن السكان المدنيين، فكانت الحصيلة قرابة الإثني عشر ألفا.[5]

وبهذا أحكمت القوات المغولية تحت قيادة تولوي بن جنكيزخان سيطرتها على كامل إقليم خراسان في بضعة أشهر فقط، أحدثت فيها من التقتيل والتخريب وإفناء حضارة المسلمين بعمرانها وعلمائها ومكتباتها، ما دفع بمؤرخي تلك الفترة إلى الإحجام عن ذكر تفاصيلها، فكان ذلك وبالاً على المسلمين والبشرية عامة.

أما غزنة ثالث الأقاليم الخوارزمية الهامة على الشطر الغربي لنهر جيحون، فقد كان هو الآخر هدفًا لحملات جنكيزخان، خاصة وأن جلال الدين منكبرتي قد سار إليه بعد فراره من

---

(1) محمد سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص 39.

(2) الصياد، المرجع السابق، ص 132.

(3) ابن الأثير، الكامل، 393/12.

(4) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان، ما كان بخراسان مدينة أجل ولا أعمر ولا أحصن ولا أكثر خيرا منها، عليها حصن وثيق وحواليها ماء وداخلها مدينة عامرة، ولها ربض وفي مدينتها قهندز، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 455، القزويني، آثار، ص 481، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 149.

(5) ابن الأثير، الكامل، 395/12.

القوات المغولية المتعقبة له في نيسابور، حيث استطاع الزعيم الخوارزمي مخادعة تلك القوات والوصول إلى مدينة غزنة، فاستقبله أهلها كما يقول النسوي: " تباشر أهلها تباشير الصوام بهلال الفطر"، ورحب به الأهالي أيما ترحيب، وانضم تحت لوائه جموع كثيرة من مختلف الأجناس.[1]

لما علم جنكيزخان بأن جلال الدين يرابط بالمدينة على رأس جيش كبير عزم على المسير إليه، فاستولى وهو في الطريق إلى غزنة على قلعة باميان[2] Bamain الواقعة على أحد فروع نهر جيحون، بعد أن أجهز على كل من وجده فيها انتقاما لمقتل أحد أحفاده من أبناء ججتاي على يد أحد الخوارزميين المدافعين عن القلعة، وقد استطاع جلال الدين أن يجمع في هذه المدينة من الجند ما يقرب السبعين ألفا، حقق بفضلها انتصاراً مضفراً على طلائع الجيوش المغولية في السهول المحيطة بمدينة بيروان، وذلك في ربيع 618هـ/1221م، وأن يقتل منهم ما يزيد عن الألف رجل.[3]

عزَّز جنكيزخان قواته المرابطة قرب بيروان بنحو ثلاثين ألف رجل آخر، ثم أمرها بالمسير لملاقاة جند جلال الدين، الذي خرج هو الآخر إلى السهول المحيطة بالمدينة لمواجهتها، لتدور بين الفريقين معركة حامية الوطيس، أبدى فيها جلال الدين من حسن القيادة والجند من روح الشجاعة ما أمكنهم من تحقيق النصر وإبادة جل القوات المغولية المشاركة في المعركة، حتَّى أنه من وقع الانتصار على نفوس الخوارزميين أن ظنت المدن التي خضعت للمغول سابقا بفناء جيوش جنكيزخان كلية وأن الوقت حان للتخلص من التبعية لهم، فثارت ضد حكامها من المغول كمدينة هراة.[4]

على أن ذلك الانتصار لم يكن سوى انتصارا مؤقتا سرعان ما تحول إلى هزيمة منكرة بسبب ما ساد قادة جيوش جلال الدين من خلافات حول اقتسام الغنائم، فانقسمت جيوشه كل واحدة

---

(1) كان يسود مدينة غزنة حين وصلها جلال الدين الفوضى والثورات بسبب كثرة ما فيها من الجيوش المختلفة الأجناس كالأتراك والغوريين وبقايا الخوارزميين الفارين من بطش المغول، فكان قواد هذه الجيوش متنازعين متنافسين على حكم هذا الإقليم، أنظر، حافظ حمدي، المرجع السابق، ص182-183.

(2) باميان: ناحية بين خراسان وأرض الغور، ذات مدن وقرى وجبال وأنهار كثيرة من بلاد غزنة، بها بيت ذاهب في الهواء وأساطين نقش عليها صور الطير، وفيه صنمان عظيمان من الحجر، يسمى أحدهما سرج بت، والآخر ختك بت، القزويني، آثار، ص55، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 467.

(3) أبوالفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 128.

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 411- 412، مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 112.

تتبع قائدها، فلم ير بعد ذلك بُدًّا من عبور نهر السند[1] والالتجاء إلى بلاد الهند علّه يجد مأمنًا فيها، غير أنَّه تعذر عليه ذلك نتيجة عدم تمكُّنه من الحصول على سفن تنقله هو وجنده، ليصل في تلك الأثناء جنكيزخان وجيوشه مدفوعين بروح الانتقام للخسارة التي منيت بها جيوشه عند بيروان، فحاصر الخان قوات جلال الدين على نهر السند لتكون بين مطرقة جيوشه وسندان النهر.[2]

لم يجد جلال الدين من حيلة لذلك الموقف سوى المواجهة العسكرية بكل ما أوتي من قوة، فوقف الند للند مع القوات المغولية، حتى إذا انكسرت ميمنة جيشه وميسرته، ألقى بنفسه وبحصانه من فوق النهر على ارتفاع حوالي تسعة أمتار، فاستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقي وقد قتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية،[3] كما أنَّ والدة جلال الدين وزوجته صِحْن به وهو بالقرب من النهر، "بالله عليك أقتلنا وخلِّصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن"، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرذايا على حد تعبير ابن الوردي.[4]

وبهذا فقد أحكم المغول قبضتهم – بعد إخضاعهم غزنة – على معظم الأقاليم الخوارزمية الواقعة إلى الغرب من نهر جيحون، كما أرسل جنكيزخان فرقًا تتبع آثار جلال الدين الذي التجأ إلى بلاد الهند، بحثا عن مكان يؤمِّنه من الخطر المغولي من جهة، وليُعيد ترتيب أمور الدولة الخوارزمية من جديد من جهة ثانية،[5] أمَّا جنكيزخان فإنه بعد أن تمكَّن من الانتقام من السلطان علاء الدين قاتل التجار، وإخضاع أغلب الأقاليم التابعة لدولته خلال أربع سنوات، عزم على العودة إلى موطنه منغوليا خاصة بعد علمه بتمرد قبائل التانجوت على حكمه، فكان ذلك في ربيع عام 620هـ/ 1223م، وقد أرسل في طلب أبنائه ليكونوا إلى جانبه في رحلة العودة.[6]

---

(1) السند: ناحية بين الهند وكرمان وسجستان، قالوا: السند والهند كانا أخوين من ولد توقير بن يقطن بن حام بن نوح عليه السلام، وبها نهر مهران، وهو نهر عرضه كعرض دجلة أوأكثر، يقبل من المشرق آخذا إلى الجنوب متوجها نحو المغرب، ويقع في بحر فارس أسفل السند، القزويني، آثار، ص 94-95.، الإصطخري، المسالك والممالك، ص 102.

(2) النسوي، سيرة جلال الدين، ص 170، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص412.

(3) حافظ حمدي، المرجع السابق، ص186- 187.

(4) ابن الوردي، تتمة المختصر، 155/2.

(5) الصياد، المرجع السابق، ص 134.

(6) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 426.

3-1-2 الجبهة الخوارزمية من إعادة بناء الدولة إلى زوالها (622هـ-628هـ/ 1225م- 1231م)

شرع جنكيزخان منذ عودته إلى موطنه الأصلي منغوليا سنة 622هـ/ 1225م، في إخضاع القبائل المتمردة على حكمه، وأعلن الحرب على إمبراطورية سونغ في بلاد الصين، واشترك بنفسه في القتال، ولكنَّه مات في سنة 624هـ/1227م ولم تكن الحرب قد انتهت بعد.(1)

وقبل ذلك – أيْ وفاته– عمد جنكيزخان حين عودته إلى منغوليا على تنظيم شؤون دولته الداخلية والخارجية فوزَّع المهام بين أبنائه وكبار قواده، وقد دفعه إحساسه بدنو أجله إلى تقسيم إمبراطوريته الواسعة بين أبنائه ويوزع عليهم جيوشه، ليسير كل واحد منهم مع قواده وجُنده إلى الجهة التي خصصت له بعد وفاة الخان.(2)

وبالعودة إلى الدولة الخوارزمية بعد رحيل جنكيزخان وجيوشه عنها، فقد صارت أشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، فقد أباد المغول سكانَها وخرَّبوا مدنَها وجعلوها أطلالاً لا تجد من يبكيها،(3) وخلال تلك الأثناء عاد غياث الدين – وهو أحد أبناء علاء الدين – وظهر من جديد بعدما كان معتصمًا بقلاع مازندران الحصينة في سنوات الغزو، فاستطاع أن يُعيد بعض الأقاليم الخوارزمية إلى سيطرته مُؤيدًا من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575هـ- 622هـ/ 1180م- 1225م)، غير أنَّ سيرته في الأهالي لم تكن حسنة فاضطربت بذلك الأحوال الاجتماعية والسياسية في عهده.(4)

أما أخوه الأكبر جلال الدين الذي التجأ إلى بلاد الهند بعد موقعة نهر السند، فقد توغل في هذه البلاد، وحاول أن يلتجأ إلى شمس الدين ألتمش سلطان دلهي،(5) غير أن هذا الأخير سعى إلى إبعاده لدرء الخطر المغولي المتربص بجلال الدين، فأرسل إليه يحثُّه على عدم المغامرة بالمجيء إلى دلهي لأن جو بلاده لا يلائمه، ونصحه بقصد مدينة " مولتان" على نهر السند، فعدل بذلك جلال الدين عن فكرة الالتجاء إلى دلهي.

---

(1) Lamp: op. cit, p192، محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص 40.

(2) الهمذاني، جامع التواريخ، 1/384- 385، العريني، المغول، ص 140-141.

(3) حافظ حمدي، المرجع السابق، ص 197.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 420- 421، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 133.

(5) كان " شمس الدين ألتمش" أحد أرقاء الترك في الدولة النورية، وقد سار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة، وتمكن من تأسيس إمارة في الجزء الشمالي من هذه البلاد، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 200.

زادت قوة جلال الدين في بلاد الهند خاصةً بعدما انضم إليه الكثير من القواد الخوارزميين الذين جاءوا من العراق العجمي، فرارًا من أخيه غياث الدين وسخطًا على سياسته، فاستطاع استعادة العديد من الأقاليم الواقعة في حوض نهر السند،[1] مما دفع بسلطان دلهي إلى التحالف مع أمراء الهند في هذه الأقاليم لطرد جلال الدين خوفًا من تعاظم قوته، ولما أحسَّ جلال الدين بعدم مقدرته على رد ذلك التحالف، آثر العودة إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، رغم عدم رضا بعض قواده الذين أشاروا عليه بالبقاء في بلاد الهند حتى يكونوا في مأمن من جنكيزخان وقواته، إذا ما فكَّر في العودة إلى غزو الدولة الخوارزمية.[2]

عبر جلال الدين بقواته نهر السند سنة 622هـ/ 1225م قاصدًا الجهات الغربية من دولته، فاستطاع أن يكسب إليه ولاء العديد من زعماء الأتابكيات المنتشرة في تلك المناطق، كأتابكية كرمان وفارس وأصفهان،[3] ولعلَّ ما ساعد جلال الدين في استمالة هؤلاء إليه، السياسة الجائرة التي كان غياث الدين يمارسها معهم.

تقدَّم جلال الدين بعد ذلك لملاقاة أخيه غياث الدين وانتزاع السلطة منه، هذا الأخير الذي كان يعسكر بجيش كبير على مقربة من مدينة الري قوامه ثلاثين ألف جندي من الخيالة مستعدًا للمواجهة، ولمَّا وجد جلال الدين أنه لن يستطيع أن يقف في وجه هذا العدد الكبير من الجنود، عمد إلى استخدام الحيلة فأعلن لأخيه بأنه لم يأت من بلاد الهند إلاَّ ليكون إلى جواره، فخُدع غياث الدين بهذه الحيلة وفرَّق جيوشه، فاستغل جلال الدين الفرصة وانقلب عليه وهزم ما بقي من جيوشه هزيمة منكرة،[4] وبهذا أصبح جلال الدين يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية وخاصة بعد عودة بعض القواد الذين استقلوا بالعديد من المدن في فترة الفوضى الَّتي أعقبت رحيل القوات المغولية عنها كمدن خراسان والعراق العجمي ومازندران.[5]

ويجدر الإشارة هنا إلى أنَّ تمكن جلال الدين من السيطرة على الأقاليم الغربية للدولة الخوارزمية لا يعود إلى قوة جيوشه، بقدر ما يعود إلى انشغال المغول بأحوالهم الداخلية والخارجية في موطنهم منغوليا، خاصةً بعد وفاة زعيمهم جنكيزخان 624هـ/1227م، والاستعداد لانتخاب

---

[1] أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 134.

[2] نفسه، 3/ 134.

[3] ابن الأثير، الكامل، 12/ 425- 427.

[4] النسوي، سيرة جلال الدين، ص184.

[5] أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 134 – 135.

خليفة له، لذلك نجد القادة والأمراء الذين كانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي يعودون إلى قرة قورم حاضرة المغول، كما اهتموا بإخضاع حكام أسرة سونغ في الأقاليم الصينية أكثر من اهتمامهم بأي إقليم آخر، ليكون بذلك جلال الدين في مأمن من أي خطر مغولي خلال تلك الفترة.(1)

سعى جلال الدين بعد أن اطمأن على أنه لم يعد هناك من ينازعه السلطان، إلى توسيع نفوذه على حساب القوى المجاورة له، فنراه يخضع العديد من الأقاليم كجورجيا وأذربيجان ويعقد التحالفات مع البعض منها كسلاجقة الروم والأمراء الأيوبيين المتنازعين،(2) فاستطاع فيما بين (622هـ- 628هـ/ 1125م- 1231م) تاريخ عودته من بلاد الهند وإلى غاية غزو المغول للدولة الخوارزمية في عهدها الجديد أن يوسع دائرة سلطانه على جيرانه.(3)

غير أن بوادر الضعف لم تفارق دولة جلال الدين خلال تلك الفترة، بسبب ما اكتنف علاقاته بالخلافة العباسية وبالقوى الأخرى من توتر وتشاحن، لتزيد طائفة الإسماعيلية (الحشاشون) من حدة الضعف بعد وقوفهم على عزم جلال الدين نزع شأفتهم نهائيًا، فراسلوا المغول وأطلعوهم على مدى ما وصل إليه الخوارزميون من ضعف، وحثُّوهم على غزو بلادهم وأنَّ النصر سيكون حليفهم.(4)

وعلى كل فإن المغول الذين انشغلوا عن البلاد الخوارزمية بأمور أخرى كانت تهدد كيانهم في موطنهم الأصلي، وكذا لانتخاب خاقان جديد يحكم دولتهم بعد وفاة جنكيزخان، فقد عادوا إلى الظهور تحت راية زعيمهم الجديد أجتاي بن جنكيزخان بعد انتخابه سنة 626هـ/ 1229م، والذي أخذ على عاتقه إخضاع الدولة الخوارزمية من جديد.(5)

كانت أولى الحملات المنظمة الَّتي شنَّها أجتاي على الدولة الإسلامية بعد وفاة جنكيز خان(6)، حينما سيَّر جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل بقيادة اثنين من أشهر قواده هما شيرماجون

---

(1) حافظ حمدي، المرجع السابق، ص 204.

(2) ابن الأثير، الكامل، 12/490-491.

(3) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 135.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/ 470، 495-496.

(5) Lamp: op. cit, p192

(6) سبق وأن حدثت مواجهات بين الخوارزميين وبعض الجماعات المغولية بعد عودة جنكيز خان إلى منغوليا، غير أن تلك الجماعات لم تكن على حال منظمة، وإنما كانت تخرج في حروب أشبه بحروب العصابات، حتى أنها لم تكن تتابع نشاطها الحربي بعد تحقيق انتصارات على الخوارزميين، فسرعان ما تعود إلى إقليم ما وراء النهر مما يبين حالة الفوضى التي كانت تميزها. أنظر، النسوي، سيرة جلال الدين، ص 135-139.

Churmagun وبيدشو Baidshu، الذين تمكّنا من عبور إقليم خراسان بسرعة فائقة ودون مواجهة من الخوارزميين، حتّى وصلا إلى الجهات الغربية فاستطاعوا أن يستولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد، ووصلوا إلى غاية حدود أذربيجان في أوائل سنة 628هـ/ 1231م[1].

أخذ المغول يَجِدُّون في البحث عن جلال الدين بغية القضاء عليه، عارفين بأنَّ موته سيكون عاملاً مهما لإخضاع الأقاليم التابعة لحكمه، فكانت بذلك حركات المغول وتنقلاتهم مقيدة بحركات هذا السلطان الخوارزمي، الذي ظلّ يتقهقر من إقليم إلى آخر فرارا من الجيوش المغولية، مستنجدا بمن كان قد عاداهم في وقت ليس ببعيد، فالتجأ إلى أمراء ديار بكر والجزيرة وبالخليفة العباسي في بغداد،[2] لتذكرنا حالته تلك بحالة والده علاء الدين في موقفه من مواجهة المغول، غير أنَّ وفاة والده كانت أرحم مقارنة بموت ابنه الذي كانت نهايته مذلّة لا ترقى إلى مكانته كسلطان.

فقد حدث وهو في طريقه إلى الاستنجاد بأمراء الجزيرة والخليفة العباسي أن لحق به المغول عند مدينة آمد[3] في أعالي نهر دجلة، فهزموه شرَّ هزيمة وقتلوا وأسروا من أتباعه الكثيرين، أما هو فقد التجأ إلى جبال كردستان، وحين همّ الأكراد بقتله همس في أذن كبيرهم بأنّه هو السلطان، فأخذه الرجل إلى بيته وهناك طلب منه جلال الدين معاونته على العودة إلى بلاده، فتركه الكردي مع زوجته وخرج لإحضار بعض خيوله ليستعين بها في إرجاعه إلى بلاده، وبينما كان الكردي غائبا عن منزله أتى كردي آخر وبيده حربة فقال للمرأة: ما هذا الخوارزمي وهلا تقتلونه؟ فقالت: لا سبيل إلى ذلك وقد أمنه زوجي وعرف أنه هو السلطان، فقال الكردي: كيف تصدقونه بأنه السلطان؟ وقد قتل لي بخلاط[4] أخ خير منه، ثم ضربه بالحربة فأرداه قتيلا على هذا النحو، وكان ذلك في منتصف شوال 628هـ/16 أوت1231م.[5]

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 495/12-496.

[2] النسوي، سيرة جلال الدين، ص 380- 381، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 147.

[3] آمد: مدينة حصينة مبنية بالحجارة من بلاد الجزيرة على نشز من الأرض ودجلة محيطة بها من جوانبها إلا من جهة واحدة على شكل هلال وهي تقع شمال شرق الموصل على الطريق إلى ميافارقين وأخلاط ومانزكرت، القزويني آثار، ص 491، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 154- 156، الإصطخري، المسالك، ص 53.

[4] خلاط: وأخلاط، في مستو من الأرض، لها بساتين كثيرة، ولها عدة أنهر تأتيها على هبة أنهار دمشق، وليس يدخل المدينة منها إلا الشيء اليسير، ولها سور خراب، وهي في قدر دمشق وبردها شديد، والجبال عنها على أكثر من مسيرة، بينها وبين مانزكرت سبعة فراسخ، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 395، البكري، معجم ما ستعجم، 507/2.

[5] النسوي، سيرة جلال الدين، ص 382- 383، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 431- 432، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 147- 148.

ساهمت وفاة جلال الدين آخر السلاطين الخوارزميين في زوال هذه الدولة التي عمَّرت لأزيد من ثلاثة عشر عقدا من الزمن (490هـ - 1097م/ 628هـ - 1231م)، ليصير بذلك المغول دون رادع يردُّهم عن تحقيق أغراضهم أو يحول بينهم وبين العبث في أقاليم العالم الإسلامي، فأخذوا بعد زوالها في التقدم صوب مدن العراق العربي والمدن الواقعة شمال بلاد الجزيرة، ليخضعوها وينكلوا بأهلها أبشع تنكيل دون أن يجدوا مقاومة من أهلها، حتَّى أنَّ حالة الضعف تلك التي ميَّزت المسلمين دفعت بالمغول إلى التقدم نحو مدينة بغداد حاضرة البلاد الإسلامية قصد إخضاعها.[1]

وعليه فإن الجبهة الخوارزمية التي كانت في واجهة الغزو المغولي لم تقم بدورها في المقاومة، فكان لمواقف سلاطينها أثر بالغ في تحديد الوضع على هذه الجبهة من حركة التصدي والمجابهة، إذ لا تعدو أن تكون بعض المواجهات التي قام بها الخوارزميون ضدَّ المغول ردود فعل حتمية، دون وجود عمل منظم سعى إلى وضع جبهة مقاومة تسترجع ما سلب من أراضٍ، أو منع الغزاة من إخضاع مناطق أخرى.

2-1 جبهة مصر وفلسطين: المماليك ينهون قصة الغزو المغولي على العالم الإسلامي

2-2-1 المماليك واعتلائهم عرش السلطة بمصر (648هـ / 1250م)

كان لمصر الأيوبية في عهد السلطان صلاح الدين دور بارز في حركة المقاومة الإسلامية ضدَّ الوجود الصليبي في بلاد الشام، حيث ساهمت الجبهة المصرية في تحقيق انتصارات مظفرة على الصليبيين، كان أهمها استرداد بيت المقدس سنة 583هـ /1187م، غير أنَّ الوضع قد سار في اتجاه مغاير بعد وفاة صلاح الدين 589هـ/ 1193م، نتيجة الصراعات الطاحنة بين أبناء البيت الأيوبي حول السلطة والتي كانت نتيجة حتمية لزوال هذه الدولة.

فتحت تلك الصراعات الباب بمصراعيه للصليبيين من أجل تحقيق مكاسب على حساب الجبهة الإسلامية واستعادة ما تمَّ استرداده منهم على يد صلاح الدين، كما وأنَّه صادف ذلك الوضع في البيت الأيوبي قضاء المغول على الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين منكبرتي، واستمرار زحفهم صوب بغداد والشام ومصر، لتصير البلاد الإسلامية بين فكي كماشة (المغول في شرقه والصليبيون في غربه) تنتظر من يخلصها من هذا الوضع.

[1] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 228.

وعلى كل فإن سنة 648هـ / 1250م يؤرخ بها لبداية نهاية الدولة الأيوبية التي عمَّرت لإحدى وثمانين سنة، ويؤرخ بها أيضا لبداية تأسيس دولة المماليك،[1] ففي المحرم/ أفريل من هذه السنة ثار مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ضد الملك المعظم تورنشاه ابن سيدهم وقتلوه،[2] وكان ذلك أمام مرأى من رجال الجيش من دون أن يحرِّك أحد منهم ساكنًا لإنقاذه، مما يدل على امتلاك المماليك زمام الموقف خلال تلك الفترة،[3] لتكون وفاته نهاية عهد دولة الأيوبيين، ليجتمع بعد ذلك كبار المماليك عقب مقتل تورنشاه، ويتفقوا على أن يقيموا شجرة الدُّر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ملكة على مصر، وأن يجعلوا المعز بن أيبك التركماني مقدمًا للعسكر،[4] لتصير شجرة الدُّر أول من ملك مصر من المماليك.[5]

لم يكن ذلك الوضع في مصر ليلقى التأييد أو المباركة، بل على العكس فقد قوبل قرار تنصيب شجرة الدُّر بالعديد من صور الرفض والتحدي،[6] حتَّى أن الخليفة العباسي المستعصم بالله (640هـ- 656هـ/ 1242م- 1258م) قد أنكر ذلك على الأمراء بالديار المصرية، باعثًا إليهم يقول: " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتَّ نُسير إليكم رجلاً"[7]، وعلى ضوء ذلك اتفق الأمراء بالقاهرة على تنحية شجرة الدُّر، وإقامة مقدَّم العسكر عز الدين أيبك – الذي تزوج من شجرة الدُّر حديثا- على السلطنة تحت لقب " الملك المعز"، وقد تمَّ ذلك في ربيع الآخر 648هـ/ جويلية 1250م.[8]

[1] المماليك، هم جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقا إما نتيجة للأسر في ميادين الحرب أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية رغبة في بيعهم بأثمان مرتفعة، واقترن ذلك بالرقيق الأبيض دون السود، وكانت بلاد الترك في =وسط آسيا وأنحاء كثيرة من أوروبا ومن بحر البلطيق المصدر الرئيسي الذي يأتي منه المماليك، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 233/2، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص222، وانظر أيضا، فايد حماد محمد عاشور، **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي**، جروس برس للنشر، ط1، طرابلس – لبنان -، 1995م/ 1415هـ، ص 55.

[2] أبو الفداء، المختصر، 190/3، ابن واصل، مفرج الكروب، 371/2.

[3] أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 185.

[4] ابن خلدون، العبر، 807/5، 808، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 373/6

[5] المقريزي، السلوك، 361/1. ابن واصل، مفرج الكروب، 373/2.

[6] المقريزي، السلوك، 367/1، ابن خلدون، العبر، 5/ 808.

[7] المقريزي، السلوك، 368/1.

[8] المقريزي، السلوك، 1/ 368-369.

واجه المماليك في سبيل إقامة مجد لهم على حساب بقايا الأيوبيين صعوبات عديدة، أدَّت إلى تشكل جبهة معادية لسلطانهم في مصر كان مقرها بلاد الشام الشمالية، بقيادة الأمير الناصر أيوب، حيث دخلت الجبهتين في معارك كثيرة كادت أن تقضي على ما تبقى من القوات الإسلامية في مواجهة الأخطار الخارجية،(1) وعلى الرغم من محاولات الصلح بين الفريقين من طرف الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي الذي أوفده الخليفة العباسي المستعصم بالله إلا أن تشدد كل فريقٍ لموقفه حال دون تحقيق الصلح خلال سنتي 649هـ و 650هـ/ 1251م و1252م.(2)

إضافة إلى ذلك فقد واجهت المماليك سنة 651هـ/ 1253م عقبة أخرى في سبيل إحكام سيطرتهم على مصر تجلّت في خروج الجماعات العربية في كل من الصعيد والوجه البحري عن طاعتهم، رافضين سلطتهم عليهم، حيث ينسب إلى زعيم حركتهم الشريف خضر الدين الجعفري أنه قال:" نحن أصحاب البلاد"، وقوله أيضا:" أنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد"، إلا أنَّ تلك الحركة سرعان ما قضى عليها المماليك وأخمدوا جمرتها.(3)

زد على كل هذا ما وقع داخل البيت المملوكي من صراعات، خاصةً بعد استفحال أمر شخصية الأمير فارس الدين أقطاي الذي كان له الفضل في إنهاء تمرد القبائل العربية(4) مما زاد من نفوذه في دولة المماليك وصار مصدر تهديد لسلطة المعز أيبك، الأمر الذي أجبره على التخلص منه، فكان ذلك حين استدعاه إلى القلعة بحجة التشاور، ثم أمر بغلق الأبواب والأمر بقتله وحزّ رأسه ورميه إلى أتباعه الذين تجمهروا حول القلعة، فوجد هؤلاء بأن مقامهم بالديار المصرية لا طائل منه فتفرقوا بين الأقاليم، ومن بين هؤلاء بيبرس وقلاوون الذين قصدا الملك الناصر الأيوبي وأخذوا يحثانه على قصد مصر والاستيلاء عليها.(5)

ظنَّ المعز أيبك بأن الجو قد صفا له لبعث دولة المماليك دون عوارض، خاصة بعد تخلصه من كل العقبات الَّتي تلت قيامها، فأقدم على خطوة أكدت الأحداث فيما بعد أنها كانت وخيمة النتائج، ففي سنة 654هـ/ 1256م بعث إلى الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماه، وإلى

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/7، المقريزي، السلوك، 370/1.

(2) عبد المنعم غنيم، المرجع السابق، ص 411.

(3) المقريزي، السلوك، 386/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/7

(4) المقريزي، السلوك، 1/ 387.

(5) القلقشندي، صبحي الأعشى، 68/4 المقريزي، السلوك 388/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 10/7-11.

الملك الرحيم لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنتيهما لنفسه، فكان وقع ذلك كبيراً على زوجته شجرة الدُّر الَّتي أخذت تدبر لقتله.[1]

وفي ربيع الآخر 655هـ/أفريل 1257م تمكنت شجرة الدُّر بمعونة عدد من أتباعها من قتل زوجها الملك المعز بحمام قصره،[2] فثار على إثر ذلك مماليكه ودبَّروا مؤامرة شاركت فيها أم علي زوجة المعز السابقة وانتهت بمقتل شجرة الدُّر،[3] لتنتقل السلطة بعد المعز أيبك إلى ابنه علي وعمره وقتذاك إحدى عشر سنة[4] ويعين الأمير سيف الدين قطز أتابكًا له.[5]

شهدت الفترة ما بين (648هـ- 655هـ م/ 1250م-1257م) - منذ وفاة الملك تورنشاه الأيوبي ونهاية عهد الدولة الأيوبية وإلى مقتل السلطان المملوكي المعز أيبك- حالة من الجمود في حركة المقاومة لدى الجبهة المصرية، سواء على الجانب الصليبي الذي استغل فرصة الاضطراب على مستوى هذه الجبهة وعمل على استرداد بعض المدن الَّتي صارت ضمن النطاق الإسلامي في عهد صلاح الدين، أو حتَّى على الجانب المغولي الذي مكَّنه قيام ذلك الصراع بين بقايا الأيوبيين في شمال الشام والجزيرة والمماليك في مصر من إخضاع العديد من المدن الإسلامية رغم ما أبدته بعضها من مقاومة، كما ساعدهم ذلك في الوصول بحملاتهم إلى حاضرة الخلافة الإسلامية بغداد سنة 656هـ/1258م.

2-2-2 موقف المماليك من الزحف المغولي على بغداد وبلاد الشام (656هـ/ 658هـ/ 1258م – 1260م)

تخلَّص المغول من آخر سلاطين الدولة الخوارزمية سنة 628هـ/ 1231م، فصار المجال أمامهم بعد ذلك مفتوحا لإخضاع باقي الأقاليم الغربية من العالم الإسلامي، خاصة وأنَّ الوضع في باقي الأقاليم الإسلامية كالعراق والجزيرة والشام ومصر لم يكن بحال تسمح له بالوقوف في وجه الاجتياح المغولي، الذي واصل غايته في إذلال المسلمين وإحكام سيطرته على ممتلكاتهم، فاستولوا

[1] المقريزي، السلوك، 398/1

[2] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 375/6- 376، المقريزي، السلوك، 403/1.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 388/6، المقريزي، السلوك، 404/1.

[4] هو علي بن أيبك التركماني الصالحي، ثاني ملوك دولة المماليك البحرية في مصر والشام، ولي بعد مقتل أبيه سنة 656هـ ولقب بالمنصور، فقام بتدبير مملكته الأمير علم الدين سنجر الحلبي ثم الأمير سيف الدين قطز، وقد خلع بعد مكوثه في السلطنة سنتان وثمانية أشهر وثلاثة أيام، أنظر، الزركلي، الأعلام، 72/5، المقريزي، السلوك، 405/1- 417.

[5] حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 160.

خلال تلك السنة على العديد من المدن الإسلامية، مثل ديار بكر وماردين ونصيبين وسنجار، وأخذوا يعيثون فيها فسادًا دون أن يجدوا مقاومة من السكان، حتىَّ لأن ابن الأثير يذكر بعض القصص التي تشخص حالة الضعف والوهن التي ميَّزت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، منها قصة رجل مغولي قبض على أحد المسلمين ولم يكن معه في ذلك الوقت سيف، فأمره أن ينام حتى يأتي بسيفه فيقتله به، فلما عاد المغولي وجد الرجل لم يتحرك،[1]وإن كانت هذه القصة وغيرها لا تخلو من المبالغة إلى أنها تظهر لنا جليا مدى الضعف والوهن الذي كان عليه المسلمون في ذلك الوقت، كما وتدل على ما حل بالعالم الإسلامي من اضطراب وقلق.

واصلت القوات المغولية تقدُّمها في أقاليم العراق العربي وبلاد الجزيرة والأناضول، فاستطاعت إخضاع مدن أذربيجان الواحدة تلو الأخرى، كما استولوا بين سنتي (632هـ - 633م / 1224م- 1225م) على إقليم إربل[2] فخربوا حاضرته،[3] حتى إذا بلغوا بزحفهم إلى مدينة سامرا وجد الخليفة بأن الخطر المغولي صار يتهدد بغداد حاضرة المسلمين فاستعد لملاقاة المغول واتخذ خطة للدفاع، ودعا المسلمين للجهاد.[4]

ظلَّ المغول يشنون حملاتهم على بغداد قصد إخضاعها في عهد الخليفة المستعصم بالله (640هـ -656هـ / 1242م - 1258م)، لكنَّهم لم يوفقوا في ذلك حتى سنة 656هـ/ 1258م، على يد هولاكو، الذي عهد إليه أخوه الخاقان منكوخان التوجه إلى غرب آسيا لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن، فاستطاع هولاكو أن يكوِّن دولة قوية للمغول في فارس كما تمكَّن من كسب ولاء زعماء فارس والأتابكة والحكام المحليين.[5]

شرع هولاكو قبل توجهه إلى بغداد في القضاء على طائفة الإسماعيلية الَّتي كانت مصدر خطر لدولته في فارس، والَّتي لم يسلم المسلمون كذلك من تهديداتهم وهو الأمر الذي دفع بهولاكو

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 232/12- 233.

[2] اربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط وتقع بين الزابين جنوب شرقي الموصل، وتعد من أعمال الموصل وبينهم مسيرة يومين وأكثر أهلها من الأكراد وبينهما وبين بغداد مسيرة سبعة أيام قوافل، ياقوت، معجم البلدان، 1/ 137-138، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 438.

[3] الهمداني، جامع التواريخ، 352/1.

[4] حافظ حمدي، المرجع السابق، ص227.

[5] عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 203- 204، الخالدي، المرجع السابق، ص 83-85، الصياد، المغول في التاريخ، ص 232.

إلى طلب المدد من الخليفة العباسي عندما عزم على المسير إليهم في معاقلهم،[1] غير أنَّ رجال الخليفة حذروه من مغبة الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يقصد من ذلك إفراغ بغداد من جندها ليتمكن من السيطرة عليها،[2] ثم سار هولاكو بعد دحره للطائفة الإسماعيلية إلى همذان حيث أرسل في رمضان 655هـ/ سبتمبر1257م إلى الخليفة العباسي رسولاً يحمل كتابًا مصاغًا بقالب من التهديد والوعيد بسبب رفض الخليفة إرسال المدد،[3] لكنَّ ذلك لم يكن إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية في بغداد على غرار البويهيين والسلاجقة.[4]

رد الخليفة على تهديدات هولاكو بكتاب حذَّره فيه وتوعده من أن هو حاول غزو بغداد، بالرغم من أنه لم يكن يملك القوة اللازمة لمواجهة القوات المغولية، ليكون ذلك الأسلوب في الرد حافزًا لهولاكو لقصد بغداد، خاصة وأنه يعلم مدى ضعف موقف الخليفة على الأقاليم المجاورة له بعد أن دخلت جلُّها في طاعة المغول.[5]

وفي أوائل 656هـ/ 1258م أحكم المغول حاصرهم على بغداد فأطلقوا يد التخريب فيها، فلمَّا رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يثنيهم عن عزمهم في استكمال احتلال المدينة، فأرسل إليهم الهدايا القيمة، فلم يلتفت إلى محاولات الخليفة تلك، وواصل هجومه لتسقط المدينة في يديه بعد أن نكَّل بأهلها ودمَّر دورها وقصورها ومساجدها،[6] أمَّا الخليفة وأبناءه وحاشيته فقد اعتقلهم هولاكو حينا من الوقت ثم قتلهم[7] لتكون نهاية المستعصم بالله نهاية قصة دولة عمَّرت لأكثر من خمس قرون من الزمن.

---

(1) مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 158، العريني، المغول، ص 210.

(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 269.

(3) أنظر رسالة التهديد التي بعث بها هولاكو إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله في الملحق رقم: (02).

(4) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 203، الصياد، المرجع السابق، ص 258.

(5) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 204، الخالدي، المرجع السابق، ص 86- 87.

(6) يذكر المقريزي عن سقوط بغداد قوله: " وقتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار، وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوما، وأمر هولاكو بعد القتلى فبلغت نحو الألفي ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بها، وملك التتار إربل ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم"، أنظر، السلوك، 1/409-410، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/47- 51.

(7) أحمد مختار العبادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، دار النهضة العربية، 1406هـ/ 1986م، بيروت، ص 147.

كان لسقوط بغداد عاصمة الدولة الإسلامية ومقتل خليفتها بهذه الكيفية، إنما يبرز لنا بوضوح مدى ما آلت إليه أوضاع المسلمين من ضعف ووهن، فالخليفة العباسي انطلق في ردِّه على رسالة هولاكو خان من اعتقاده بأنَّ إقدام المغول على غزو بغداد حاضرة المسلمين كفيلٌ بدفع الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر إلى الانضواء تحت سلطانه، وأن إيران وتركستان وبلاد الجزيرة ستعلنان التمرد والعصيان على المغول.

على أن آمال الخليفة تلك كانت خادعة، فالأيوبيون في الشام والمماليك في مصر قد توافر لديهم من المشاكل ما يمنعهم من النهوض لمساعدة بغداد، كما وأنَّ الأتابكة الترك والفرس لن يتحركوا لمساعدة الخليفة بعد أن استبدَّ بهم الخوف والرعب من المغول،[1] فكانت النتيجة أن واجهت بغداد مصيرها لوحدها ونالت نصيبها من التدمير والتخريب وإفناء الأرواح على يد خلفاء جنكيزخان.

وجَّه هولاكو – بعد إخضاعه بغداد– أنظاره صوب بلاد الشام، التي كانت موزَّعة بين أفراد البيت الأيوبي وكان فيها الملك الناصر يوسف أكثر هؤلاء قوة واقتدارًا،[2] فأرسل هولاكو إلى الملك الناصر يطلب منه المجيء إلى حضرته والخضوع لسلطته،[3] غير أنه لم يجبه وبعث إليه أحد أولاده محملاً بالكثير من الهدايا والتحف، آملا في أن يسترضيه ويصرفه بعيدًا عن بلاد الشام،[4] فكان لهذا السلوك وقعٌ على هولاكو وأغضبه فكتب إليه يُعلمه بأنه سائر إليه بنفسه.[5]

تحرَّك الجيش المغولي في رمضان 657هـ/جويلية 1259م من أذربيجان صوب بلاد الشام، فتمكن في طريقه من الاستيلاء على العديد من مدن الجزيرة والَّتي كانت تحت سلطة أمراء من بني أيوب، كما ضرب على ميافارقين حصارًا أبدا فيها أهلها مقاومة باسلة لم يشهد المغول مثلها قبلاً، فاستمر ذلك لعدة شهور سقطت بعدها المدينة في يد يشموط بن هولاكو – وكان ذلك بعد سقوط حلب–،[6] كما تمكَّن هولاكو من إخضاع ماردين ونصيبيين واستسلمت له حرَّان والرها، واستولى

---

(1) الباز العريني، المغول، ص 216- 217.

(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 277، فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 91، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 420.

(3) أنظر: رسالة هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب في الملحق رقم: (03)

(4) المقريزي، السلوك، 1/ 410- 411.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، 215/13.

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 91/1.

على سروج والبيرة ومنبج، فصارت القوات المغولية بعد أقل من سنة من حملتها على بلاد الشام على أبواب مدينة حلب أهم مدن الشام في الجزء الشمالي.[1]

كانت حلب تابعة للملك الناصر، وكان النائب عنه فيها الملك المعظم تورنشاه بن السلطان صلاح الدين، حيث قصدها المغول في أواخر محرم 658هـ/ديسمبر1259م، ثم أرسل هولاكو إلى حاكمها إنذارا بعدم المقاومة وبضرورة التسليم دون شروط، فلم يُجب تورنشاه إلى تهديده وأمر بالتحصن في المدينة وعدم الخروج منها، مما دفع بالقائد المغولي إلى تشديد الحصار عليها وقذفها بالمجانيق، حتَّى اضطر حاكمها إلى تسليمها مقابل التأمين على حياة سكانها،[2] فدخلها المغول واستباحوها سبعة أيام، قتلوا خلالها خلقًا كثيرًا امتلأت بهم الطرقات، أمَّا الأسرى فقد وصل بعض المؤرخين بعددهم إلى ما يزيد عن مائة ألف من النساء والصبيان.[3]

وهكذا، وعلى إثر سقوط مدينة حلب في أيدي المغول، سارع بقية الأمراء الأيوبيين في إيفاد رسلهم إلى هولاكو لتقديم فروض الطاعة والولاء وتجنُّب ما وقع لحلب، فكان من هؤلاء صاحب حماة وحمص ومعرَّة النعمان،[4] ليسقط بذلك القسم الشمالي من بلاد الشام في أيدي المغول دون أن نلمس لدى الأمراء الأيوبيين جهودًا لمقاومة هذا الغزو، بل أن مسارعة هؤلاء في الإستسلام لهولاكو والخنوع له، قد كان له دور في إستكمال حملته على مدن الجزء الجنوبي والتطلع بعد ذلك للديار المصرية.

تقدَّم المغول جنوب بلاد الشام، حتَّى وصلوا إلى دمشق فلم يجدوا فيها من يُدافع عنها، بعد أن فرَّ صاحبها الملك الناصر مع أهله قاصدًا غزة علَّه يجد الأمان الذي وعده به سلطان المماليك بمصر،[5] إلا أن قُطز قد خشي من التفاف بقايا الأيوبيين في مصر حوله، فتركه هائمًا إلى أن وقع في قبضة المغول وبقي معهم في ذلٍّ وهوان حتَّى كانت نهايته بالقتل بأمر من هولاكو،[6] وأمَّا أهل دمشق فقد خشوا أن يلقوا نفس مصير مدينة حلب إذ حاولوا المقاومة، لذا سارع ذوو الرأي

---

[1] فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص 292- 294. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 92- 93.

[2] فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص294، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، 152.

[3] المقريزي، السلوك، 422/1، ابن كثير، البداية والنهاية، 218/13، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 349/1.

[4] المقريزي، السلوك، 423/1- 425، 433، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 279، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 349/1.

[5] المقريزي، السلوك، 415/1-416، أبو الفدا، المختصر، 209/3-210.

[6] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 77/7، 203-204، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 1/ 351- 352.

والوجهاء منهم إلى هولاكو وقدَّموا له الهدايا والتحف وسلَّموه مفاتيح المدينة، فدخلها دون إراقة الدماء.[1]

وهكذا فقد تبيَّن لنا من خلال عرضنا لكيفية استيلاء المغول على إقليم بلاد الشام أنَّ أصحاب السلطة فيه وهم الأيوبيون لم يقوموا بواجبهم في مقاومة ذلك الغزو، بل أنّهم رسموا صوراً من الذُّل والخنوع شوهت تاريخ دولتهم التي أسسها صلاح الدين والتي حققت العديد من المكاسب، جاء ذكرها في كتب المؤرخين المسلمين والإفرنج، وأمَّا المماليك الذين ظلّوا يعتبرون بلاد الشام خارج نطاق نفوذهم إلى هذا الحين، وبالتالي لا مجال للتدخل في مواجهة المغول، فقد صاروا في وجه الخطر المغولي بعد وصول قواتهم إلى ذلك الحدِّ من التقدم في الجنوب، فصار لزامًا على المماليك الإستعداد لمواجهته.

3-2-2 موقعة عين جالوت ونهاية قصة المغول (658هـ/ 1260م)

بلغت القوات المغولية المتتبعة للملك الأيوبي الناصر إلى حدود غزَّة، وهي باب مصر من ناحية الشرق، فبات من المؤكد أن يجري الاحتكاك بين التتار ودولة المماليك الإسلامية في مصر، إذ أن طموحات هولاكو خان لم تكن لتوقف توسعه عند حدود جنوب بلاد الشام، بل طمع في إخضاع الديار المصرية كذلك.[2]

وفي مصر فقد ولّي المظفر قطز أمور السلطنة فيها، بعد أن وقف رجال الدولة على ضعف شخصية الملك المنصور علي بن المعز أيبك وصغر سنه، وعدم مقدرته على تسير الدولة في ظلِّ ما تشهده من خطر تقدم القوات المغولية،[3] وكان ذلك في ذي القعدة 657هـ/ أكتوبر1259م، غير أن تولّي قطز الملك في مصر قد صاحبه العديد من الأخطار، أبرزها اعتراض بعض الأمراء الذين كانوا في رحلة صيد على قيامه بانتزاع السلطة من المنصور علي، إضافة إلى استمرار ذلك الصراع القائم بين المماليك والأيوبيين في الشام.

تمكّن السلطان قطز من إزالة تلك العوارض التي واجهت تولّيه السلطة، حيث استطاع إقناع هؤلاء الأمراء الذين رفضوا توليه السلطنة، بكونه قام بذلك الفعل حفاظًا على الدولة من خطر المغول وكذا الأيوبيين، فمما قال لهم:" إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتّى ذلك

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 80/7.

[2] محمد فتحي الشاعر، مصر قاهرة المغول، ص 39.

[3] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 72، حمدي عبد المنعم محمد حسين، المرجع السابق، ص 162.

بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم"،[1] كما وأن سلطة الأيوبيين التي ظلَّت تعكر صفو دولة المماليك قد زالت على أيدي التتار.

والحقيقة أن المظفر قطز قد كان رجلا سياسيًا حكيمًا وقائدًا بارعا، حرص بمجرد أن تولَّى الحكم على رفع الروح المعنوية للمسلمين، وبخاصة الأمراء الأيوبيين، حيث دعاهم إلى التضامن والتآزر في سبيل القضاء على العدو المشترك،[2] ومما يبرز لنا ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى الملك الناصر يوسف أيوب – حين عزم هولاكو على غزو بلاد الشام – جاء فيها " ...وإن اخترتني خَدَمتُك، وإن اخترت قَدِمْتُ ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيَّرتُ إليك العساكر صحبة من تختاره"[3]

وعلى كل حال فقد سارت أحداث ذلك الغزو إلى الحدِّ الذي صارت فيه قوة المغول وقوة المماليك الناشئة على خط المواجهة المباشرة، فكانت أولى الخطوات الَّتي حددت طبيعة سير العلاقات بين الجانبين، تلك الرسالة التي بعث بها هولاكو خان – قبل عودته إلى قرة قورم–[4] إلى السلطان المملوكي المظفر قطز والتي تحمل في طياتها كل معاني التهديد والوعيد، يدعوه فيها إلى الاستسلام، وتقديم فروض الطاعة والولاء للمغول.[5]

بعد وصول رسل التتار إلى القاهرة حاملين كتاب هولاكو، وبعد إطلاع السلطان قطز عليه، سارع إلى عقد مجلس للمشاورة ضمَّ الأمراء وأهل الرأي والمشورة والعلماء والقضاة، وأعلمهم بما وصل إليه من هولاكو، ثم وضع أمامهم ثلاثة خيارات عليهم الاتفاق على واحد منها،[6] وهنا لا بد لنا أن نتوقف عند هذه المحطة لنؤكد ما كنا قد ذكرنا قبلاً في شخصية السلطان قطز، إذ برهن على حنكته وحسن تدبيره وبأن تسلطنه على البلاد المصرية كان له دور إيجابي ليس على مصر فقط وإنَّما على العالم الإسلامي كُلِّه، فهو بعقده هذا الاجتماع ومناقشته لأمر الغزو المغولي مع أمرائه وأصحاب

---

[1] المقريزي، السلوك، 417/1-418

[2] أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 152، محمد فتحي الشاعر، مصر قاهرة المغول، ص 40- 42.

[3] المقريزي، السلوك، 418/1، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، 3/ 208.

[4] وصلت إلى هولاكو – وهو بالشام- أخبار تنبئه بوفاة أخيه الأكبر خاقان المغول منكوخان، فأسند قيادة جيوشه في الشام إلى كتبغانوين ورحل مسرعا إلى القورلتاي (مجمع زعماء المغول) في العاصمة قرة قورم، حيث تجرى الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد، أنظر: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،ص 491- 493.

[5] أنظر: خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان إلى سلطان المماليك بمصر سيف الدين قطز في الملحق رقم: (04)

[6] فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 105، الصياد، المغول، ص 304، أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 158.

الشأن في الدولة قد تخلَّى عن سلبية لا طالما ميَّزت الحكام السابقين في الأقاليم الإسلامية الذين إما آثروا الفرار كعلاء الدين خوارزم شاه والملك الناصر أيوب، وإمَّا تصرفوا على هواهم وسلَّموا مدنهم دون مقاومة، وهم كثر.

خيَّر السلطان قطز المجتمعين معه في مجلس المشاورة وقال لهم:" ينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحدا من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن..."، إلا أنَّ الرأي قد استقر على ضرورة مقابلة وعيد التتار بالاستعداد للقتال، بعد أن وقفوا على عدم إمكانية التعويل على الخيار الأول والثالث، فأمَّا الأول فإن المغول لا يوفون بعهودهم ولا يلتزمون بمواثيقهم، وأمَّا الثالث فليس أمام المماليك سوى بلاد المغرب إن هم آثروا الفرار على الديار المصرية، والمسافة بينهما بعيدة.[1]

أمر السلطان قطز بقتل رسل هولاكو، وأصدر أوامره بجمع الجيوش وحثَّ الناس على الخروج لمواجهة المغول وتجنيب مصر ما وقع للأجناد الإسلامية الأخرى من تخريب وتدمير، لتكون هذه الخطوة إعلانا صريحا من المماليك لموقفهم من الرسالة التي بعث بها هولاكو لهم،[2] إلا أن قطز واجه بعض المشاكل في سعيه إلى تجييش الجميع في حربه المنتظرة ضد المغول، إذ تكاسل بعض الأمراء عن الخروج خوفًا ورهبة من بطش قوات هولاكو، فكان موقف السلطان بأن قال لهم: " يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين".[3] وقد كان لكلام قطز أثرٌ في نفسية هؤلاء الأمراء فعدلوا على تخاذلهم وانضموا إلى القوات المملوكية.

بعد أن أتمَّ السلطان استعداداته للخروج إلى ملاقاة التتار، شرع في الحركة إلى جهة فلسطين، وجعل على مقدمة الجيش الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري،[4] الذي تقدَّم لاستطلاع أخبار

---

(1) فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 106

(2) الكتبي، **فوات الوفيات**، تح، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973، 86/1.

(3) المقريزي، السلوك، 429/1

(4) ذكرنا من قبل أن الظاهر بيبرس كان من بين رجال فارس الدين أقطاي، الذي تخلص منه المعز أيبك التركماني، بعد ازدياد نفوذه في مصر، فكان أن فر بيبرس إلى الشام حيث الملك الأيوبي الناصر يوسف، هذا الأخير الذي رفض لبيبرس طلبا بمنحه أربعة آلاف فارس للتوجه بها صوب شط الفرات ليمنع التتار من عبوره، فلم يمكنه الناصر من ذلك، ففارقه وقدم إلى مصر، أنظر، الكتبي، فوات الوفيات، 1/ 86.

العدو وكشف تحركاته، في حين أن مقدمة الجيش المغولي كانت بقيادة" بايدر"، وكانت هذه القوة تحتل غزة، فحين رأى هذا القائد القوات الإسلامية، أرسل إلى كتبغا – نائب هولاكو على الشام- طلبا للنجدة، لكن بيبرس لم يمهله حتَّى يصله المدد، فبادر بالهجوم، وانكسر التتار وطاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، فكان لهذا النصر أثر في ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين الذين كانوا في وقت ليس ببعيد يرون في المغول قوما لا يعرف الهزيمة إطلاقًا، وُعدَّ هذا النصر أيضا مقدمة لنصر في الأفق.[1]

لما علم كتبغا بما وقع لجيشه في غزة، جمع الأمراء الذين دخلوا في طاعته في بلاد الشام والجزيرة، وطلب مشورتهم في أمر زحف القوات المملوكية على جنوب الشام، فتضاربت الآراء بين مشير إلى انتظار المدد من هولاكو قبل المواجهة، وبين حاثٍّ على ضرورة وضع حدٍّ لقوة المماليك،[2] إلى أن استقر رأي كتبغا على القتال، فأخذ يجمع التتار الذين كانوا قد تفرَّقوا في بلاد الشام، فزادوا عن الثلاثين ألف مقاتل.[3]

وفي الخامس والعشرين من شهر رمضان 658هـ/02 سبتمبر1260م، وفي قرية عين جالوت[4] الواقعة بين بيسان[5] ونابلس من أرض فلسطين التقى الجمعان، وفي قلوب الناس وهنٌ عظيم من التتار، فتقاتل الفريقان قتالا شديداً لم يشاهد مثله، حتَّى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة، ورغم انكسار ميسرة القوات الإسلامية، إلا أنَّ مواصلة السلطان قطز تشجيع الجنود بصيحات " واسلاماه"، شدَّت من عزائم المسلمين، واستمر القتال إلى منتصف الليل من ذلك اليوم، لتنتهي المعركة بنصر مظفَّر للمسلمين، وقتل كتبغا قائد المغول ومن وقف إلى جنبه في تلك الموقعة من أمراء المسلمين.[6]

---

(1) المقريزي، السلوك، 313/1، الهمذاني، جامع التواريخ، 430/1.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 78- 79.

(3) فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص 110.

(4) عين جالوت: بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس، من أعمال فلسطين، كلن الروم قد استولت عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين سنة 589/ 1169م، ياقوت، معجم البلدان، مج3، 369/6، أنظر الخريطة رقم (06).

(5) بيسان: مدينة صغيرة بلا سور، ذات بساتين وأنهار وأعين، وهي على الجانب الغربي من الغور، وهي كثيرة الخصب ولها من جملة أنهرها، نهر صغير من عين تشق المدينة، وبينها وبين طبرية ثمانية عشر ميلا،وهي في الجنوب عن طبرية، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 263.

(6) المقريزي، السلوك، 430/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 78- 79، القلقشندي، صبحي الأعشى، 36/4، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعلى هذا فإن قصة ذلك الزحف الذي شهده المشرق الإسلامي من قبل المغول، منذ سنة 615هـ/ 1218م، دون أن يجد من يقف له الند للند لوقفه، قد انتهى على يد هذه دولة الناشئة، فكانت مواقف السلطان قطز والقائد بيبرس أبعد ما تكون عن مواقف الأمراء الأيوبيين المتأخرين وبعض الأتابكيات في بلاد الجزيرة، كما وأنها كانت أقرب ما تكون إلى تلك البطولات التي رسمها عماد الدين زنكي ونور الدين الشهيد وصلاح الدين، لتعيد بذلك هذه الدولة جبهة المقاومة الإسلامية في مصر وفلسطين التي تعطل دورها بعد وفاة هؤلاء الرجال العظام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـل الرابع:

الدراسة المقارنة بين العدوان الصليبي والمغولي على المشرق الإسلامي (490هـ- 658هـ/ 1096م- 1260م)

1- من حيث دوافع العدوان وأسبابه

2- من حيث ردود فعل المدن الإسلامية ومقاومتها للعدوان

3- من حيث نتائج العدوان وآثاره على المسلمين والصليبيين والمغول

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- من حيث دوافع العدوان وأسبابه

1-1 الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامي

شهد المشرق الإسلامي خلال العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حملات شنَها الغرب الإفرنجي، تلبية لنداء البابوية في تخليص الأماكن المسيحية المقدسة في بلاد الشام من سيطرة المسلمين، مُدَّعية في ذلك بأنَّ الحجاج النصارى الذين يقصدون هذه الأماكن يتعرضون لمضايقات وسوء المعاملة من قبل السكان المسلمين، بل وادعوا بأنّهم ينتهكون حرمات تلك الأماكن، فكان لذلك أثره البالغ في تجهيز أوروبا نفسها للقيام بتلك الحملات التي اصطلح عليها فيما بعد بالحروب الصليبية.[1]

إضافة إلى هذه الحملات القادمة من أوروبا والّتي قصدت بلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد عرف العالم الإسلامي عدواناً آخر، قام به المغول على الجزء الشرقي منه، خلال العقد الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث استمر زحف ذلك الغزو إلى أن سقطت بغداد حاضرة المسلمين في أيديهم سنة 656هـ/ 1258م وأحكموا قبضتهم على بلاد الشام وصاروا على مشارف الديار المصرية.[2]

والحقيقة أن أي غزو أو عدوان يقوم به طرف ما، تكون له أسبابه، فلا يُعقل أن يتجهَّز جيش لقتال جيش آخر دون سبب يدفع كليهما إلى القتال، وهو ما كان لدى كل من الإفرنج والمغول الذين قاموا بتلك الحملات على بلاد الإسلام، فشعار الحرب من أجل الصليب واسترداد الأماكن النصرانية المقدسة من المسلمين كان سبباً للبابوية في حشد جهود الغرب الأوروبي للقيام بتلك الحملات، بغض النظر عن الدوافع الحقيقية لها،[3] أما جنكيزخان فقد جعل من حادثة مقتل التجار على يد حاكم ولاية أترار ينال خان الخوارزمي، ورفض السلطان علاء الدين خوارزمشاه طلبه بالقصاص منه سبباً للانتقام والمسير إلى بلاد المسلمين لتحقيق ذلك.[4]

غير أنَّ تلك الأسباب الّتي كانت وراء قيام كل من الإفرنج والمغول بهذه الحملات، لم تكن لتأخذ تلك الأهمية وتتحول إلى هدف يُجمع عليه الكل في ذلك العدوان، لولا العديد من الظروف

---

(1) أرنست باركر، المصدر السابق، ص 15-16، مؤنس، نورالدين محمود، ص 64.

(2) المقريزي، السلوك، 1/409-410، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/47-51.

(3) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 159.

(4) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 78، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 135.

التي هيأت أجواءه، وبخاصة الأوضاع السياسية التي كان عليها المشرق الإسلامي، فإذا نظرنا إلى السبب الذي تبنته البابوية وجدنا بأنَّه لا يعدو أن يكون غاية لأجل توحيد جهود كافة طبقات المجتمع الإفرنجي للقيام بتلك الحملات، إذ أن الأماكن المقدسة قد ظلَّت تحت السيطرة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأين كانت البابوية من إدعاءات الحجاج النصارى قبل هذا، كما وأن سوء التفاهم والحوادث العارضة الَّ ، تحدث بين الحين والآخر بين القوى المجاورة لبعضها البعض كثيرة وغالبًا ما تُحلُّ بطرق سلمية، خاصة وإذا كان الطرفين متكافئي القوة، ولهذا فإن اتخاذ جنكيزخان لتلك الحادثة ذريعةً في غزوه للعالم الإسلامي لا يمكن التسليم به على أنه السبب الوحيد وراء الغزو.

وعلى ذلك فإن من أهم الدوافع التي جعلت الصليبيين والمغولُ يقدمون على القيام بتلك الحملات، ماكان عليه العالم الإسلامي من تفرُّق وانقسام وصراع بين مختلف القوى التي حكمت فيه خلال تلك الفترة، فالخليفة العباسي في بغداد قد أخذ نفوذه يضعف على أقاليم الدولة الإسلامية ولم يعد له فيها سوى الخطبة الَّتي أسقطها كثيرٌ ممن كان يتخذ المذهب الشيعي عقيدة له،[1] كما وأن السلطة في بغداد قد صارت بحكم مزدوج بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين، وشيئًا فشيئًا استأثر السلاجقة بالحكم وصار الخليفة معهم هيكلاً دون روح.[2]

كان لذلك الضعف الذي ميَّز الخلفاء العباسيين المتأخرين أثره في قيام الصليبيين والمغول بتلك الحملات، إذ أنَّ الصراعات التي ظلَّت السمة الغالبة على تاريخ العلاقات بين السلطة الروحية (الخلفاء العباسيون) والسلطة الزمنية (السلاطين السلاجقة)، كان لها دور في إضعاف جهود القوات الإسلامية في المواجهة، كما وأنَّ قوة تلك الجيوش غالبًا ما كانت تُستنزف ضمن تلك الصراعات.[3]

ويزيدنا ابن الأثير تأكيدً على دور الخلفاء العباسيين في تهيئة أجواء ذلك العدوان ما أورده عن الخليفة العباسي الناصر لدين الله بأنَّه التجأ إلى جنكيزخان طلبا لعونه على علاء الدين خوارزم شاه حين أقدم هذا الأخير على غزو بغداد ونزع الخلافة من العباسيين سنة 615هـ/ 1218م،[4]

[1] ابن الجوزي، المنتظم، 210/8، ابن كثير، البداية والنهاية، 84/12، الذهبي، العبر، 212/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 451/5.

[2] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 667، ابن الأثير، الكامل، 10/ 22.

[3] ابن الجوزي، المنتظم، 61/9-62، ابن الأثير، الكامل، 21/10-22،

[4] ابن الأثير، الكامل، 440/12.

فكانت تلك الرسالة دعوةً صريحة من الخليفة لغزو ديار الإسلام، كما وأبرقت لجنكيزخان مدى ضعف الخليفة الإسلامي ومدى الإنقسام الذي كانت عليه القوى الإسلامية.

لم تكن القوى الإسلامية التي حكمت قبل وأثناء العدوان الصليبي والمغولي على العالم الإسلامي بأحسن حال من دار الخلافة، فقد شهدت أزمات داخلية وصراعات خارجية جعلتها تضعف عن المواجهة لثني الأعداء عن أخذ أقاليمها فضلاً عن تكوين جبهات مقاومة تسترد ما تمَّ الاستيلاء عليه، فالفاطميون في مصر ظلُّوا طيلة تأسيس دولتهم يعملون على إقامة خلافة شيعية بدل الخلافة العباسية، مما جعلهم يدخلون في صراعات مريرة مع العباسيين ثم مع السلاجقة على مناطق النفوذ في بلاد الشام،[1] فأدَّى ذلك إلى إضعاف قواهم أمام الجيوش الصليبية.

والأخطر من كل هذا أنَّ الفاطميين قد كانوا عونًا للصليبيين في كثير من الأوقات لتحقيق مخططاتهم وذلك بالتحالف معهم ضد القوى الإسلامية الأخرى، كما فعلوا أيام حصار أنطاكية سنة 492هـ/1097م،[2] إضافةً إلى سوء أحوالهم الداخلية والصراع الذي كان قائمًا بين الوزراء والخلفاء، وهو ما ساهم بشكلٍ كبير في ضعف مواقفهم من الحملات الصليبية على بلاد الشام.[3]

وإذا كان وضع مصر السلبي هذا قد زال مع زوال الدولة الفاطمية واعتلاء بنو أيوب العرش في مصر، فإن السلبية قد عادت لهذا الجُند من أجناد الدولة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، حيث عرف البيت الأيوبي صراعات مريرة بين أبنائه جعلتهم غير قادرين على إكمال مهمة صلاح الدين في طرد الصليبيين من ديار الإسلام، بل أنَّ وضعهم ذاك حال بينهم وبين المساهمة في رد الغزو المغولي الذي ابتدأ حملاته سنة 615هـ/ 1218م، حتَّى أنَ هولاكو خان لم يواجه أدنى صعوبة في الاستيلاء على بلاد الشام – كانت تحت سلطة الملك الناصر الأيوبي – حين سار إليها بجيوشه.[4]

إضافة إلى كل هذا فإن السلطنة السلجوقية قد عرفت اضطرابًا شديدًا بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (485هـ/ 1092م)، حيث انقسمت إلى دويلات يحكم كل منها أتابك، وصارت كل أتابكية وكأنَّها دولة مستقلة بإقليمها ترمز إلى اتجاه سياسي لا يتفق في الغالب

---

(1) خاشع المعاضيدي وآخرون، المرجع السابق، ص11، أحمد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص 143.

(2) ابن الأثير، الكامل، 275/10، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 220- 221.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 141/5-142، المقريزي، الخطط، 356/1، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 2/8-3.

(4) الحريري، الإعلام، ص44، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 120/6-121، اسمت غنيم، المرجع السابق، ص 58، ابن واصل، مفرج الكروب، 87/3- 89.

مع اتجاه غيرها من الأتابكيات،[1] فسهَّل ذلك على الصليبيين والمغول مهمة الإستيلاء على تلك الأقاليم وإخضاعها بسبب تفرُّق كلمتهم وقِلَّة الجند والعُدَّة التي كانوا يدافعون بها على أقاليمهم.

وكمثال على ذلك نذكر بأن أتابكة الموصل قد برزت ردود فعلها من العدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة على عهد كربوغا حين واجهت القوات الإسلامية الصليبيين المحاصرين لأنطاكية سنة (491هـ/1097م)[2] في حين أن أتابكة حلب قد انضمت إلى حركة المقاومة الإسلامية على عهد آقسنقر البرسقي حين ضمها إلى الموصل سنة (518هـ/ 1225م)[3]، وأمَّا أتابكة دمشق فقدكان انضمامها على عهد نورالدين محمود بعد أن ضمَّها إلى حلب سنة (549هـ/ 1154م)،[4] فلو أن تلك المدن كانت تحت سلطة واحدة وساهمت مساهمة مشتركة في بداية الحملات الصليبية لرُبمَّا كانت نهاية الصليبيين قبل أن يؤسسوا كيانات لهم في بلاد المسلمين.

وفي الشرق أيضا حيث كان منطلق الزحف المغولي على العالم الإسلامي، نجد بأن أتابكة فارس وخراسان قد انشغلوا عن العدوان الصليبي[5] بالقضاء على طموح الخوارزميين في إقامة كيان لهم على حساب دولة السلاجقة المنهارة، فحدثت بين القوتين صراعات وحروب عديدة أضعفت بشكل بالغ من قدراتهما العسكرية، وجعلتهم غير قادرين على رد الأخطار الخارجية، حتَّى أن جنكيزخان لما أقدم على غزو الدولة الخوارزمية لم يجد من سلاطينها مقاومة تذكر[6].

زيادة على كل هذه السلبيات التي ميَّزت المشرق الإسلامي، فقد كان للطائفة الإسماعيلية دور بارز في تعميق الإنقسام داخل المسلمين، بل أنَّ خطرها كان أفدح من خطر كل من الصليبيين والمغول، فهذه الطائفة كانت تستخدم كل الوسائل لتحقيق غايتها في نشر مذهبها، وكانوا لا يترددون في قتل كل من يقف في وجه تحقيق غايتهم تلك،[7] كما وأنهم حالفوا في كثير من الأحيان الصليبيين والمغول على حساب المسلمين وسهَّلوا عليهم مهمة تحقيق مخططاتهم، فهم من وقفوا إلى

---

(1) حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 32.

(2) ابن خلدون، العبر، 5/40-41، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 218.

(3) أبو شامة، الروضتين، 1/75، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/228.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 504-505.

(5) نلاحظ بأن طموح الخوارزميين في إقامة دولة لهم قد عاصر بدايات الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، - 490هـ/ 1096م- وهو ما يفسر لنا عدم مشاركة الشرق الإسلامي مع بلاد الشام والجزيرة ومصر لرد ذلك العدوان، إذ أن الصراعات والحروب التي ميزت تلك المنطقة لم تكن لتسمح للقوى الإسلامية فيها بتوجيه جهودهم نحو حملات الإفرنج.

(6) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 207، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 26-27.

(7) الغزالي، فضائح الباطنية، ص 11، الشهرستاني، الملل والنحل، 1/192.

جانب الصليبيين ضد نورالدين محمود وكذا صلاح الدين، وهم أيضًا من راسلوا المغول وأطلعوهم على مدى ما وصل إليه الخوارزميون من ضعف وحَثُّوهم على غزو بلادهم.(1)

ومن هنا فإننا نخلص إلى التأكيد على ضرورة مفادها أن الوضع السياسي في العالم الإسلامي قد كان أهم عاملٍ وفَّر للصليبيين والمغول مجالاً خصبًا مكّنهم من تحقيق مخططاتهم على أرضه، إذ وعلى الرغم من أنَّ الوضع الذي ساد المجتمعين الإفرنجي والمغولي خلال تلك الفترة قد لعب هو الآخر دورًا في قيام تلك الحملات، إلا أنَّ نتائجها القياسية وردود الفعل الإسلامية الأولية عليها أبانت بما لا يدعو للشك أن الدافع الأول كان أقوى من الثاني، فلو توافر للمسلمين من القوة والإتحاد والاستقرار السياسي مثلما كانوا عليه في عهد الدولة الإسلامية الأولى لما تجرَّأ هؤلاء على غزو أقاليمه وما كانوا ليحققوا ما عزموا عليه خلال تلك الحملات.

2-1 أحوال الصليبيين والمغول قبيل العدوان

لم يكن الوضع السياسي الذي ميَّز المشرق الإسلامي خلال فترة العدوان الصليبي والمغولي بالدافع الوحيد الذي حرَّك تلك الحملات – رغم أهميته– إذ أنَّه قد توافر لدى المجتمعين المغولي والصليبي على غرار باقي مجتمعات العصور الوسطى من الأوضاع المتردية، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيًا ما كان له حافز قوي على دفع شعوب هذين المجتمعين إلى المشاركة في تلك الحملات رغبة في التخلص من أوضاعهم التي كانوا يعيشونها في بلدانهم، وبحثا عن حياة أفضل في أقاليم العالم الإسلامي.

فالحياة الإجتماعية الَّتي كان يحياها الإفرنج والمغول وإنْ كانت مختلفة المقومات فإنَّ طبيعتها كانت واحدة، إذ جعلت أفراد المجتمع مقسمين إلى طبقات متباينة الثروة والسلطة، وخلقت الكثير من الفوارق بينهم، دفعت بهم في كثير من الأحيان إلى التصارع والتطاحن، ومن ثمَّ التوجه بصراعاتهم تلك نحو الأقاليم المجاورة لهم،(2) فالنظام الإقطاعي في أوربا العصور الوسطى قد جعل من أدنى طبقاته (الأقنان) تعيش حياة بؤس وذلْ نتيجة ما كان يفرض على هؤلاء من ضرائب والتزامات وخدمات اتجاه أسيادهم الإقطاعيين.(3)

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 12/ 470، 495-496.

(2) Hoyt (s) & Chodorow (s), op. cit, p320 ، عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص 11، الخالدي، المرجع السابق، ص72.

(3) Poissonnade (p), op.cit, 145.، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 43.

وفي منغوليا، فقد ساهمت الطبيعة القبلية والعصبية التي كان عليها أفراد المجتمع في وقوع العديد من النزاعات بين تلك القبائل، مدفوعين في ذلك بفقر البيئة التي يعيشون عليها وبحاجتهم إلى مواطن الأكل والمياه لهم ولماشيتهم وأغنامهم،[1] فكان لطبيعة حياتهم الإجتماعية تلك دور بارز في دفعهم إلى المشاركة في تلك الحملات الّتي قادها جنكيزخان وخلفاؤه، بغية التمتع بمكنونات الحضارة التي حققتها الشعوب المجاورة لهم (الصينيين والمسلمين)، والتخلّص من الحياة البدائية التي كانوا يحيونها.

وقد زاد من سوء أوضاعهم ماعية ما عاشته تلك المجتمعات من ظروف إقتصادية قاهرة، كانت سببًا في كثير من الصراعات بين أفرادها، حيث شكلت الظروف المناخية التي عاش فيها المغول عائقًا أمام استقرار السكان، وكان لها أثر في الحياة النباتية التي كانت مصدر الرزق الأساسي لهم باعتبارهم يمتهنون حرفة الرعي، فكانوا على ذلك مدفوعين إلى التنقل من مكان لآخر بحثًا عن مواطن الكلأ لماشيتهم، ممَّا جعلهم في نزاعات دائمة مع القبائل الأخرى،[2] أمَّا في الغرب الأوروبي فقد شهدت فترة القرن 5هـ/11م تفشيا للأوبئة والأمراض، وحلّت بهم الكوارث الطبيعية كالفياضانات فأضرَّت بالمحاصيل الزراعية أشدَّ الضرر، مما جعل غالبية سكان غرب أوروبا يعيشون تحت وطأة الفقر والمجاعات، كمَّا وزاد من تأزُّم الوضع التسلط الذي كان يُمارسه الأمراء الإقطاعيين على الأقنان والحروب الّتي عادةً ما تكون بين هؤلاء الأمراء.[3]

وعليه فمن غير المنطقي إهمال الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية الّتي عايشها أفراد المجتمعين المغولي والأوروبي قبل وأثناء قيامهم بالعدوان على العالم الإسلامي، فالبابا أوربان الثاني قد تعمَّد العزف على وتر الأوضاع التي كانت تعيشها العامة وأمراء الإقطاع لحشد جميع الجهود في سبيل القيام بتلك الحملات،[4] وكذلك فحال أفراد المجتمع المغولي المتبربرين الذين لايفقهون من الحضارة شيئا لم يكونوا ليتركوا فرصة التمتع بمباهج الحضارة الصينية والإسلامية تضيع حين عزم جنكيزخان على توسيع إمبراطوريته على حسابهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) العريني، المغول، ص 38، مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 72.

(2) الصياد، المرجع السابق، ص 329، عكاشة، المرجع السابق، ص 19- 20.

(3) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 22، يوشع براور، المرجع السابق، ص 17، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 41.

(4) أنظر: خطاب البابا أوروبان الثاني، الملحق رقم: 01

وسياسيًا كذلك، فعلى الرغم من اختلاف نظام الحكم عند المجتمعين الإفرنجي والمغولي، إلاّ أن كليهما استطاع تحقيق هدفه في حشد الجميع خلال غزوهم للمشرق الإسلامي، فالمغول لم يكن بمقدورهم إقامة كيان سياسي يخضع فيه الكل لسلطة واحدة قبل تولي جنكيزخان الحكم، فكانوا بحياتهم البدوية تلك لا يلتزمون من النظام إلاّ بما يعود عليهم وعلى ماشيتهم بالمنفعة، ومع تولي تيموجين الحكم وسيطرته على كافة القبائل المغولية، رأى أنه من الضروري وضع سلطة تكون مرجعًا للمغول في أمور الحكم والسياسة، و تنهي ذلك التعصب القبلي الذي فُطرت عليه القبائل المغولية، فوضع قانون "الياسا" الذي يعد دستورا للأمة يحدد فيه علاقة الحاكم بالمحكوم، وحدود الفرد من حقوق وواجبات.[1]

كان لهذا التحول السياسي في حياة المغول بفضل جنكيزخان دورًا كبيراً في نجاح حملاتهم على ديار الإسلام، إذ لو بقي المغول على تلك الحياة البدوية والتعصُّب المقيت للقبيلة، لما كان لهم أنْ يتوحَّدوا في تلك الجموع الجرارة، الَّتي شبهها المؤرخون بأسراب الجراد لإطلاقهم كلمة " غزو" على تلك الحملات التي شنُّوها، كما وأنَّ تعدد رؤساء القبائل والصراعات التي كثيراً ما كانت تحدث بينهم، إضافة إلى التحالفات التي كانت تبرم مع القوى المجاورة لهم – حكام الصين والخطا– ضد بعضهم البعض ما كانت لتسمح لهم بتحقيق تلك الانتصارات الباهرة والدمار الكبير.

وفي غرب أوروبا مُنطلق الحملات الصليبية نجدْ بأنَّ النظام الإقطاعي الذي عرفته، لم يعكس حال الوضع الاجتماعي فحسب، بل أنَّه خَلقَ وضعاً سياسيًا لا يخلو من الصراع والتطاحن بين أمرائه لامتلاك أكبر الإقطاعيات، فحدثت بين أصحاب هذه الملكيات حروب مريرة بغية توسيعها وبالتالي زيادة النفوذ والسلطة،[2] لتكون على إثر ذلك دعوة البابا للقيام بتلك الحروب منفذًا رئيسيًا سمح للعديد ممن لم يكن لهم إقطاع في الغرب الأوروبي، وحفَّز من كان يمتلك واحدا في الغرب للاستيلاء على آخر في الشرق.[3]

عمَّ منغوليا وغرب أوروبا من الأوضاع السيئة على كافة الأصعدة، ما كان لها أثر بالغ في تحمس الجميع للمشاركة في تلك الحروب، كما وزاد تحمُّسهم ما ساد العالم الإسلامي من ضعف

---

(1) المقريزي، الخطط، 2/ 220-221، الخالدي، المرجع السابق، ص 37، العريني، المغول، ص 48، الصياد، المرجع السابق، ص 338.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص 13-14، ميشال بالار، الحملات، ص 10، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 45.

(3) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 127، سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 32.

ووهن وانقسام، ترجمته الصراعات المريرة التي طبعت العلاقات بين قواه، غير أنَّ كُلَّ ذلك لا يمكن الاعتماد عليه لشن تلك الحروب، حيث أن الدوافع الَّتي توافرت لدى أفراد المجتمعين المغولي والأوروبي لم تكن موحَّدة، وكل فرد كان مدفوعًا بما يحتاج إليه في موطنه، وعليه فقد توجّب على مسطري تلك الحملات رسم هدف مشترك يوحد الجهود ويدفع بالكلّ إلى تحقيقه.

1-3 وحدة الهدف ضرورة لتوحيد الجهود خلال العدوان

بعرضنا السابق لأهم الدوافع الَّتي توافرت لدى كل من العالم الإسلامي كطرف تعرض للعدوان، أو لدى الصليبيين والمغول كطرف قام بتلك الحملات على ديار الإسلام، فقد تبيَّن لنا جليًا بأن الأجواء كانت مهيأة على كافة الأصعدة، وأنَّ الجميع في المجتمعين المغولي والإفرنجي على اختلاف طبقاتهم كانوا مستعدين للمشاركة فيها، على الرغم من تباين أهداف كل طبقة منهم، فالعامة من المجتمع الأوروبي فعتها الظروف الإجتماعية والإقتصادية السيئة التي كانوا يعيشونها إلى السير نحو بلاد الشام، خاصة بعدما وصف لهم البابا أوربان الثاني والراهب بطرس الناسك ما تحويه هذه البلاد من خيرات ومباهج.

في حين أن طبقة الأمراء وخاصة من الذين لم تُتَح لهم فرصة امتلاك إقطاعيات في الغرب الأوروبي – بسبب قواعد النظام الإقطاعي الذي يحتم عدم تجزئة الإقطاع بين أبناء الأمير المتوفى–، فقد كانت تلك الحملات فرصةً لتأسيس إقطاعيات لهم في الشرق يعوِّضهم عمَّا خسروه في موطنهم، وأمَّا من أتاحت له الظروف لامتلاك إقطاع في الغرب الأوروبي فقد سعى إلى تَمَلُّك آخر في بلاد الشام يخلصه من تلك الحروب المستمرة مع بقية الأمراء الإقطاعيين، وبالنسبة لملوك أوروبا فقد ساهموا في تلك الحملات بسبب ضغط الكنيسة وخوفًا من الحرمان الديني الذي سيؤدي إلى إسقاطهم من عروشهم وخروج المؤمنين عنهم باعتبارهم كفار، إن هم تكاسلوا عن دعم تلك الحروب.

وعلى هذا فإن هذا التباين في دوافع كل طبقة من طبقات المجتمع الأوروبي، لم يكن ليسمح للبابوية بتحقيق أهدافها التي ترجوها في بلاد الشام، إذ لو سارت كل طبقة مدفوعة بما توافر لديها من ظروف في موطنها، لكانت جهودها مشتتة، ولعل منهم من اكتفى بما سيناله من مكاسب في الأناضول أوبلاد الجزيرة أوعلى أقصى تقدير شمال بلاد الشام، كما وأنَّه لا يُستبعد أن تقوم بينهم خلافات حول ما تم الإستيلاء عليه.

فالبابوية المتبنية لفكرة تلك الحملات سعت إلى توحيد جهود جميع طبقات المجتمع الإفرنجي وتحميل الكلِّ فيه مهمة استرداد الأماكن المقدسة المنتهكة – حسب قول البابا- في بلاد الشام، وتخليص المسيحيين في الشرق من الاضطهاد الذي يلقونه على يد المسلمين،[1] وبهذا حمل الجميع الصليب كشعار لتلك الحملات، واتخذوا غاية تحرير المقدسات المسيحية هدفًا فيها.

وعلى الجانب المغولي كذلك، فإنه وعلى الرغم من توافر العديد من الدوافع التي أسهمت في تحريك أفراد المجتمع للتجنُّد في جيوش جنكيزخان والمشاركة في حملاته على الشرق الإسلامي، إلا أنَّ ذلك ليس كافٍ، فالمقاتل لابُدَّ له من هدف يُحدد له في الحرب حتَّى يسعى إلى تحقيقه، فالعرب الفاتحين خلال العقود الأولى للدولة الإسلامية، اتخذوا من نشر الإسلام وتخليص الشعوب من مظاهر الجهل والعبودية هدفًا في غزواتهم الّتي قاموا بها في مختلف أرجاء العالم القديم، وأمَّا الإفرنج – على ما ذكرنا – فقد جعلوا من تحرير المقدسات المسيحية من أيدي المسلمين هدفًا خلال حملاتهم الّتي شنوها على بلاد الشام، الجزيرة ومصر.

وعلى هذا الأساس فإن قتل ينال خان حاكم ولاية أترار الخوارزمية للتجار المغول في إقليمه، ورفض السلطان علاء الدين تسليمه إلى جنكيزخان للقصاص منه،[2] كان بمثابة الهدف الذي جمع عليه الخان أفراد المجتمع المغولي لشنِّ غزواته على ممتلكات علاء الدين خوارزم شاه، وما يؤكد لنا ذلك هو إصرارهم على إخضاع ولاية أترار في بدء حملاتهم، كما وتُبين لنا طريقة تخلُّص المغول من ينال خان قاتل التجار حرصهم الشديد على تحقيق ذلك الهدف.[3]

توجَّب بعد ذلك على جنكيزخان رسم هدف آخر، يدفع بالقوات المغولية إلى مواصلة الزحف على باقي أقاليم الدولة الخوارزمية، فما وجدوه في أقاليم ما وراء النهر من خيرات ونعيم، ربما كان سيدفعهم إلى التوقف عن مواصلة المسير، خاصة وأنهم حققوا الهدف الأول الذي حدده الخان خلال بدء الحملات، لذا فقد كان البحث عن السلطان علاء الدين والتخلص منه ثاني أهداف جنكيزخان،[4] لتفرض بعد ذلك وفاته، وضع هدف القضاء على ابنه جلال الدين ثالث أهداف ذلك الغزو.[5]

---

(1) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 35- 36، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 127.

(2) الصياد، المرجع السابق، ص 102- 104، حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 83- 86.

(3) الصياد، المرجع السابق، ص 113، حافظ أحمد حمدي، ص 139.

(4) العريني، المغول، ص 126.

(5) النسوي، سيرة جلال الدين، ص 167- 170.

ومن أجل إيضاح ما قلناه سابقا في ضرورة تحديد هدف واحد يلتف حوله الجميع بغية تحقيق النصر في أي حملة من الحملات، نورد هذا المثال الذي كُنَّا قد تعرضنا له في صفحات سابقة من هذا البحث، والمتمثل في اختلاف الأمراء الصليبيين على توجيه الحملة الصليبية الثانية التي أوفدها البابا لوجين الثالث بطلب من جوسلين أمير الرها، حيث حادت الحملة عن الهدف الذي كان مرسوما لها، فأخذ كل حاكم من حكام الإمارات الصليبية في بلاد الشام يسعى إلى توجيه تلك الحملة لخدمة مصالح ذاتية،(1) فكانت النتيجة فشلا ذريعا لها.(2)

وإذا أردنا مقارنة الهدف الذي رسمه كل من المسلمين في فتوحاتهم والصليبيين في حملاتهم، مع الهدف الذي رسمه جنكيزخان في غزوه للعالم الإسلامي، نجد بأن هدف (المسلمين والصليبيين) كان نابعًا من عقيدة سماوية، كان لها أثر بالغ في نفوس الأفراد، فكانوا مدفوعين روحيًا إلى تحقيق أمر إلهي، ينالون منه الثواب والمغفرة ويُدخلهم جنَّات من نعيم، أمَّا الهدف الذي رسمه جنكيزخان فقد كان بعيدًا عن تلك الروح الدينية، إذ لا يعدوا أن يكون هدفُ حملاته هو الانتقام من قتل السلطان الإسلامي لتجاره في حدود ممتلكاته.

ورغم ذلك فإن أربعة عقود من الزمن فقط كانت كافيةً للمغول من أجل تحقيق أهدافهم الَّتي رسموها في حروبهم، في حين أن كُلاً من المسلمين والصليبيين قد استنفذوا من الوقت الكثير في سبيل بلوغ مراميهم، بل أنَّ سعيهم في تحقيقها ما يزال متواصلاً إلى حدِّ الساعة وإن اختلفت أساليب ذلك، فالمغول لم يعملوا على التوطن في الأراضي الإسلامية ولا النصرانية، ولم يضطهدوا رجال الدين ولم ينتهكوا حرمة المقدسات في الأراضي التي استولوا عليها عن تعصُّب ديني، بل أن حملة الإفناء والدمار الَّتي انتهجها المغول كانت نابعة من روح الانتقام أولاً، والتخلص من الأوضاع السيئة والاستفادة من خيرات الحضارة الإسلامية والأوروبية ثانياً.

حتَّى أنهم كانوا لا يقتلون أصحاب الحرف والصناع ويأخذونهم معهم إلى منغوليا للاستفادة منهم في نقل حضارة الغير إلى موطنهم الأصلي، واستعانوا كذلك بمن اعتبروا أعدائهم في تسيير شؤون الدولة، بل وحرصوا كل الحرص على ضمان سير حركة التجارة بينهم وبين المسلمين

(1) الحويري، المرجع السابق، ص 100- 102، حامد غنيم، المرجع السابق، ص 272- 273، Runciman, voll II, p 273

(2) ابن الأثير، الكامل، 11/ 129- 130، الحريري، الإعلام، ص 26، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 463- 465.

والمسيحيين، بينما تَبع حملات الصليبيين حملة استيطان واسعة نتج عنها تبدُّل كبير في الحياة العامة لمنطقة الشام.

2- من حيث ردود فعل المدن الإسلامية ومقاومتها للعدوان

2-1 مدن الجزيرة الشام ومصر

عرفت منطقة الجزيرة وبلاد الشام ومصر مختلف مراحل الصراع الإسلامي- الصليبي، بدءاً بالحملة الصليبية الأولى الّتي دعا إليها البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت بفرنسا،[1] والّتي وصلت سنة 490هـ/1096م،[2] إلى غاية نهايتها بعد استرداد مدينة عكا سنة 692هـ/1291م من طرف المماليك الذين حكموا في مصر في 648هـ/1250م،[3] كما وشهدت أقاليم هذه المنطقة صراعًا جديدًا كان فيه المسلمين طرفًا ضد المغول الذين قَدِموا من أقصى شرق آسيا تحت قيادة زعيمهم جنكيزخان وأحفاده وكان ذلك سنة 615هـ/ 1218م.[4]

على أنَّ في هذا الصراع (الإسلامي- المغولي) لم تَكُنْ فيه منطقة الجزيرة والشام ومصر، هدفًا أوليًا ومباشرًا بعكس الصراع الأول، وإنما شهدت الحملات المتأخرة من ذلك الغزو، حيث وصلت القوات المغولية إليها سنة 657هـ/ 1259م،[5] لتكون بذلك الظروف والدوافع التي صاحبت كلا العدوانين على هذه المنطقة مختلفة بالكامل، وحتَّى بالنسبة للقوى الإسلامية التي كانت تحكم فيها خلال كل عدوان، فقد رأينا خلال تعرُّضنا للعدوان الصليبي عليها بأن كلَّ جُندٍ من أجنادها حكمت فيه قوى معينة، اختلفت بين حكم الفاطميين والأيوبيين في مصر إلى حكم السلاجقة والزنكيين وبعض القبائل العربية في كل من بلاد الشام والجزيرة.

أمَّا على أيام الغزو المغولي فقد حدثت تغيرات عديدة على الخارطة السياسية لهذه المنطقة، بتواجد الإمارات الصليبية، وانهيار الإمبراطورية السلجوقية وبلوغ النفوذ الأيُوبي بلاد الشام واستئثار الأتابكيات بأقاليمها في بلاد الجزيرة، ثمّ ظهور دولة المماليك الناشئة على أنقاض دولة الأيوبيين،

---

(1) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 31، بطرس توديبود، المصدر السابق، ص 61.

(2) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 130.

(3) أبو الفدا، المختصر، 190/3، فايد حماد عاشور، المرجع السابق، ص 55.

(4) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 135.

(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 277، المقريزي، السلوك، 410/1- 411.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فكان لذلك الاختلاف على المستويين الإسلامي من جهة والصليبي والمغولي من جهة أخرى دور في تحديد طبيعة ردود فعل مدن هذه المنطقة من كل عدوان.

ففي إقليم الجزيرة الذي اخترنا من مدنها مدينة الموصل كنموذج لحركة المقاومة الإسلامية ضدَّ العدوان الصليبي، فقد رأينا بأن قواد هذه المدينة من عهد كربوغا - الذي صاحب حكمه بداية الحملات الصليبية على العالم الإسلامي- قد أبانوا عن رغبة جامحة في رد ذلك العدوان،[1] رغم ما اكتنف القوى الإسلامية في تلك المنطقة من صراعات سياسية طاحنة لم تكن لتسمح بتوحيد جهودها في المقاومة، وكُنَّا قد أبرزنا في الفصل الأول من بحثنا هذا العديد من المواقف المشرفة لهذه المدينة وقادتها في ذلك الصراع، لعلَّ أبرزها ما حققه القائد عماد الدين زنكي بن آقسنقر باستعادته لإحدى الإمارات التي أسسها الصليبيون في بلاد المسلمين والمتمثلة في إمارة الرها (539هـ/ 1144م)،[2] كمَّا وتحقق لعماد الدين غاية ربط إقليم الجزيرة بشمال الشام فكان له أن ضمَّ مدينة حلب (522هـ/ 1128م) إلى حكمه وإنهاء ذلك الدور السلبي الذي طالما طبع مواقف حكام هذه المدينة.[3]

واصل حكام مدينة الموصل مواقفهم المشرفة في حركة المقاومة الإسلامية بعد عماد الدين، إذ تمكّن ولداه نورالدين محمود (الذي ولي حكم حلب) وقطب الدين (تولى الحكم في الموصل) من مواصلة إرباك الصليبيين وتحقيق مكاسب عدَّة على حسابهم بمحاصرتهم لإمارة أنطاكية (543هـ/ 1149م)،[4] وإنقاذ مدينة دمشق من السيطرة الصليبية وضمِّها لصف المقاومة من خلال جمعها مع حلب (549هـ/ 1154م)،[5] لتتواصل جهود قادة هذه المدينة في إكمال طوق الجبهة الإسلامية على الإمارات الصليبية بضمِّ إقليم مصر إليها (564هـ/ 1169م) بعد أن كانت أبعد عنها في أيام حكم الفاطميين.[6]

عُدَّت الموصل النواة الأولى الَّتي انطلقت منها حركة المقاومة الإسلامية ضدَّ الوجود الصليبي، حيث كان حاكمها يسمى أمير غرب الممتلكات السلجوقية، وهو المكلف قانونا بأي عمل

---

(1) ابن خلدون، العبر، 5/40-41، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 218.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، 2/277- 279، عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السالق، ص 167.

(3) ابن خلدون، العبر، 5/ 119، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، 3/133، أبو شامة، الروضتين، 1/77.

(4) ابن الأثير، الكامل، 11/134، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 460- 461.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 504- 505.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 381، ابن الأثير، الكامل، 11/ 343- 344.

عسكري ضد الأعداء في المنطقة بأمر من السلطان السلجوقي في أصفهان، وعلى الأمراء الآخرين الانضمام إليه في أي عمل عسكري، ويعود هذا الاختيار لموقعها الإستراتيجي ووجود حكامٍ جعلوا من قضية تحرير الأراضي الإسلامية من التواجد الأجنبي وطرد الصليبيين عنها هدفًا واحدًا دون أي اعتبار للمصالح الذاتية الضيقة الَّتي طبعت العديد من القوى الإسلامية الأخرى، حيث لم يأل أتابكتها جُهدًا في دفع ذلك الخطر عن البلاد الإسلامية، ففي بداية أمرهم تمكّنوا من صدِّ هجمات الفرنجة المتوالية عن بلاد الشام والجزيرة، ولما علا شأنهم وقوى بأسهم وكثُر جندهم تحوَّل موقفهم من الدفاع إلى الهجوم، فأغاروا على الإمارات الصليبية واستردوا العديد منها.

وهكذا يمكن القول بأن جهود أتابكة الموصل منذ العقد الأخير للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وإلى العقد الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ومواقفهم من الصليبيين تُعد بدايةً للجهود الَّتي بذلها الأيوبيون ثمَّ المماليك من بعدهم في سبيل إجلاء التواجد الصليبي عن البلاد الإسلامية.

غير أن هذا الدور الإيجابي الذي لعبته منطقة الموصل في مقاومة الوجود الصليبي، قد انتفى أيام قدوم الحملات المغولية إليها، ففي سنة 628هـ/ 1230م أنفذ أجتاي بن جنكيزخان وخليفته جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل بقيادة شيرماجون وبيدشو إلى إيران، وبعد أن تمكّنت قوات المغول من الاستيلاء على الرَّي وهمذان، واصلت زحفها إلى أذربيجان، فاستنجد سلطانها جلال الدين منكبرتي بأتابكة ديار بكر والجزيرة، كمّا حاول أن يستنجد بالخليفة العباسي أيضاً، لكن طلبه هذا قوبل بالرفض من حكامها فترك يواجه مصيره لوحده.[1]

على أن هذا الموقف لا يعني بأن أتابكة الموصل لم يعملوا على المشاركة في صدِّ هجمات المغول، رغم ما عمَّهم من خوف وفزعٍ اتجاه ذلك الغزو، وأمَّا ما يفسر لنا عدم تلبية نداء الاستغاثة الذي وجهه لهم جلال الدين، هو ما كان من هذا الأخير من مواقف اتجاه كل من جاوره الحُكم خلال عودته من بلاد الهند واستعادته لزمام السلطة في الدولة الخوارزمية، فابن الأثير يقول عنه: "وكان جلال الدين سيئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحدًا من الملوك المجاورين له إلاَّ عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته"[2]

(1) أبو الفدا، المختصر، 3/154-155

(2) ابن الأثير، الكامل، 12/ 495.

شارك حكام الموصل في بعض المحاولات لردِّ حملات المغول، وخاصةً حينما صاروا يتهدَّدون إقليم الجزيرة وعاصمة الخلافة بغداد، فَجَرت محاولة استهدفت إقامة تحالف إسلامي في مواجهة ذلك الزحف، ساهم فيه بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى جانب مظفر الدين صاحب إربل، وكان ذلك سنة 628هـ/ 1230م، واستطاع ذلك الحلف أن يؤخِّر سقوط إربل في أيدي المغول لخمس سنوات أخرى، حيث عاودوا الهجوم على هذا الإقليم سنة 633هـ/ 1234م[1].

وأمام تلك الفوضى السياسية الَّتي عمَّت مدن إقليم الجزيرة، والصراع المرير بين أبناء البيت الأيوبي في بلاد الشام وآسيا الصغرى، وكذا الهجمات المتكررة للمغول على بلاد الموصل فقد اضْطر صاحبها بدر الدين لؤلؤ إلى إظهار ولائه لهولاكو، وإرسال الأموال إليه، حتَّى أنَّه اشترك معه في بعض غزواته،[2] ولمَّا توفي بدر الدين سنة (657هـ/ 1258م) وتولَّى ابنه الملك الصالح الحكم بعهد من هولاكو، سعى إلى الخروج عن السيطرة المغولية فالتجأ إلى الظاهر بيبرس – سلطان المماليك بمصر–، فأكرم وفادته، ومنحه راتبًا شهريًا.

أعاد بيبرس الملك الصالح إلى الموصل على رأس ألف فارس، فوصلها قبل قدوم المغول إليها، وأغلق أبوابها، وكان بها جيش كبير من الأكراد والتركمان، فوزَّع عليهم الرواتب الوفيرة وحثَّهم على القتال، وحين بلغ المغول الموصل ضربوا عليها حصارا استمر لستة أشهر، اضطر فيها الكثير من أهلها إلى الرحيل عنها نحو الصحراء، وحين اشتد بهم الكرب أرسل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى "سند ياغو" قائد المغول يطلب الأمان، فأمّنه القائد لذلك، ثمّ نقض عهده وأمر بقتله،[3] ليدخل على إثر ذلك المغول المدينة في رمضان 660هـ/أوت 1261م، فنكّلوا بسكانها، وأسروا بعض أرباب الحرف والصناعات، بحيث لم يبق فيها أحد، فزالت أتابكية الموصل على هذا النحو.[4]

سارت مدن الشام وبخاصة حلب ودمشق على نهج مدينة الموصل في مواقفهما اتجاه العدوان الصليبي والمغولي، فكان هناك تباين كبير في ردود الفعل، حيث وقفنا سابقًا على جهود أتابكة حلب ودمشق في رد الهجمات الصليبية — رغم السلبية التي طبعتهما قبل ضمِّهما إلى جبهة المقاومة

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 12/ 378- 379.

(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 351.

(3) الهمذاني، جامع التواريخ، 328/2.

(4) عصام الدين عبد الرؤوف، المرجع السابق، ص 44-45.

الإسلامية على يد آل زنكي– فحلب بعد تخلُّصها من الركود الّذي عرفته أيام حكم رضوان بن تتش، وبعد ضمِّها إلى الموصل على عهد عماد الدين زنكي ساهمت بشكل كبير في حركة المقاومة تحت قيادة نورالدين، حيث كانت مُنطلق القوات التي استعادت الرها بعد أن استردها جوسلين الصليبي سنة (541هـ/ 1146م)،[1] كما أنّها ساهمت في رد الحملة الصليبية الثانية التي استهدفت مدينة دمشق سنة (543هـ/ 1148م).[2]

لقد دخلت مدينة دمشق على خط المقاومة الإسلامية ضد التواجد الصليبي، حيث انطلقت منها حملات نورالدين على الديار المصرية التي سعت لضمِّها إلى جبهة المقاومة، فكان ذلك سنة 564هـ/ 1169م، حين تولى صلاح الدين النيابة فيها عن نور الدين حاكم دمشق،[3] فظلّت بذلك مدينتي حلب ودمشق على هذا الحال من الإيجابية في مواجهة المدِّ الصليبي، إلى حين تَبدُّل مواقع السلطة ودخول البلاط الأيوبي في حالٍ من التصدع والشقاق، كانت نتيجته أن وجد المغول حين قصدوها حُكامًا لا حول ولا قوة لهم في رد أي عدوان.

كانت حلب على عهد الغزو المغولي تابعة للملك الناصر يوسف الأيوبي، الذي استناب عنه في تولي حكمها الملك المعظم تورنشاه بن السلطان صلاح الدين، فكان حصارهم لها في محرم 658هـ/ ديسمبر 1959م، واستطاعوا إخضاعها، وقتل خلق كبير من سكانها، رغم استماتة حاكمها في الدفاع عنها،[1] وهنا لابدَّ لنا من أنْ نتساءل عن موقف باقي الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام، وخاصةً رد فعل الملك الناصر صاحب السلطة في ما تبقى من حكم للأيوبيين، فلماذا بقي في دمشق ولم يحرك ساكنًا لنجدة حلب؟ بل ولماذا ظلَّ شهمًا وقويًا في صراعه مع المماليك على مناطق النفوذ في الديار المصرية وبلاد الشام ولم يكن كذلك في مواجهة المغول؟ أليس موقفه ذاك هو ما كان سببًا في مسارعة بقية الأمراء لإيفاد رُسلهم وإعلان خضوعهم وولاءهم لهؤلاء القوم، كما فعل صاحب حماة وحمص وغيرهم؟ أوليس ردُّ فعله السِّلبي ذاك هو ما عجَّل بوفاته وبسقوط عاصمة حكمه دمشق؟ وهو الذي سمح للمغول بإحكام سيطرتهم على معظم بلاد الشام في ظرف قصير، وتطلعهم بعد ذلك لإخضاع مصر؟

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 11/ 114.

(2) الحويري، المرجع السابق، ص 100– 102، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 272– 273.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 381، ابن الأثير، الكامل، 11/ 343– 344.

(4) المقريزي، السلوك، 1/ 422، ابن كثير، البداية والنهاية، 218/13، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 349/1.

كان لموقف الناصر الأيوبي وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من حملات المغول على العالم الإسلامي، دليل قاطع وصريح لمدى الوهن الذي أصاب رجالات الإسلام خلال تلك الفترة، فهؤلاء القادة لم يكونوا في مستوى سابقيهم في رد العدوان الأجنبي عن أراضيهم، فمهما قيل عن القوة التي تمتَّعت بها الجيوش المغولية، إلاّ أنّ ذلك لا يُبرر لهما عدم مواجهتهما لذلك الخطر، فلو قاما بعمل مضاد اتجاه ذلك الغزو وانهزما لكان ذلك أشفع لهما عند المسلمين، لكن التجاء الأول(بدر الدين) إلى هولاكو والخضوع له، وفرار الثاني (الملك الناصر) عن دمشق قاصدًا ملجآ آمنا له ولأسرته وترك المدينة لأهلها يقررون مصيرهم بأنفسهم، لا يمكن بأي حال من الأحوال تَقبلُه من هذين القائدين.

وعلى مستوى الجبهة المصرية فإن سير حركة المقاومة على أرضها قد كانت مُقترنة بمن تولى الحكم فيها، فعلى أيام الحملات الصليبية ظلَّت مصر الفاطمية أبعد ما يكون عن مجابهة الصليبيين، إلا فيما كان يُهدد مناطق نفوذها في مصر وبلاد الشام، بل وأن السلبية التي طبعتها في بعض الأحيان كانت تدفع بحكامها إلى التحالف مع هؤلاء الإفرنج على حساب القوى الإسلامية الأخرى، فبقيت على هذا الحال إلى حين إنهاء الحكم الفاطمي عنها (567هـ/ 1171م)، وتولي صلاح الدين الوزارة فيها كنائب عن قائده نورالدين، ثم كسلطان على ذلك الإقليم.[1]

حققت الجبهة المصرية تحت حكم صلاح الدين أهم المكاسب على حساب الطرف الصليبي، فاستعادت بيت المقدس والعديد من المدن والقلاع والحصون،[2] وقبل هذا فقد عمل على إنهاء ذلك الصراع الذي شبَّ في منطقة شمال الشام والجزيرة عقب وفاة حاكمها نورالدين، فوحدها في جبهة واحدة مع مصر تحت قيادته، فاستطاع بذلك أن يفوت الفرصة على الصليبيين لإعادة نفوذهم في هذه المنطقة.[3]

خلال الفترة الَّتي دخل فيها البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين صراعًا مريرًا بين أبنائه، أي منذ تولي الأفضل نورالدين علي الحكم في الدولة (582هـ - 592هـ/ 1186م- 1195م) وإلى تولي المماليك السلطة بمصر (648هـ/ 1250م)، شرع جنكيزخان زعيم المغول بدءًا بسنة 615هـ/ 1218م في الهجوم على أقاليم العالم الإسلامي، فتمكّن في زمن قصير من إخضاع العديد

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، 200/1، الحويري، المرجع السابق، ص 157.
(2) ابن الأثير، الكامل، 11/ 540، 548، الحريري، الإعلام، ص 35- 36.
(3) ابن الأثير، الكامل، 405/11، حامد أبو غنيم، المرجع السابق، ص 247.

منها لسلطانه، بعد أن عاث فيها فساد كبيرًا، ليكون وصولها إلى بلاد الشام على ذلك الوضع الذي آل إليه حكم الأيوبيين.[1]

تولَّى المماليك الحكم في مصر (648هـ/ 1250م) منهين بذلك حكم بنو أيوب عنها، فظلَّوا طيلة عقد من الزمن يواجهون مختلف العقبات التي كانت تتهدد دولتهم الناشئة،[2] وأخطرها الزحف المغولي الذي صار يشارف الديار المصرية على حدودها الشرقية، ليكون المماليك أمام فرصة نادرة تسمح لهم باستقطاب قلوب المسلمين، وتؤكِّد أحقيتهم باعتلاء عرش مصر على حساب بقايا الأيوبيين، فكانت النتيجة بين القوات المغولية والمملوكية نصراً مؤزراً للسلطان قطز في معركة عين جالوت (658هـ/ 1260م)[3] أعاد به زمن الانتصارات التي دشَّنها أسلافه من قادة الإسلام.

ا النجاح الذي حققه المماليك بإنهائهم لقصة غزو المغول لأقاليم العالم الإسلامي، لم يكُن الأخير، حيث واصل هؤلاء جهودهم في إخراج أعداء الإسلام من أراضيه، لتتوج في الأخير بإخراج الصليبيين من آخر معقل لهم في عكا سنة 692هـ/1291م، وبهذا أكمل المماليك مسيرة حركة المقاومة الإسلامية ضدَّ التواجد الأجنبي التي قادها قبلهم العديد من القادة المسلمين انطلاقًا من مدن حكمهم، فكان لكلٍّ موقفٍ من مواقفِ هؤلاء دورٌ في تحديد اتجاه تلك المسيرة، إمَّا نحو الإيجابية والمساهمة في إجلاء الغزاة وإمَّا نحو السلبية والإطالة من مدة مكوثهم وعبثهم بالإسلام ومدنه وأهله.

2-2 مدن شرق العالم الإسلامي (من بلاد ما وراء النهر إلى العراق العجمي)

اختلفت الأسباب وراء قيام المغول والصليبيين بحملاتهم على العالم الإسلامي، فكان لذلك الاختلاف أثرٌ في تحديد نتائج تلك الحملات، وكذا حجم الرقعة الجغرافية التي تعرضت للاعتداء، الصليبيون على اعتبار أن هدف عدوانهم على ديار الإسلام كان لتخليص المقدسات المسيحية من السيطرة الإسلامية، فانحصر على ذلك نشاط صراعهم مع المسلمين في بلاد الشام والجزيرة ومصر، على أن انضمام كل من بلاد الجزيرة ومصر إلى منطقة الصراع كان أمرًا مُحتمًا باعتبار المنطقة الأولى، المقصد الأول في الطريق إلى الشام وأمَّا الثانية فهي امتداد لها وكان من يحكم في مصر يتطلع لحكم

---

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 277، ابن الكثير، البداية والنهاية، 215/13.

(2) المقريزي، السلوك، 370/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/7

(3) المقريزي، السلوك، 430/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 78- 79، القلقشندي، صبحي الأعشى، 36/4.

بلاد الشام، فظلَّ ذلك الصراع الصليبي – الإسلامي مُقتصرًا على هذه المنطقة، حتَّى أنَّه لم يبلغ بغداد عاصمة الخلافة العباسية رغم قصر المسافة بينهما.

على حين أن هدف المغول في غزوهم، كان يتجدد مع انتهاء الهدف الأول، فلو اكتفى المغول بتحقيق غاية الانتقام من ينال خان قاتل التجار لاكتفوا بالسيطرة على بلاد ما وراء النهر، لكنَّهم وضعوا بعد ذلك هدف التخلص من علاء الدين سلطان الخوارزميين الذي استمرت مطاردته إلى نهر قزوين (حدود العراق العجمي)، ثمَّ رسم قادة المغول هدف القضاء على ابنه جلال الدين – باعث دولة الخوارزميين في عهدها الجديد– لتتوسع دائرة عدوانهم على العالم الإسلامي إلى حدود العراق العربي وبلاد الجزيرة في سعيهم لتحقيق غرضهم ذاك.

بوصول المغول إلى ذلك الحد من التقدم، وتمكنهم من القضاء على جلال الدين، استغلوا رفض الخليفة العباسي تقديم يد المساعدة لهم في حربهم مع الطائفة الإسماعيلية،[1] فأطاحوا بعاصمته بغداد،[2] كما استغلوا بعدها رفض الناصر الأيوبي صاحب السلطة في بلاد الشام طلبهم بالخضوع إليه، فتقدموا إليه واستولوا على أملاكه[3].

وهكذا فقد تلقت مدن الجزيرة والشام ومصر حملات كلا العدوانيين وفق الأسباب التي حكمت تقدُّم تلك الجيوش، على أن مدن الشرق الإسلامي فقد اكتفت بمواجهة المد المغولي دون الوقوف أمام القوات الصليبية، فأمَّا عن الأولى فقد تطرقنا إلى ردود فعل أهم مدنها في مواجهة خطر الزحف الصليبي والمغولي، ولاحظنا كيف أنَّ لتعدد القوى التي حكمت في المنطقة دور في تحديد مواقف هذه الجبهة من العدوان، وأمَّا عن الثانية فإنَّها كانت خاضعة لسلطة واحدة على عهد الغزو المغولي، تمثلت في حكم الخوارزميين الذين امتد سلطانهم من بلاد ما وراء النهر وإلى غاية فارس والعراق العجمي،[4] فكانت بذلك هذه الجبهة أفضل حالاً من جبهات المقاومة في بلاد الشام والجزيرة ومصر باعتبارها خاضعةً لحكم واحد، وإمكانية توحيد جهود كافة أقاليم الدولة في مواجهة أي خطر أجنبي تبدو أمراً واقعاً، وتحقيق النصر في صراعهم مع من عاداهم يُعدُّ أمرًا ممكنًا.

---

[1] العريني، المغول، ص 210، مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 158.

[2] المقريزي، السلوك، 409/1– 410، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 47/7– 51.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، 13/ 215، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 91/1.

[4] أنظر: الخريطة رقم (06)

لكن كلَّ هذا لم يحدث على مستوى الجبهة الخوارزمية، حيث كانت نتائج ذلك الغزو على مدنها وأهلها وبلوغه العاصمة بغداد وإسقاطها، ثم إخضاع بلاد الشام والتطلع إلى الديار المصرية جواباً قاطعاً لأي تساؤلٍ حول دور الخوارزميين في ردِّ حملات المغول على ديار الإسلام، فسلاطين هذه الدولة لم يكونوا على قدرِ حماية الثغور الإسلامية من الأخطار الأجنبية، بل وساهموا في التثبيط من عزيمة المسلمين في تلك المدن من خلال مواقفهم السلبية من ذلك الصراع.

فعلاء الدين لم يكلّف نفسه عناء مواجهة المغول في حرب مباشرة، والوقوف في وجه تقدمهم، بل أنَه آثر الفرار وترك لأهل مدن أقاليمه قرار تحديد مصيرهم،[1] كما وكان يَحثُّهم على عدم مقاومة المغول خوفاً عليهم من بطشهم، وبضرورة قبول التسليم والخضوع لسلطتهم،[2] رغم علمه بمكرِ هؤلاء وخيانتهم للعهود والمواثيق، وبأنّهم لن يرحموا أحداً سواء بالتسليم أو بالمقاومة.

لم يكن موقف جلال الدين ابن السلطان الخوارزمي علاء الدين، بأحسن من أبيه رغم جهوده في بعث دولتهم من جديد، ودخوله في معركة حاسمة مع جنود جنكيزخان قرب مدينة بيروان سنة 618هـ/ 1221، وقتله لأزيد من ألف رجل من المغول أثناءها[3]، إلاَّ أن السلبية الَّتي طَبعت هذه الجبهة على عهد هذا القائد، تمثلت في سعيه إلى توسيع دائرة نفوذه على حساب القوى الإسلامية المجاورة لحكمه كجورجيا وأذربيجان والأتابكة في بلاد الجزيرة،[4] إضافة إلى دخوله في صراع مع الخلافة العباسية بسبب طموحاته التوسعية، فلو أنَّ جلال الدين غلَّب مصلحة الأمة على مصالحه الذاتية، لسعى إلى التقرب من الخلافة وعمل على استرضاء باقي القوى الأخرى وحثَّهم على مواجهة خطر المغول.

فكانت لمواقف جلال الدين تلك أثر في رفض من كان قد عاداهم في وقت سابق –كأمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي وبعض أمراء الأيوبيين– طلبة بتقديم يد العون في مواجهة القوات المغولية المتتبعة له،[5] فقضى مصيره على نفس طريقة والده بالفرار إلى ملجأ آمن يُثني المغول عن الجدِّ في البحث عنه: لكنَّه لم يفلح، وبهذا زالت هذه الجبهة بمقتل سلطانها، وفتحت الباب بمصراعيه أمام المغول لقصد ما بقي من البلاد الإسلامية.

---

(1) الصياد، المرجع السابق، ص 120–121، حافظ حمدي، المرجع السابق، ص 150– 151.

(2) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 93.

(3) مصطفى طه بدر، المرجع السابق، ص 112.

(4) ابن الأثير، الكامل، 490/12– 491.

(5) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 224.

3-2 موقف الخلافة العباسية من العدوان الصليبي والمغولي

كان الحكم في بغداد على عصر الحروب الصليبية برأسين يُمَثل أحدهما الخلفاء العباسيون (السلطة الروحية) في حين أن زمام السلطة الزمنية كانت بيد السلاجقة، وقد تميَّزت العلاقة بين هاتين السلطتين بقليل من الودِّ وكثير من الاحتقان والصراع، حيث سُقنا سلفًا بعض الحقائق التاريخية الَّتي تؤكد وجهة النظر هذه، بل وأنَّ سوء العلاقة بين سلطتي الحكم في بغداد أدَّت بهما إلى الدخول في صراع دموي استنزف الكثير من قوتيهما، التي كان من المفترض أن توجه لردِّ الأخطار الخارجية التي ما فتئت تهدد كيان الدولة الإسلامية[1].

والسبب وراء ذلك التناحر بين طرفي السلطة هو الرغبة في الاستبداد بالنفوذ، كما كان في مصر بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، على أن صراع الأخيرين لم يتعلق بالاستبداد بالنفوذ فحسب بل حرص الوزراء على التفرد بالحكم كذلك، فالخلفاء العباسيون من جانبهم كانوا يعتقدون أنهم هم أصحاب السلطة الحقيقية وأنَّ السلاجقة قد جاءوا إلى العراق لمساعدتهم ومساندتهم، والسلاطين السلاجقة بدورهم كانوا يعتقدون أن مجيئهم إلى العراق قد حال بين الدولة العباسية وبين سقوطها نهائيًا، ومن ثمَّ فإنَّ نفوذهم يجب أن لا تحدُّه حدود[2].

على أن سوء العلاقات التي ميَّزت رأسي السلطة في بغداد لم تكن الوحيدة في سلسلة عوامل ضعف الجبهة العراقية في مواجهة الأخطار الخارجية، حيث شهدت علاقات الخلافة العباسية بمختلف القوى الإسلامية الَّتي حكمت في عديد أجزاء العالم الإسلامي توترًا واضطرابًا ترجمته صراعات مباشرة وتحالفات مضادة بينها حتَّى مع أعداء الإسلام، وأدَّت حدَّة تلك الصراعات إلى تهديد بعض القوى الإسلامية لحاضرة الخلافة بإسقاطها، كما فعل البَساسيري المدعوم من الفاطميين سنة 447هـ/ 1055م،[3] والسلطان الخوارزمي علاء الدين في عام 614هـ/ 1217م[4].

ساهم السلاجقة منذ دخولهم بغداد عام 447هـ/ 1055م في إعادة جزء من هيبة الخلافة العباسية،[5] غير أن ما وقع داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه (485هـ/

---

[1] ابن الأثير، الكامل، 242/10- 245، البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 161- 162، حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 152- 153.

[2] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص 154- 155.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 84، الذهبي، العبر، 212/3، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 451/5.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/ 219- 220، السيد باز العريني، المغول، ص 111.

[5] فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، 85/2.

1092م) قد أعاد الوضع في العراق إلى نقطة الصفر، بل وضاعف من ذلك الوهن على مستوى هذه الجبهة في مواجهة الخطر الصليبي والزحف المغولي، فقد حدث عقب وفاة هذا السلطان أن وقع صراع داخل الدولة أدَّى إلى انقسامها إلى دويلات مستقلة بأقاليمها يحكم كل منها أتابك، وكانت سمة التطاحن والاقتتال عنواناً للعلاقات الَّتي سادت بينها وبين الخلافة العباسية[1].

وتبعًا لذلك الانقسام الذي وقع بين الخلفاء والسلاطين من جهة وبين أفراد البيت السلجوقي، فقد انقسم بالضرورة الجيش في العراق على نفسه، كما انقسم الشعب أيضاً، ومما لا شك فيه أن ذلك قد أضعف فاعلية القوة العراقية وجعلها تقف موقفًا سلبيًا في مواجهة الخطر الصليبي والمغولي،[2] ليزيد فوق كل هذا نشاط الطائفة الإسماعيلية في نشر مذهبها من تفاقم أحوال الوهن بدار الخلافة والعالم الإسلامي كلِّه، ذلك أن رغبة هؤلاء في نشر مذهبهم على حساب المذهب السُّني كان يشرع لهم كل الأساليب، تى بقتل المسلمين وقادتهم والتحالف مع أعداء الإسلام[3].

وبهذه الصورة العامة حول الأوضاع التي كانت سائدة في العراق خلال تلك الفترة، فإننا لا نتوقع من الدولة العباسية – ومثل هذه الأوضاع هي التي كانت تحكمها وتتحكم فيها- أن تقوم بعملٍ له تأثير في مواجهة المد الصليبي والغزو المغولي، فلو حدث أن كانت الجبهة الداخلية في العراق قويةً ومتماسكة بطرفيها (الخلفاء والسلاطين)، لكان لنا أن نتوقع إيجابية كبيرة في التصدِّي لتلك الأخطار، ولكن شتان بين الواقع السياسي والتمني.

وعلى كل حال فإن موقف الخلفاء العباسيين أصحاب السلطة الروحية على العالم الإسلامي اتجاه الخطر الصليبي قد أثار مشاعر العامة من المسلمين، حيث ذهب البعض من سكان مدينة حلب إلى عاصمة الخلافة ببغداد، وصاحوا بالخليفة العباسي قائلين:" أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حميةً منك للإسلام، حتى قد أرسل في جهادهم"،[4] ومع ذلك فإنَّ أقصى ما استطاع الخليفة فعله في الجهاد ضد الصليبيين هو أن أرسل إلى السلطان السلجوقي محمد شاه يأمره بالاهتمام في مواجهة ذلك الخطر.

[1] ابن الكثير، البداية والنهاية، 12/ 144، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 203، محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 15.

[2] حامد غنيم أبو سعيد، المرجع السابق، ص156.

[3] الغزالي، فضائح الباطنية، ص11، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 681.

[4] ابن الأثير، الكامل، 10/ 483.

لم يكن لمواقف بغداد أن تتبدل اتجاه تلك الأخطار بتغيُّر من يحكم فيها من الخلفاء، ذلك لأنَّ ما كان يسود دار الخلافة والعالم الإسلامي عامة كان يفرض على هؤلاء انتهاج تلك المواقف السلبية، وحتَّى في الفترات التي كان فيها بعضٌ من قادة المسلمين يوجهون ضربات موجعة لأعداء الأمة، كان فيه خلفاء بني العباس منشغلون بصراعاتهم الداخلية والخارجية مع مختلف القوى الأخرى، فلو أنَّ موقفهم كان مشجعا لتلك الجهود لساهموا بشكل إيجابي في حركة المقاومة تلك.

إنَّ السلبية التي طُبعت عليها مواقف الخلافة العباسية- انطلاقًا من الظروف المحيطة بها-، اتجاه العدوان الصليبي والمغولي، لم تكن عاملاً مُضعفا لجهود المسلمين في ردِّها فحسب، بل أنها كانت في كثير من الأحيان عاملاً محفزً للإفرنج والمغول على السير نحو تحقيق مآربهم على أرض الإسلام، فهؤلاء قد استفادوا من أوضاع العاصمة أكثر من استفادتهم من القوى التي على الثغور، لعلمهم بما لدار الخلافة من أثرٍ في نفوس المسلمين.

3- من حيث نتائج العدوان وآثاره على المسلمين والصليبيين والمغول

3-1 الأثر الاقتصادي

يرى الكثيرون بأنَّ الحملات الصليبية الَّتي شنها الغرب الإفرنجي والمغولية التي قادها جنكيزخان على العالم الإسلامي وما صاحبها من ردود فعل إسلامية مقاومة على الجبهتين، قد كانت فيها لغة السيوف والحِراب هي السائدة فقط، والحقيقة أنَّ تلك الصورة لا تُمثل سوى وجهًا واحدًا فقط من أوجه ذلك العدوان، فالثَّابت عن تلك الحملات بأنَّ دوافعها وأغراضها قد تعدَّدت وتباينت بين فئات المجتمعين الأوروبي والمغولي، وكانت لا محالة مجالاً واسعًا التقى فيه الشرق الإسلامي بكلٍّ من الغرب المسيحي والأمة المغولية، ليكون اللقاء شاملاً لم يقتصر على الجانب الحربي فحسب، بل تعداه ليكون لقاءً حضارياً على أوسع نطاق، تمازجت فيه النظم السياسية والحياة الاجتماعية والمشاهد الدينية والطرق والأساليب التجارية.(1)

فعلى الجانب الاقتصادي نلاحظ بأنَّ الحركة الصليبية قد فتحت الباب أمام ألوف الأوروبيين الذين وفدوا من غرب أوروبا ليستقروا في الشرق، فكان لابد لأولئك الأغراب من اتصال دائم ببلادهم الأصلية، فبدأت على إثرها حركة ملاحية ضخمة بين المنطقتين، أدَّت إلى تقوية روابط الاتصال بين المسلمين والصليبيين وخاصة بعد تأسيس الإمارات الصليبية، ممَّا ساهم في زيادة النشاط

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 81.

التجاري وما ترتب على ذلك من ثروة تركت آثارها في أحوال البلاد والعباد،[1] لتكون بذلك الحروب الصليبية نتيجة طبيعية لذلك النشاط، بحكم أن التجار الأوروبيين كانوا إمَّا أنهم صاحبوا البعثات المختلفة من أوروبا، وإمَّا أنَّهم يتبعونها ويقوموا بفتح أسواق جديدة في كل ميناء يستولي عليه الصليبيون في الشرق.[2]

لم تشأ المدن الإيطالية (جنوة، بيزة والبندقية) في بادئ الأمر المغامرة بالمشاركة في الحملة الصليبية الأولى خوفًا من فشلها، حيث ظلَّت شديدة الحذر ومالت إلى التمهل في بذل ما وعدت به للبابوية من مساعدة في تلك الحملة، لكنَّها سرعان ما غيَّرت رأيها، لاسيما بعد الاستيلاء على مدينتي نيقية وأنطاكية، حيث بادرت تلك المدن الثلاث إلى إرسال أساطيلها إلى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين مقابل امتيازات في كل مدينة تسهم تلك المدن في الاستيلاء عليها، وقد أدَّت بذلك دوراً فعَّالاً في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوروبي تجارياً [3]

رغم ذلك الطابع الحربي الذي ميَّز الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال فترة العصور الوسطى، إلا أنَّ النشاط التجاري قد سار جنبًا إلى جنب مع التوسع العسكري، حيث كانت التجارة تمر خلال الصفوف العسكرية بمقتضى اتفاقيات متبادلة بين الجانبين، حرصًا منهما على ضمان أمن القوافل التجارية المتبادلة، فكان لذلك أثرٌ في ازدهار مدن بلاد الشام والجزيرة ومصر وتمتعها بنشاط اقتصادي كبير، حيث يشهد على ذلك الرحالة ابن جبير الذي قال:" ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى (فرنجة) وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، نصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها في بلادهم، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحروبهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب".[4]

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 84.

(2) عزيز سوريال عطية، **العلاقات بين الشرق والغرب – تجارية، ثقافية، صليبية**، ترجمة، فيليب صابرسيف، دار الثقافة، ط1، بيروت، 1972، ص 151- 152.

(3) أحمد الشامي، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1405هـ/ 1985م، ص 201، محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 113.

(4) ابن جبير، الرحلة، ص 268- 269.

على أنَّ زيادة حِدَّة النشاط التجاري بين الطرفين، كانت تشهده فترات الهدن والصلح، كصلح الرملة الذي عُقد بين صلاح الدين وريتشارد في 588هـ/سبتمبر 1192م والذي أضحى بموجبه للمسلمين والصليبيين الحق في أن يجتاز كل فريقٍ منهم بلاد الآخر، حتَّى أنَّ جماعة من المسلمين قد رحلت إلى يافا للتجارة،[1] وحتَّى بعد وفاة صلاح الدين فقد ظلَّت السمة المادية غالبة على طابع العلاقات الإسلامية – الصليبية، فأخذ كل فريق يحرص على الرخاء المادي وترف الحياة والتعايش السلمي، فكان لكلٍ ذلك أثر بالغ في ازدهار الحركة التجارية، وقد استمر الوضع على هذا النحو إلى غاية سقوط آخر معقل للصليبيين ببلاد المسلمين.

ولعلَّ أبرز ما يؤكد مدى حيوية الحركية التجارية زمن الحروب الصليبية بين الشرق الإسلامي من جهة والغرب الصليبي من جهة أخرى، هو تعدد الطرق التجارية وتنوعها بين البرية والبحرية، حيث سلكت تجارة الشام عدة طرق برية أهمها:

1- طريق الخليج الفارسي – بغداد: هو من أقدم الطرق البرية وأهمها في العصور الوسطى، يبدأ من رأس الخليج الفارسي ثم يتجه بفروعه النهرية أو البرية من البصرة إلى بغداد، حيث يتفرع فرعين: يتجه الأول شمالاً إلى ديار بكر ويتجه الثاني غرباً إلى دمشق، ومنها تخرج فروع على موانئ ساحل البحر المتوسط ثم جنوباً إلى مصر، وفرع يتجه شمالاً بغرب حلب ثم إلى آسيا الصغرى ليلتقي بالطرق القادمة من وسط آسيا براً، ويتَّحد معها إلى القسطنطينية، أحد نقاط الاتصال بين الشرق والغرب على زمن الحروب الصليبية، غير أن هذا الطريق قد فقد أهميته بعد غزوات المغول خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.[2]

2- طريق الشام – مصر: يتجه هذا الطريق من دمشق إلى طبرية ثم إلى اللجون ثم إلى الرملة، ومن الرملة إلى غزة ثم إلى العريش ثم إلى القاهرة.[3]

3- طريق القسطنطينية – أنطاكية: هو طريق بري، يبدأ باختراق جبال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بأبواب قيليقية، إلى قليقية ثم يجتاز سلسلة جبال الأمانوس (الُّلكام) إلى أنطاكية خلال الدرب المعروف باسم أبواب الشام.

4- طريق وسط آسيا:

---

(1) المقريزي، السلوك، 1/ 110.

(2) محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 121.

(3) المقريزي، الخطط، 226/1.

5- طريق اليمن- مكة- الشام:

6- الطريق البري من غرب أوروبا إلى المشرق:[1]

أما عن الحركية التجارية بين الشرق والغرب خلال فترة الحروب الصليبية على الناحية البحرية، فقد تعددت هي الأخرى وتنوعت وكانت نشيطة إلى حدٍ بعيد، حيث كانت السفن تخرج من المدن الإيطالية وجمهورياتها متفرعة بين غرب البحر المتوسط إلى بلاد الفرنجة وبلاد المغرب، وشرقًا إلى مصر والشام والأناضول، مارةً بعدَّة مراكز تجارية على حوض المتوسط، ومن أبرز طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب، ذلك الطريق الرابط بين الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر ثم يتجه شمالاً بعد أن يترك البحر الأحمر عبر سيناء إلى دمشق، ثم إلى موانئ ساحل البحر المتوسط.[2]

وقد ظلَّت الشام منطقة عبور للتجارة الشرقية والغربية خلال فترة العصور الوسطى، حيث عرف هذا النظام باسم " تجارة العبور أو الترانزيت"، فتصل السفن الأوروبية لموانئ الشام، حيث تجد تجار المنطقة وقد جلبوا المتاجر والسلع الشرقية من الهند والشرق الأقصى ووسط آسيا وإفريقيا، فيتولون نقلها إلى أوروبا.

وفي أيام غزو المغول لشرق العالم الإسلامي وزحفه على الأقاليم الغربية منه وبلوغه إلى غاية أواسط أوروبا، فقد تأثَّرت حركة التجارة في القارة الآسيوية بشكلٍ كبير، إذ يمكن القول بأنّها نشطت عمَّا كانت عليه من قبل، كما وأنَّ حملات جنكيزخان قد أسهمت في تقريب قارتي أوروبا وإفريقيا بالقارة الآسيوية،[3] فسهَّل ذلك اتصال الشرق بالغرب حضارياً وبخاصة اقتصادياً.[4]

فقد كان للسياسة المغولية دور هام في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب خلال فترة العصور الوسطى، إذ قامت هذه السياسة على أساس فتح أبواب الطرق التجارية للجميع وتأمين التجار وضمان سلامتهم وممتلكاتهم إبان وجودهم بينهم أيام سيطرتهم على معظم قارة آسيا، حيث يتضح اهتمام المغول بضمان النشاط التجاري بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي مرورا بالعالم الإسلامي، هو سيطرتهم على طريقين تجاريين رئيسيين من بين ثلاثة في العالم الوسيط وهما:

- الطريق الشمالي (طريق الحرير العظيم) الذي يربط البحر الأسود غربا بالصين شرقًا عبر

---

(1) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص222.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، 116/28، الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 125- 126.

(3) أنظر: الخريطة رقم (07)

(4) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 291.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العديد من المدن والمحطات التجارية البرية في وسط آسيا.

- الطريق الثاني وهو الطريق الجنوبي (البحري والبري على حد سواء حتَّى الخليج العربي ومنه إلى مدن العراق وإيران ومنها شمالا إلى موانئ البحر الأسود أو غربا نحو ميناء إيَّاس الأرمني أو أسواق الشام.[1]

وقد كان تأمين الطرق التجارية بالنسبة للمغول أمرًا ضروريًا وذلك لحاجتهم إلى الانتقال للجنود والمعدات العسكرية سواء بين عاصمتهم قره قورم وبين مراكز توسعاتهم في آسيا وأوروبا،[2] وكذا لضمان تبادل غنائم الحرب والسفارات بين قواد المغول في أقاليمهم الواسعة[3]، حتّى أن ابن بطوطة يُشيد بعهود المغول في تأمين الطرق التجارية أثناء زيارته للصين في الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي/ القرن الثامن الهجري، حيث قال:" إنَّ بلاد الصين أأمن البلاد حالاً للمسافرين، وأنَّ الإنسان يسافر منفردًا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها.[4]

إلاَّ أن تبدل الخريطة السياسية في غرب القارة الآسيوية خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كان له وقع كبير على النشاط التجاري، بحيث أن الطابع السياسي الذي حكم في عديد من المناطق في الجزء الغربي من القارة كان مختلفًا، مما أدَّى إلى اختلال الأمن وانتشار الفوضى على طول الطرق التجارية البرية، وبخاصة الطريق الذي يربط الموانئ الشامية وموانئ البحر الأسود إلى أوروبا والقادم من بكين مرورًا ببلاد ما وراء النهر، وحتَّى بالنسبة للطريق القادم من دلهي في شمال الهند والذي يلتحم بالطريق الأول.[5]

ضِفْ إلى ذلك الوضع المتردي للخلافة العباسية والدويلات الإسلامية المتناثرة في بلاد الجزيرة والشام بعد وصول جحافل الجيوش المغولية إليها، مما جعلها تركز اهتمامها على كيفية ردِّ ذلك الخطر وثنيه عن تحقيق أهدافه، دون الاكتراث بتأمين طرق التجارة بين شرق آسيا والبلاد الأوروبية، ومع سقوط بغداد وسيطرة المغول على العراق العربي وبلاد الجزيرة وشمال الشام، أخذ الوضع في التغير

---

[1] عادل إسماعيل محمد هلال، **العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على الإسلامي**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1997، ص 219.

[2] أنظر: الخريطة رقم (08)

[3] عادل إسماعيل محمد هلال، المرجع السابق، ص 219- 220.

[4] ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، دار لكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص 632.

[5] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 294.

تدريجيًا، حيث سعا خلفاء جنكيزخان إلى احترام نظمهم الاقتصادية وتوطيد علاقاتهم التجارية مع جيرانهم والاستفادة منها، فقد حرصوا على حماية القوافل التجارية التي تسير عبر ممتلكاتهم، فاهتموا بالطرق التجارية وأقاموا الحراس على طولها لحماية التجار الأجانب وأمروا بأن يعاملوا أحسن معاملة في الأماكن التي يمرُّون بها، كما سعى المغول إلى تحسين علاقاتهم مع جيرانهم وبخاصة مع المسيحيين لاجتذابهم إلى صفوفهم في حربهم مع المسلمين بوجه عام والمماليك في مصر بوجه خاص.(1)

وهكذا نرى بأن الغزو المغولي والحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، قد أدّت بعد أن هدأت العاصفة الحربية إلى اتساع نشاط التجارة بين القارتين الآسيوية والأوروبية، وهو الأمر الذي ساهم في زيادة تواصل أهالي غرب آسيا بشرقها، بل ونجحوا في تكوين جاليات وعصبيات لهم فيها، حيث شجعتهم الحركة التجارية على الاستيطان في تلك الجهات، كما وأن من أثر تلك الحملات نشأة الكثير من المستعمرات والمراكز التجارية في غرب القارة الآسيوية.(2)

3-2 الصراع الديني

إذا كنا قد لمسنا في حديثنا عن الأثر الاقتصادي وجود رغبة كبيرة لدى كل الأطراف المعنية بذلك الصراع الذي شهدته الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في ضرورة دوام نشاط التجارة وتحريرها بين أقاليمهم، بل ورأينا منهم حرصًا كبيراً على تأمين طرقها وتسهيل تبادل القوافل التجارية البرية والبحرية على السواء، على الرغم مما اكتنف الوضع السياسي من اضطراب وفوضى، ووقوع معارك دامية لم يسلم منها حتى الحيوان والنبات.

، الحديث عن آثار ذلك العدوان على المجال العقائدي فإننا نلمس رغبات متباينة، وصراعًا حثيثًا بين تلك الأطراف وبخاصة المسلمين والصليبيين، حيث سعى كل طرف منهما إلى استمالة المغول الذين تعددت معتقداتهم، للاستعانة بهم في مواجهة الطرف الآخر، كما ولا ننسى بأن أصل الصراع الإسلامي- الصليبي هو ديني بالدرجة الأولى رغم ما يُبطن من أهداف ودوافع أخرى، لذا فإن هذه الفترة من الاحتكاك بين الشرق الآسيوي بالغرب الأوروبي مروراً بالعالم الإسلامي، قد ولّد عنه خارطة دينية جديدة، نتيجة ما ساد خلالها من أحداث.

(1) Héyd : **Histoire du commerce du levant au Moyen age**, tom. II, p72.

(2) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 299.

فالأمة المغولية في بادئ الأمر كانت تدين بالديانة الشامانية، وخاصة في الأيام التي كانوا فيها على بداوتهم وفطرتهم، وقد بدأ المغول يتحررون من هذه الديانة تدريجيا منذ أخذوا يتوسعون شرقا وغربا ويؤسّسون لهم مُلكًا خاصًا على حساب جيرانهم، فالتقوا على إثر ذلك بحضارات متباينة وديانات عديدة، أبرزها الديانة البوذية والمسيحية والإسلام، حيث كان تأثُّرهم بها بمقدار ما كانت عليه هذه الحضارات والديانات من قوة أو ضعف، كما وعمل دعاة هذه الديانات للوصول إلى قلوب المغول، لينشأ على إثر ذلك صراع عنيف بينهم.[1]

لم يكن بإمكان المغول من جهة وأصحاب الديانات الإسلامية والمسيحية والبوذية من جهة أخرى من التعايش سلميًا خلال السنوات الأولى من الحملات المغولية على مختلف مناطق العالم القديم، وذلك بسبب الفوضى السياسية والعنف العسكري الذي أفنى من معالم الحضارة الإنسانية عامة والإسلامية خاصة الشيء الكثير، ومع هدوء المغول وتركهم للتخريب والتدمير، ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى، فأعفوا رجال الدين منهم من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية،[2] بل واعتاد الخانات العظام للمغول حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحيين والبوذيين، ضمانًا لالتفاف الجميع حولهم وتأييدهم لهم.[3]

تأثّر المغول في الجزء الشرقي من إمبراطوريتهم بالديانة البوذية، حيث تحوّل دعاة هذه الديانة ما من موطنها الأصلي في بلاد الهند إلى هضبة التبت، فأخذوا يعملون على نشرها في ذلك الجزء، ليحققوا نصرا عظيما باعتناق كوبلايخان (655هـ- 693هـ/ 1257م- 1294م) أحد حكام المغول هذه الديانة، ولا يزال سكان هذا الجزء من القارة الآسيوية يدينون بهذه الديانة إلى اليوم.[4]

ولم تقتصر الجهود في هذا المسعى على البوذيين فحسب، بل أن المسيحيين كذلك سعوا إلى تنصير هؤلاء القوم، مستغلين في ذلك ما صارت عليه القوى الإسلامية من ضعف وتفكك وما لاقاه المسلمون من فتك وإبادة على يد جنود جنكيزخان وخلفاءه، وكذا تعرض الكثير من دور العبادة ومراكز التعليم الدينية والمكتبات الإسلامية إلى التدمير، فكان ذلك حافزًا كبيرًا للمسيحيين على

---

(1) رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 29، عادل إسماعيل محمد هلال، المرجع السابق، ص 167.

(2) ابن العبري، المصدر السابق، ص 459، 491.

(3) توماس أرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة، 1970، ص 191.

(4) عادل إسماعيل محمد هلال، المرجع السابق، ص 167.

نشر ديانتهم بين المغول،[1] كما وساعدهم على ذلك زوجات العديد من خوانين المغول وإيلخاناتهم وأمرائهم اللواتي كُنَّ على الدين المسيحي، حيث عملن جاهدات للتأثير على أزواجهن بغية اعتناق المسيحية واضطهاد الإسلام، لتزيد جهود الوزراء والموظفين من المسيحيين في البلاط المغولي وكذا الرهبان والبابوية في أوروبا من التأثير على قادة المغول للانحياز إلى ديانتهم.[2]

لكن هذا المسعى المسيحي وإن كان قد نشط خلال هذه الفترة، لا يُعد محطة البداية لحركة التبشير بالديانة المسيحية في أقاليم آسيا الشرقية، حيث أن وصول المبشرين الأوائل لها كان في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، لكنَّ نشاطهم كان محدودا بسبب الأوضاع السياسية التي ميَّزت هذه الأقاليم خلال تلك الفترة، ومع بداية حملات جنكيزخان على شرق العالم الإسلامي وضعف المسلمين أمامهم أخذ نشاطهم في الازدياد وخاصة بعد سقوط دولة خوارزم شاه ثم الخلافة العباسية، ووصول الجيوش المغولية إلى بلاد الشام ومصر وطرق أبواب أوروبا من الناحية الشرقية، فقد وجدت البابوية بأن التحالف مع المغول أمرٌ ضروري لاتقاء شرِّهم من جهة وللإطباق على ما تبقى من قوة المسلمين من جهة ثانية، ورأت بأن أفضل حلٍّ لتحقيق ذلك التحالف هو استمالة المغول للدين المسيحي.[3]

وقعت العديد من الاتصالات بين أوروبا والمغول بغية تحقيق ذلك التقارب، خاصةً بعدما بلغ مسامع الغرب الأوروبي شائعةٌ تقول بأن هؤلاء القوم قد اعتنقوا المسيحية، ولهذا سعى العديد من باباوات المسيحية إلى تجسيد ذلك بإرسال وفود ورهبان إلى عاصمة المغول قره قورم، كما فعل البابا أنوسنت الرابعInnocent IV عام 643هـ/ 1245م حين أرسل بلانو دي كاربيني وراهبا آخر من رهبان الفرنسسكان إلى بلاد الخان الأعظم ليشهدا حفل تنصيب كيوك خان، وقد نجح هذان الراهبان في التأثير على وزيرين من وزراء كيوك فاعتنقا الديانة المسيحية وأثرا بدورهما على ذلك الخان.[4]

---

(1) حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 279، إسماعيل عبد العزيز الخالدي، المرجع السابق، ص 177-178.

(2) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص202.

(3) المقريزي، السلوك، 584/1.

(4) رغم جهود هاذين الراهبين إلا أن كيوك خان لم يعتنق المسيحية ولم يتم التحالف بينه وبين ملوك أوروبا، لأن كيوك طلب من كاربيني أن يبلغ البابا وملوك أوروبا أن عليهم أن يعلنوا خضوعهم له أولا، أنظر، رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 42-43.

ظلَّ المسيحيون في أوروبا وبلاد الشام يُمنُّون النفس باستمالة المغول إليهم، فواصلوا بذلك جهودهم في التقرب منهم بإرسال الوفود والمبشرين، إلا أنَّ خانات المغول كانوا يشترطون على تلك الوفود الدخول في طاعتهم قبل التحالف معهم أو اعتناقهم للدين المسيحي، فكانت تلك أكبر عقبة واجهتها البابوية لتحقيق مساعيها، ومع ذلك فقد أثمرت تلك الجهود على إسقاط عاصمة الدولة الإسلامية بغداد، بعد أن استطاع هيثوم ملك أرمينيا المسيحي إقناع منكوخان بوجهة نظره في غزو بغداد، فكلَّف أخاه هولاكو بتنفيذ هذه المهمة، فتمَّ ذلك في عام 656هـ/ 1258م، مما أبهج المسيحيين في كل مكان، ليستمر ذلك التعاون بين الطرفين في غزو المغول لبلاد الشام، وإسقاط حكم الأيوبيين عنها.[1]

ورغم تلك الجهود التي بذلها كل من البوذيين والمسيحيين في التأثير على المغول وجذبهم إليهم إلا أنهم فشلوا في مساعيهم، ذلك لأن ميل البعض من المغول وحكامهم واعتناقهم للبوذية أو المسيحية لم يكن سوى أمرا شخصيًا، ولم يكن اتجاها عامًا حمَّل الناس على اتباع هذين الديانتين، ولأن ذلك الميل أصلاً كان لأهداف سياسية، وليس لقناعات روحية.[2]

ويعود ذلك الفشل لأصحاب الديانة المسيحية إلى الصراع الداخلي الذي شبَّ بين المسيحيين أنفسهم، حيث لم يكن المبشرون المسيحيون على وفاق فيما بينهم، وانقسموا إلى فريقين، أحدهما يناصر الكنيسة الأرثوذكسية "النسطورية"(الشرقية)[3] وفريقًا يناصر الكنيسة الكاثوليكية (الغربية)، بل أن كلا منهما سعى إلى جذب أتباع الآخر إلى مذهبه أكثر من سعيهم إلى اجتذاب المغول الوثنيين إلى المسيحية، مما أضعف قوة المسيحيين أمام نشاط الدعاة من المسلمين،[4] وبهذا فإنه بالرغم ممَّا بذله المسيحيون في ذلك الوقت من جهود لاستمالة المغول إليهم سياسيًا ودينيًا، فإن نجاحهم كان محدودا، وفي ذلك الوقت الذي كان الصراع قائما بين أصحاب المذاهب المسيحية، نرى

(1) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 252، رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 44.

(2) القلقشندي، صبحي الأعشى، 310، 312.

(3) النساطرة: هم فرقة قالت بأن للمسيح أقنونين كاملين متميزين عن بعضهما وأن له أيضاً طبيعتين، كما توجد ضمن الطائفة الأرثوذكسية فرقة أخرى يطلق عليها اسم اليعاقبة، وهي تنتسب إلى يعقوب وهي إحدى الفرق التي اختلفت حول طبيعة المسيح، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 31.

(4) رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 45.

الديانة البوذية توطد أقدامها بين المغول في الجزء الشرقي من قارة آسيا،[1] كما نرى المسلمين يعملون جاهدين على نشر ديانتهم في غربها.[2]

في نهاية ذلك الصراع العقائدي بين الديانات الثلاث فقد تحقق للمسلمين ما لم يتمكن من بلوغه كل من المسيحيين والبوذيين، حيث أنَّه وبتولي غازان محمود Ghazan mahmud سابع إيلخانات المغول في فارس الحكم (694هـ- 703هـ/ 1295م- 1304م) واعتناقه الإسلام، عمل على فرض هذا الدين على جميع سكان بلاده وجعله دين الدولة الرسمي، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام ينتشر انتشاراً سريعًا في دولة إيلخانات المغول في فارس، وضاع ما كان يؤمِّلُه المسيحيون من انتصار على المسلمين.[3]

غير أنَّ هذا النصر الذي ناله المسلمون على عهد غازان محمود لم يكن إلا نتيجة لعوامل عِدَّة سبقت ذلك نوجزها في النقاط التالية:

1- **الأحوال الدينية والحضارية المتدنية للمغول:** حيث أنَّ هؤلاء القوم وقفوا مذهولين أمام حضارة الإسلام بعد أن هدأت فورة فتوحاتهم وغزواتهم، فشدَّتهم حياة الاستقرار وجذبتهم مدن الإسلام بما فيها من قصور ودور وحمامات ومدارس ومساجد وحدائق لم يعرفوها من قبل، ورأوا مُثلاً وقيمًا إسلامية فاقت ما كان لديهم من قيم ومُثل لا تعبر إلاَّ عن الهمجية والوحشية والقسوة وسفك الدماء.[4]

2- **زواجهم من مسلمات:** ذلك أن الكثير من خوانين وايلخانات وأمراء وقادة المغول قد

---

[1] لم ينجح دعاة البوذية في نشر ديانتهم سوى في دولة واحدة من دول المغول الأربعة، وهي دولتهم في بلاد الصين والخطا ومنغوليا حيث يدين أغلبية الناس هناك بالبوذية وغيرها من الأديان الوثنية المنتشرة في تلك البقاع مثل الشامانية والهندوسية والكونفوشيوسية، أما في باقي أنحاء الإمبراطورية فقد فشلت البوذية في جذب المغول إليها مثلها في ذلك مثل المسيحية، ذلك لأن البوذية انقسمت على نفسها إلى فرق متنافسة، ولم تقو هذه الفرق المتنافسة على الصمود أمام الإسلام كديانة يعتنقها معظم السكان في غربي ووسط آسيا، ورغم انتشار البوذية المحدود في تلك المناطق أيام هولاكو ومن أتى بعده من الإيلخانات البوذيين، فقد انتهى هذا المد البوذي في إيران باعتلاء غازان بن آرغون بن أبغا بن هولاكو العرش عام 694هـ/ 1259م، حيث اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين قومه من المغول، أنظر، ابن حبيب، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تح، د. محمد محمد أمين، مراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، 183/1.

[2] حافظ أحمد حمدي، المرجع السابق، ص 279.

[3] رجب محمد ، المرجع السابق، ص 60- 66.

[4] ابن كثير، البداية والنهاية، 13/ 118- 119، القلقشندي، صبحي الأعشى، 4/ 311- 312.

تزوجوا بتركيات وفارسيات مسلمات، فكان لذلك أثره في بلاط المغول وفي الأسرات المغولية بصفة عامة، حيث يذكر لنا المؤرخون[1] بأن جنكيزخان بعد أن تغلب على خوارزم شاه سنة 617هـ/ 1220م، أسر أمه وبناته وتزوج ابنه جوجي واحدة منهن، وتزوج بعض أمراء المغول باقيهن، وهنا لابد أن نشير إلى أن جوجي هذا هو جد بركة خان سلطان القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، والذي كان أول من أسلم من ملوك المغول كافة حوالي 653هـ/ 1255م، وقد غضب لغزو هولاكو بغداد وتوعَّده بالقتال جزاء ما أصاب خليفة المسلمين وبغداد من تدمير وقتل.

3- **استخدامهم لوزراء وموظفين من المسلمين:** وكان ذلك في معظم مناصب الدولة العليا وإداراتها في العاصمة والأقاليم، نظرًا لبداوة المغول وافتقارهم لمعرفة وسائل الإدارة المالية لهذه البلدان المفتوحة، خاصة أن الكثير من فقهاء المسلمين ومثقفيهم أبدوا رغبة في التعاون مع المغول، بحكم أن سلطانهم صار أمرًا واقعا ومحتومًا، ولأنَّ تعاونهم مع هؤلاء الغزاة سيخفف من غلوِّهم في معاملة المسلمين،[2] ومن الأمثلة عن الموظَفين المسلمين في بلاطات المغول، نصير الدين محمد الطوسي الذي كان مستشارا ووزيرا لهولاكو، وعلاء الدين الجويني الذي عيَّنه أبغا بن هولاكو (664هـ- 680هـ/ 1265م- 1281م) حاكمًا مطلقًا في بغداد، وغيرهم من الموظفين كُثر.[3]

4- **أثر الغالبية المسلمة من الفرس والترك:** حيث عاش هؤلاء بين المغول واحتكوا بهم اجتماعيًا واقتصاديًا، مما دفعهم إلى تشرُّب الحضارة الإسلامية ثم تقبل الإسلام واعتناقه.

5- **تأثير الطرق الصوفية:** كان ظهورها بشكل لافت وسريع بسبب ما أصاب العالم الإسلامي من تخريب وتدمير منذ نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على أيدي الصليبيين والمغول على السواء، وكذا لاستبداد حكامه وظلمهم للرعية، فكان من نتيجة ذلك أن لجأ الكثير من المسلمين إلى التصوف يلوذون به كأسلوب من أساليب المقاومة، وقد حقق هؤلاء المتصوفة انتصارات عدَّة في نشاطهم الدعوي ومقاومة الأعداء.[4]

---

(1) أنظر مثلا: الهمداني، جامع التواريخ، 2/ 332، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، 475.

(2) القلقشندي، صبحي الأعشى، 4/ 423- 424.

(3) الهمداني، جامع التواريخ، 2/ 338، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 497.

(4) لقد كان مما ساعد الصوفيين في نشاطهم لنشر الإسلام أن المغول كانوا يكنون احتراما كبيرا للصوفيين ولا يلحقون بهم شيئا من الأذى، إلا إذا أظهروا مقاومة لهم، وكان لإتباع المغول هذه السياسة مع هؤلاء الرجال الذين اشتهروا بالتقوى والورع الشديد عن التفاف جماهير الناس حولهم، وحتى لا يتعرض حكمهم للمقاومة من قبل رجال الصوفية أولئك، أنظر، الديار بكري، أخبار الخميس في أحوال أنفس نفيس، 2/ 369، رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 84-85.

6- **أثر التجارة في تحول المغول إلى دين الإسلام:** سار نشاط الدعوة إلى الإسلام جنبًا إلى جنب مع النشاط التجاري، حيث كان للتجار المسلمين أثرٌ كبير في تحويل المغول إلى هذا الدين نظرًا لكونهم ظلّوا يعتبرون النشاط التجاري العمود الفقري للحياة الاقتصادية في بلادهم لقلة الموارد الأخرى بها، فحرصوا على تأمين طرقها، وهو ما شجع التجار المسلمين على إقامة علاقات مع المغول أدّت إلى تعريفهم بالدين الإسلامي واستمالتهم إليه.[1]

هذا بالنسبة للأثر الديني الذي أعقب حملات المغول على ديار الإسلام، والذي برز لنا من خلاله صراع محموم بين أصحاب الديانات البوذية والمسيحية والإسلام من أجل التأثير على المغول واستمالتهم إليهم، مما أدَّى إلى حدوث تغيرات كبرى مسَّت الخريطة الدينية في أقاليم القارة الآسيوية، أمَّا على مستوى الصراع الإسلامي- الصليبي فإن الأثر الديني لتلك الحملات التي شنها الإفرنج على العالم الإسلامي- رغم طابعها الديني- لم يكن كبيراً باعتبار أن أصحابهما ينتميان إلى ديانتين سماويتين، وأنَّ كلاهما كان يرى في عقيدته أنّها الأحق بأن تُتَبع، فلم يحدث على ذلك تسابق في استمالة طرف إلى طرف الآخر، ومع ذلك فلا نمل تلك الأحداث الدموية التي مسَّت الكثير من جوانب الحياة الدينية عقب حملات الإفرنج، من تدمير للمعالم الإسلامية وقتل الكثير من علماء الأمة وفقهائها، وحرق العديد من المؤلفات والكتب الدينية القيمة.

3-3 التفاعل الاجتماعي

عُدَّت مرحلة العصور الوسطى في تاريخ البشرية، وبخاصة فترة الحروب الصليبية والغزو المغولي على المشرق الإسلامي من أكثر الفترات دمويةً وعُنفًا، حيث صاحب أحداث تلك الفترة من إفناء الأرواح وطمس معالم الحضارة الإسلامية الشيء الكثير، وهو ما دفع بالعديد من مؤرخي تلك الفترة إلى الإحجام عن ذكر وقائعها لفظاعتها،[2] ومن ذكرها منهم فإنَّه لم يستطع إخفاء تأثره بما وقع

---

[1] ابن بطوطة، الرحلة، 260.

[2] يعد ابن الأثير من أبرز المؤرخين المسلمين لأحداث فترة الغزو المغولي والعدوان الصليبي على بلاد الإسلام، وقد أعرض في بادئ الأمر عن سرد وقائع الحملات المغولية، إلا أنه تراجع بعد ذلك، حيث يقول عن هذا في مؤلفه الكامل في التاريخ،" لقد بقيت عدَّة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا وأُؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مُتُّ قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا، إلا أنِّ حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقَّت (عقمت) الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق، وخصَّت المسلمين،

خلالها من مذابح لم يسلم منها لا الصغير ولا الكبير، ولعلَّ في الأحداث التي شهدتها مدينة القدس حين استولى عليها الصليبيون سنة 492هـ/ 1099م[1] وكذا لأحداث مدينة بخارى حين غزاها المغول عام 616هـ/ 1219م[2] لأبرز دليل وأقوى حُجَّة على آلام المسلمين في ذلك الوقت من التاريخ الإنساني.

ورغم هذا الطابع الحربي لاتصال المسلمين بالصليبيين والمغول، فقد نتج عن أحداثه آثار اجتماعية تمازجت فيها الحياة الإسلامية بالأوروبية والمغولية، وبخاصة في أوقات السلم، التي كانت أكبر من أوقات الحروب، فالملاحظ بأنَّ الصليبيين بعد انقضاء الجيل الأول منهم، والذي عاصر بلدوين وجوسلين الأول، قد نسوا تعصُّبهم الديني الأعمى وسعوا إلى المحافظة على ما بأيديهم من أراضٍ وأملاك، في حين أنَّ جموع الإفرنج الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبي، فقد كانوا أشدَّ غِلظةً وجفاءً واتصفوا بالتعصُّب، وعن هذا يقول ابن منقذ:" فكلُّ من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبدلوا وعاشروا المسلمين".[3]

أسهمت تلك العلاقات الودية التي ربطت بين المسلمين والصليبيين، بأن خلقت حياة اجتماعية بين الفريقين، كانت مزيجًا من الحياتين الشرقية الإسلامية والغربية الصليبية، تداخلت إحداهما في الأخرى وأثَّرت كل واحدة منهما في الأخرى،[4] فاكتسب على إثرها العديد من الصليبيين الذوق الشرقي في الأطعمة والأشربة، وارتدوا الزِّي الشرقي تشبهًا بالمسلمين، وبنوا لأنفسهم دوراً وقصوراً على الطراز السوري (الشامي)، والتي تألَّفت في العادة من طابقين في وسطها من الداخل نافورة تتدفق فيها المياه، وزُينت نوافذها بالزجاج الملون وأرضها بالموزاييكو، ثمَّ فرشوا هذه البيوت بالسَّجاد والطنافس وزينوها بالرياش الفاخر والمصنوعات الشرقية والأواني النحاسية المنقوشة.[5]

=فلو قال قائل: إنَّ العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يُبتلوا بمثلها، لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمَّن ما يقاربها ولا ما يُدانيها". 12/ 358.

(1) عن استيلاء الصليبيين على مدينة القدس، وما صاحبها من أحداث، راجع، فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 75، ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة، ص 246- 247، ابن الأثير، الكامل، 10/ 283-284، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 222، ابن الوردي، تتمة المختصر، 20/2.

(2) ابن الأثير، الكامل، 365/12-367، المدائني، الحملات، ص 32، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 408.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 135.

(4) أحمد الشامي، المرجع السابق، ص 204- 205.

(5) محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 243.

كما أقبل الصليبيون على ارتداء الثياب الشرقية الفضفاضة، ذات الأكمام الواسعة، والألوان الزاهية والموشاة بخيوط من الذهب أو الفضة أو الحرير، وأخذوا عن العرب إطالة الملابس، وأطلق البعض منهم لحاه تشبها بالشرقيين، حتى أن بلدوين ملك بيت المقدس (1100م- 1118م) استبدل ثيابه الغربية بأخرى شرقية، وأرسل لحيته، وتناول طعامه على بساط متربعًا على الأرض على الطريقة الشرقية، أما النساء الصليبيات فذن المجوهرات الشامية والمصرية واستعملن المساحيق والخضاب لزينتهن،[1] وفي الشتاء ارتدت المرأة الصليبية الفراء مثلما يفعل زوجها، وضربت الخمار على وجهها، وإذا خرجت من الدار اتخذت الحجاب، شأن النساء المسلمات المحتشمات.[2]

ومن العادات كذلك التي أُ حب بها الفرنجة في بلاد الشام، الاستحمام في الحمامات العربية، فأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً، واتخذوها نوادٍ يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات الساخنة وتجاذب الأحاديث، ومع هذا فإنَّ ذلك الاتصال الذي كان بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام لم يكن تأثيره على الجانب الصليبي فحسب وإنما كان على المسلمين كذلك — رغم قلة ذلك التأثير– ، حيث ذكر ابن جبير عن حفلات الزواج التي كان يُقيمها الفرنجة ويدعون لها المسلمين بأنَّه كان يحدث فيها من الاختلاط ما لم يألفه المسلمون قبلاً، ورأى فيها بُعدًا عن تقاليد المسلمين، وانحرافًا عن الشريعة الإسلامية،[3] حتَّى أن ابن منقذ كان يشير إلى تبدل طباع المسلمين في هذه الزيجات بالقول: "وما فيهم غيرةٌ ولا نخوة".[4]

والمدهش في علاقات المودَّة التي ربطت بين المسلمين والصليبيين في تلك الفترة لم تتم في أوقات السلم فقط، ولكنها حدثت في أشد أوقات الصراع الدموي بين الفريقين، فإذا حدث أن وقف الجيشان وجهًا لوجه مدةً طويلة، ولم تكن النتيجة حاسمة لكليهما، سئم الرجال القتال وتبادلوا الفكاهة والطرف، إلى أن يعود القتال من جديد، فيروي عن ذلك ابن شداد حينما طال القتال أمام عكا عام586هـ/ 1190م فيقول:" أنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان (المسلمون والصليبيين) تتحدثان وتتركان القتال، وربَّما غنَّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة"[5]

---

[1] ابن جبير، الرحلة، ص388.

[2] محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 244.

[3] ابن جبير، الرحلة، ص 278- 279.

[4] ابن منقذ، الاعتبار، ص 137.

[5] ابن شداد، النوادر السلطانية، 108.

لم يقتصر ذلك التأثير والتفاعل بين الطرفين على الجانب المادي من لباس وعادات ومأكل ومشرب وبنيان فحسب، وإنما تعداه ليشمل قيم وأخلاق انبهر بها الصليبيون عن المسلمون وفي نفس الوقت تفاجأ لها ونبذها المسلمون على الجانب الصليبي، لعل أبرزها قيم التسامح والعفو التي اكتسبها زعماء المسلمون وعامتهم انطلاقًا من تعاليم دينهم، التي لم تُجبر الناس على الدخول فيه، ولم تجعل من الاختلاف في العقيدة سببًا للظلم والتعسف، فهو مقرر قاعدة (لا إكراه في الدين)[1] فالصليبيون لم يكونوا يعرفون صفة التسامح السامية إلى حين اختلطوا بالمسلمين.

ودليلنا على انعدام تلك الصفة من الفرنجة هو ذلك التعصب الديني المقيت الذي ميَّز عدوانهم على أقاليم المشرق الإسلامي، حيث كانوا ينكلون بكل من يخالفهم في الدين ويعتدون على أي شخص تمكنوا منه، كبيرا كان أم صغيرا، رجلا كان أو امرأة، مقاتلا كان أو مسالمًا،[2] وقد أشرنا إلى تلك السلوكيات في أكثر من موضع خلال حملاتهم، كانت أبرزها مذبحتي معرة النعمان محرم 492هـ/ ديسمبر 1098م،[3] وبيت المقدس شعبان492هـ/ جويلية1099م[4] وعلى العكس من ذلك فقد ضرب صلاح الدين للصليبيين أسمى معاني التسامح والعفو حين استرد الكثير من الممتلكات الإسلامية منهم، فوقفوا أمامها مشدوهين في حيرة كبيرة، وأبرزها ما كان فعله بهم حين أعاد القدس إلى حاضرة المسلمين سنة 583هـ/ 1187م، حيث منع الاعتداء على كل صليبي بعد أن استسلمت الحامية الصليبية بالقدس ومنحها الأمان، وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامي فوصلوا آمنين إلى مدينة صور، وفوق ذلك أظهر من الرحمة والشفقة الزائدة عن الحدود، وأحسن إلى الفقراء والأرامل وأيتام القتلى، واعتنى بالمرضى والعاجزين من الصليبيين.[5]

وقد أخذ الصليبيون شيئاً فشيئاً يتأثرون تلك الأخلاق التي اتصف بها المسلمون، فطُبعوا عليها حتى صار الشخص لا يفرق بين الشامي والإفرنجي لا في مظهره الخارجي ولا في سلوكياته،

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.

(2) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 80، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 157

(3) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الأثير، الكامل، 178/10، بطرس توديبود، تاريخ، ص 257، الحريري، الإعلام، ص9، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص 170- 172.

(4) فوشي الشارتري، المصدر السابق، ص 75، ابن الأثير، الكامل، 10/ 283-284، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الوردي، تتمة المختصر، 20/2.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 158- 160.

على أن ذلك التفاعل بين الطرفين لم يصل حد إقامة علاقات زواج بينهما إلا فيما نذر، والسبب في ذلك يرجع إلى اعتزاز المسلمين بدينهم وتراثهم، وأنهم كانوا يشعرون برقي ثقافتهم وحضارتهم عن الصليبيين، ولكن بعض الصليبيين تزوجوا من الشاميات المسيحيات، كما تزوج بعض الشاميين المسيحيين بإفرنجيات، فنشأ عن ذلك التزاوج جيل هجين جمع بين الجنس العربي والإفرنجي، وهو ما عرف بالبولاني، Poulain (المهر الصغير)[1].

وعلى كل حال فإن ذلك التفاعل الاجتماعي الذي حدث بين الطرفين لم يكن على نفس المستوى من التأثير، فالمسلمون لم يأخذوا عن الصليبيين عاداتهم ولا أخلاقهم إلا ما كانت منها غير متعارضة مع قيم الدين الإسلامي أو عادات البلاد الشامية، وأمّا الإفرنج فقد كان تأثرهم بالأحول الاجتماعية في بلاد الشام كبيراً شمل حتى الملوك والأمراء منهم، والسبب في ذلك يعود إلى كون هؤلاء هم من قدموا إلى بلاد الشام وبالتالي سيَرون ويلامسون الحضارة المادية الإسلامية والمسيحية الشرقية المتواجدة هناك، وأيضاً سيتعاملون لا محالة مع أهل هذه البلاد وسيتأثرون بطبائعهم بحكم أن حملاتهم كانت استيطانية سعت إلى الاستيلاء على الأرض والمكوث فيها،[2] عكس حملات المغول التي كانت ذات طابع عسكري ومادي في أغلبها بعيدة كل البعد عن الطابع الإنساني والاجتماعي إلا في عهد الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام فقد حدث تقارب اجتماعي بين الطرفين ومع ذلك بقي محدوداً.[3]

ورغم ذلك فإن الجانب الحربي للغزو المغولي لا ينفي بعض الجوانب من التأثير والتفاعل الاجتماعي سواء على الجانب الإسلامي أو المغولي، حيث كان جنكيزخان وخلفاؤه من بعده يختارون خيرة الرجال من أصحاب الحرف بعد الاستيلاء على مدنهم ويأخذونهم معهم إلى منغوليا للاستفادة منهم في شتى الأعمال،[4] فعرف المغول على إثر ذلك طراز البناء الإسلامي وبعض أساليب التعامل التجاري المستنبطة من فقه عقيدته،كما وأن النشاط الدعوي الذي قام به المسلمون

---

(1) محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 259.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص 108-109.

(3) صلاح الدين محمد نور، **الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية**، منشأة المعارف للنشر، الإسكندرية، (د ت)، ص 118.

(4) ابن الأثير، الكامل، 12/391- 392.

في سبيل استمالة المغول إلى دينهم كان وراء ذلك الاحتكاك الذي ولّد عنه تفاعل اجتماعي بين الطرفين.[1]

فقد حدث أن تأثر المسلمون بآكلات المغول وخاصة لحم الخيل، فتناولوها في الحفلات والمناسبات التي كانوا يقيمونها، وصنعوا من لبن الخيل بعض الأنواع من الخمر التي أقبل العديد من سلاطين وأمراء المماليك على شربها، حتى أن ابن بطوطة قد تناوله في رحلته إلى بلاد الأوزبك وذكر عنه "بأنه لا خير فيه"[2] كما تعدّى ذلك التأثر إلى الألبسة فارتدى بذلك الأمراء وأصحاب السلطة من المماليك ونساءهم أزياء من مواد آسيا الشرقية وبصنع رجال من المغول.

ولعلّ من أهم مظاهر التفاعل الاجتماعي بين المغول والمسلمين هو انتشار ظاهرة الزواج من مغوليات سواء كانوا أميرات أو جواري بين سلاطين المماليك والأمراء، وحتى من عامة الشعب، نظراً لما اشتهرت به هؤلاء المغوليات من جمالٍ باهر،[3] ولا شك في أنَّ هذا الزواج المختلط قد كان له ثير كبير في انتشار العديد من العادات والتقاليد المغولية في المجتمع الإسلامي، ونتج عنه فيما بعد جيل جديد، منهم من ارتقى إلى السلطنة في مصر كالسلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت أمه "سكباي بن قراجين" التتري الأصل وكانت إحدى زوجات المنصور قلاوون.[4]

---

(1) رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 45.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، 339-341.

(3) ابن الفرات، تاريخ، 205/8 ، المقريزي، الخطط، 2/ 22-23.

(4) المقريزي، الخطط، 2/ 382.

عُدَّت أحداث الفترة الممتدة من العقد الأخير للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وإلى غاية النصف الثاني للقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، – والتي شهدت التكالب الخارجي على ممتلكات العالم الإسلامي من شرقه وغربه– نتيجةً حتمية لما آلت إليه الأوضاع العامة في أقاليمه الشاسعة، إذ لم يكن يُنتظر أمام ضعف الخلفاء العباسيين وتحكم غيرهم في زمام السلطة، وسوء علاقات دار الخلافة بالأقاليم الإسلامية الأخرى، وبلوغ ذلك الإنقسام حدَّ التحالف مع أعداء الدين من الصليبيين والمغول، أن يبقى مجدُ هذه الدولة على حاله الأول، وأن تتمكن من الوقوف في وجه الأخطار التي كانت تحدق بها.

فالحقيقة التي تفرض نفسها بإلحاح في مجريات أحداث تلك الفترة أنَّ أحوال المسلمين كانت لى غاية من السوء، استغلها أعداء الإسلام للقيام بحملاتهم على أقاليمه واخضعوها لحكمهم، فمهما قيل عن الدوافع التي توافرت لدى كلٍّ من الأمتين المغولية والإفرنجية في حروبهم مع المسلمين، إلاَّ أن ما ساد الطرف الإسلامي كان أحفز لهم في حملاتهم، وما النتائج التي حققوها في تلك الفترة الوجيزة، وردود الفعل الإسلامية الأولية اتجاهها إلا دليل على صحة هذه الفرضية.

وما يمكن استخلاصه كذلك في أحداث هذه الفترة أن الأمتين المسيحية والمغولية قد استغلتا أيَّما استغلال ذلك الوهن الذي أصاب جسد الدولة الإسلامية، بحيث استفادوا من ذلك الوضع في حشد جموع شعوبهم خلال حروبهم التي شنوها على أقاليم العالم الإسلامي، كما أنَّهم وظفوا مختلف الأوضاع التي عايشتها تلك الشعوب في أوطانها لزيادة حماسهم والانطلاق إلى تحقيق غاياتهم في تلك الحروب.

فالمسلمون الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الإمارات الصليبية على أرض الإسلام، لم يدركوا حقيقة ذلك الغزو الذي قام به الإفرنج في نهاية القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي متحججين برد الاعتبار للحجاج النصارى المهانون في بلاد الشام وتخليص الأماكن المقدسة فيها من سيطرة المسلمين، فكانت على ذلك ردود فعلهم سلبية عكست واقعهم، فمكّنوا للصليبيين من تأسيس كيانات لهم على أرضهم في أقل من اثني عشرة حولاً من الزمن، حيث أسسوا في السنة التي شرعوا خلالها بحملاتهم إمارتي الرها (ربيع الأول491هـ/فبراير 1098م) وأنطاكية (رجب 491هـ/ جوان 1098م)، ثم تمكنوا بعدها بسنة من الاستيلاء على بيت المقدس هدفهم المنشود وتأسيس مملكة لهم بها في (شعبان 492هـ/ جويلية 1099م)، لتستمر جهودهم في تقويض

حكم المسلمين على الظهير الشامي بالاستيلاء على مدينة طرابلس وإقامة رابع الكيانات الصليبية وكان ذلك في (ذو الحجة 502هـ/ جويلية 1109م).

وعلى نفس النحو سار سلاطين الخوارزميين في تعاملهم مع الغزو المغولي، فنظرتهم الضيقة لما كان يدور حول ممتلكاتهم من أحداث، وصراعاتهم المتكررة مع القوى الإسلامية والأجنبية على السواء وكذا تطاولهم على دار الخلافة ومحاولة إسقاطها، كانت كلُّها عوامل تبين مدى التهور وعدم إدراك مستقبل الوضع السياسي لتلك المنطقة في ظل ظهور المغول القوي وإسقاطهم لإمبراطورية كين في الأقاليم الصينية وسعيهم إلى التوسع غربا لإخضاع دولة الخطا.

فكان من نتيجة ذلك أن منح السلطان علاء الدين خوارزمشاه ذريعة لجنكيزخان بقتل قافلة تجاره التي أرسلها إلى ممتلكات الخوارزميين، ثم رفضه إعطاءه ينال خان حاكم ولاية أترار – – الذي قام بإبادة القافلة– للخان بغية الاقتصاص منه، ليكون ذلك مبرراً وهدفًا انطلق من خلاله جنكيزخان في حشد جموع المغول وحثِّهم على الأخذ بالثأر من السلطان الخوارزمي، فاستطاع في حوالي أربعة عقود بدءًا بسنة حادثة مقتل التجار 615هـ/ 1218م وإلى غاية 658هـ/ 1260م، من أن يخضع جُلَّ أقاليم العالم الإسلامي إلى حكمه ويصل بحملاته إلى جنوب بلاد الشام على الحدود مع الديار المصرية، بعد أن عاث في المسلمين ومدنهم فسادًا كبيرًا.

وإذ أبانت لنا تلك السرعة في الاستيلاء على أقاليم العالم الإسلامي من قبل هؤلاء الغزاة حقيقة الضعف والوهن الذي مسَّت قواه التي حكمت فيه خلال تلك الفترة، فإنّه لا يمكن إنكار تلك الجهود التي قامت بها بعض البلدان الإسلامية كالموصل وحلب ودمشق في عهد الزنكيين ومصر في عهد الأيوبيين متناسية في ذلك أو واضعة الخلافات الداخلية جانبًا، ومتوجهة بجهودها في سبيل رد عدوان الأعداء عن أرض الإسلام، فتتبعنا خلال فصول هذا البحث كيف سعى العديد من قادة المسلمين انطلاقا مدن حكمهم إلى استعادة ما تمَّ الاستيلاء عليه من قبل الإفرنج.

فعلى مستوى مدينة الموصل رأينا كيف ساهم حكام هذه المدينة في رد العدوان الصليبي واستعادة ممتلكاتهم منه، انطلاقا من عهد كربوغا (489هـ- 495هـ/ 1095م-1101م) و شمس الدين جكرمش وشرف الدين مودود بن التونتكين (502هـ- 507هـ/1108م- 1113م) وآقسنقر البرسقي – المتأخر – إلى عماد الدين زنكي (521هـ-541هـ/ 1127م- 1146م)، فكللت تلك الجهود بتحقيق العديد من المكاسب على حساب الطرف الصليبي لعل أبرزها النصر

المظفر الذي حققه عماد الدين باستعادة إمارة الرها في 16 جمادى الآخرة 539هـ/23 ديسمبر 1144م.

على أن جهود حكام الموصل لم تقتصر على رد العدوان الصليبي واستعادة ما استولوا عليه قبلاً فحسب، بل أنهم عملوا جاهدين على بناء جبهة مقاومة قوية ضد الوجود الصليبي بضم المدن الإسلامية التي آبانت على ردود فعل سلبية اتجاه الحملات الصليبية، فتمكن عماد الدين من ضم حلب إلى جبهة الموصل في جمادى الثانية 522هـ/ جوان1128م، كما استطاع خلفه نورالدين محمود من أن يضم دمشق إلى عاصمة حكمه حلب في صفر 549هـ/ أفريل 1154م، ثم جند مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في جمادى الآخرة 564هـ/مارس 1169م، فتشكل بفضل تلك الجهود الموحدة والمقاومة من قبل هؤلاء القادة طوق للمقاومة، أرغم الصليبيين على الانحسار إلى مستوى الساحل الشامي والخروج بعد ذلك نهائيا من أرض الإسلام، بعد ازدياد ضربات المسلمين في عهد المماليك بقيادة المظفر قطز والظاهر بيبرس وقلاوون.

وعلى الطرف الآخر من معادلة الصراع الإسلامي مع القوى الأجنبية، فإننا لم نلمس لدى الحكام الخوارزميين إرادة للوقوف في وجه المغول مغتصبي أراضي الإسلام، إذ أبانت لنا ردود فعل السلطان علاء الدين بعد سير جنكيزخان وجنوده إلى بلاد ما وراء النهر، ثم قصده إقليم خوارزم، بما لا يدعو للشك مدى الخذلان والذلة التي أصابته، حيث اتخذ الفرار على المقاومة سبيلاً لإنقاذ نفسه، وترك مدن أقاليمه وأهلها في أيدي جنود الخان تلقى مصيرها من الإفناء والدمار والتخريب الذي لم يحدث مثيله على حد قول المؤرخ المعاصر للغزو عزالدين ابن الأثير.

أما خليفته جلال الدين منكبرتي فإنه لم يختلف على أبيه من حيث سلبية مواقفه، وإن كانت هذه المرة ليست مع الغول، وإنما مع القوى الإسلامية التي عاصرت فترة عودته إلى حكم الدولة الخوارزمية سنة (622هـ-628هـ/ 1225م- 1231م)، فقد سعى حينما أحسَّ باستعادة سلطته على دولة والده إلى توسيع نفوذه على حساب القوى الإسلامية المجاورة له بل طمع حتى في أملاك الخليفة، مما دفع بهم إلى الوقوف بسلبية على طلب عونهم، حين أخذ المغول يتعقبونه للتخلص منه، ورغم ذلك يقر له التاريخ بوقوفه الند للند في وجه القوات المغولية في معركة بيروان سنة 618هـ/1221م، وأن يقتل منهم ما يزيد عن الألف رجل.

تمكنت دولة المماليك الناشئة من إتمام المجهود الذي بذله من قبل حكام الموصل وحلب ودمشق ومصر في جهاد الصليبيين ومقاومتهم، كما أنهوا سلبية المقاومة الإسلامية – التي طبعت فترة

حكم السلاطين الخوارزميين والحكام الأيوبيين المتأخرين في بلاد الشام- في مواجهة المد المغولي، فكان لهم شرف إيقاف جحافل جيوش المغول عند غزة وهزمهم في معركة عين جالوت 658هـ/ 1260م كما أنهم أنوهوا تواجد الصليبيين على أرض الإسلام باستعادتهم لمدينة عكا سنة 692هـ/ 1292م.

إن هذا التباين في ردود فعل البلدان الإسلامية اتجاه العدوان الخارجي على ممتلكاته، وكذا تباين توقيت دخولها في صف المقاومة الإسلامية، إنما يدلنا على أن كلمة المسلمين كانت متفرقة، وأن الهدف الذي كان يفتح من أجله قادة الإسلام الأولون الأمصار شرقا وغربا قد غاب عن ذهنية زعماء تلك المدن، فكان أكبر همهم حفظ ممتلكاتهم والنجاة بأنفسهم أو مهادنة الأعداء وإلقاء المودة لهم اتقاء شرهم، متناسين واجبهم في صون الإسلام وأرضه وحرماته التي أوكلهم إياها سلف هذه الأمة.

وخلال تتبعنا لتلك المواقف المشرفة في حركة المقاومة الإسلامية، على يد عماد الدين ونورالدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وغيرهم، أدركنا جليًا عوامل النجاح التي صاحبت تلك الحركة، إذ جعل كل واحد من هؤلاء الرجال قضية توحيد الصف الإسلامي ومواجهة الأعداء لإخراجهم من أرض الإسلام، غاية تسمو فوق كل اعتبارات قومية أو عرقية أو شخصية، فحققوا بذلك انتصارات جليلة خطوا بها لأنفسهم ودولهم حروفًا من ذهب كتب بها تاريخ الإسلام والمسلمين.

ورغم أن طابع هذا الصراع بين المسلمين والقوى الأجنبية حربي ودموي إلى حد كبير، إلا أنه لم يخلو من آثار على مستويات أخرى سواء اجتماعية أو دينية أو اقتصادية، ولم يقتصر هذا التأثر على الجانب الإسلامي فحسب بل أنه شمل حتى الصليبيين والمغول، وقد كان هذا التأثر يختلف بين الأطراف الثلاثة وفقا لاعتبارات عدة، فعلى المستوى الاقتصادي سعى كل طرف إلى ضمان سير القوافل التجارية وتأمين طرق التجارة بين الأقاليم المتصارع عليها، فعقدت لأجل ذلك معاهدات ومواثيق تلزم الجميع على احترامها، ولعل سبب جعل الحركة التجارية خارج نطاق الصراع السياسي والحربي، ضرورة لضمان حياة طبيعية للسكان وحتى للجنود المقاتلين في ساحات المعارك.

وأما دينيا فقد كان المغول مستهدفين لدى كل من المسلمين والصليبيين في محاولة لاستمالتهم إلى دياناتهم، فحدث على إثر ذلك صراع ديني محموم انتهت نتيجته بدخول المغول في الدين الإسلامي، أما الصراع بين الصليبيين والمسلمين فرغم اصطباغه بعنوان ديني، إلا أنه كان

ضئيلا، والسبب يعود لكون هؤلاء يعتنقون ديانتين سماويتين يرى فيهما كل طرف أنه على دين الحق والآخر على باطل، في حين أن المغول قد عددت معتقداتهم، ورأوا في المسيحية والإسلام عقيدتين أقرب إلى التصديق والقبول عقلاً على ما كانوا يدينون به قبلاً.

وعلى الجانب الاجتماعي فقد حدث أن اختلطت الحياة الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين والمغول وأخذ كل طرف ينهل من عادات الآخر في المسكن والملبس والطعام، كما وحدثت بينهم مصاهرات أفرزت جيلا جديدا مميزا عرقيًا، على أن ذلك لا يعني أن المسلمين قد تعدوا شعائر الدين في بعض عادات المغول والصليبيين المنكرة، وإنما كانوا يأخذون ما لا يتنافى مع عقيدتهم وتعاليم دينهم.

إضافة إلى كل هذا فإن أحداث تلك الفترة من الصراع وقعت على أرض المسلمين، لذلك فقد كانت خسارتهم كبيرة ليس في الأرواح فحسب، بل وحتى اقتصاديًا، فدمرت كثيراً من مدنهم وقراهم، وأفنيت العديد من معالم الحضارة الإسلامية المادية من دور ومساجد ومكتبات ومؤلفات، ومعنوية بقتل علمائها وفقهائها من أصحاب العلوم الشرعية والوضعية، فسُخر على ذلك الجهد الإسلامي كلُّ في الحرب، لتكون نهاية تلك الفترة بداية تراجع إشعاع حضارة الإسلام، وبروز الحضارة الأوروبية التي استفادت كثيرا من نتائج ذلك الصراع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم:01

خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت داعيا إلى الحروب الصليبية:[1]

يا شعبَ الفرنجة شعبُ الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد لاد المسيحيين، ونخرّبها بما نشره فيها من أعمال السَّلب والحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنِّسوها برجمهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أنَّ المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم- يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم، ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم، أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم- فليُثِر همَّتَكم ضريح المسيح المقدس ربُّنا ومنقذنا،[2] الضريح الذي تمتلّكه الآن أممٌ نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة الّتي لُوثت ودُنست — لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض الّتي تسكنونها الآن، والّتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيقةٌ لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهِّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى في ملكوت السموات.

---

[1] ول ديورانت، قصة الحضارة، 15/15-16.

[2] هذه هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في السيد المسيح، وحاشا الله من ذلك، فعقيدتنا نحن المسلمون في السيد المسيح أنه عبد من عباد الله، بشر كامل البشرية وأحد أنبيائه، أنظر، محمد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص 100.

ملحق رقم: 02

رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة 655هـ/ 1257م[1]

لقد أرسلنا إليك رسالة وقتَ فتحِ قلاع الملاحدة وطلبنا مددًا من الجند، ولكنَّك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدَّنا بالجيش عند مسيرتنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر، ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجةً

يخفي معها نور الشمس الساطعة

ولابد أنَّه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حلَّ بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والدُّل الذي حاق بأُسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مُغلقًا بوجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان؟! ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام، ولا تضرب المخْصِف بقبضةِ يدك، ولا تُلطخ الشمس بالوحل فتتعب، ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلِّم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلاً من الوزير وسليمانشاه والدواتدار ليبلِّغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكنَّ له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يُصغِ إلى النُّصْح وآثر الخلاف والجدل، فليُعبِّئ الجند وليُعين ساعة القتال فإننا مُتأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد، وحينما أقود الجيش إلى بغداد، فإنَّك لو كنت مختفيا في السماء أو في الأرض.

فسوف أنزلك من الفلك الدوار

وسألقيك من عليائك إلى الأسفل كالأسد

ولن أدع جيشا في مملكتك

وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار

---

[1] الهمذاني، جامع التواريخ، 268/2.

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلاّ فسأرى كيف تكون إرادة الله.

ملحق رقم: 03

رسالة هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب بعد سقوط بغداد وقبل زحفه على سورية وقد كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسي:[1]

أما بعد: فقد نزلنا بغداد سنة ستٍ وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين، فدعونا ملكها فأبى فحقَّ عليه القول فأخذناه أخذًا وبيلاً، وقد دعوناك إلى طاعتنا، فإن أتيت فروح وريحانٌ، وإن أبيت فخزي وخسران، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظِلْفه والجادعُ مارنٌ أنفه بكفِّه فتكون من الأخسرين أعمالاً ا ين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من اتبع الهدى.

ملحق رقم:04

خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان إلى سلطان المماليك بمصر سيف الدين قطز، قبيل موقعة عين جالوت:[2]

من ملك الملوك شرقًا وغربًا، القان الأعظم.

باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جيش المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم،[3] يتنعَّمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنَّا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عرضنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهَّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فمالكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا

---

(1) الهمذاني، جامع التواريخ، 2/ 296، وانظر، محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ص 351.

(1) المقريزي، السلوك، 1/ 427- 429.

(2) إشارة إلى أصل قطز، وهو من الخوارزمية.

مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تُمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فإنَّكم أكلتم الحرام، ولا تعفُّون عن كلام، وخُنتم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تُهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذَّر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنَّكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تُطيلوا الخطاب، وأسرعوا بردِّ الجواب، قبل أن تُضرم نار الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منَّا جاهًا ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منَّا بأعظم داهية، وتُصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخرائط

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخريطة رقم: 01

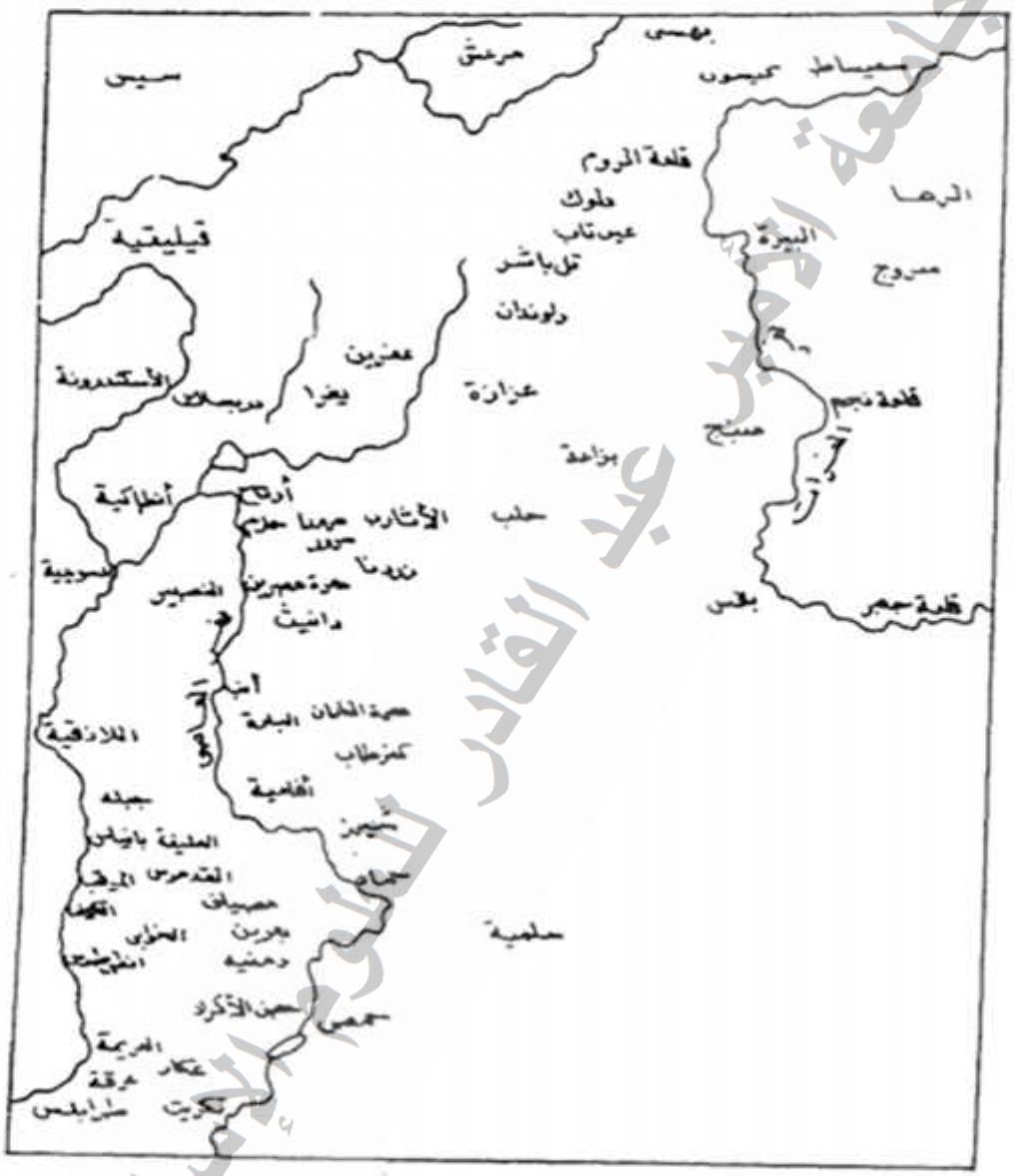

شمال بلاد الشام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخريطة رقم:02

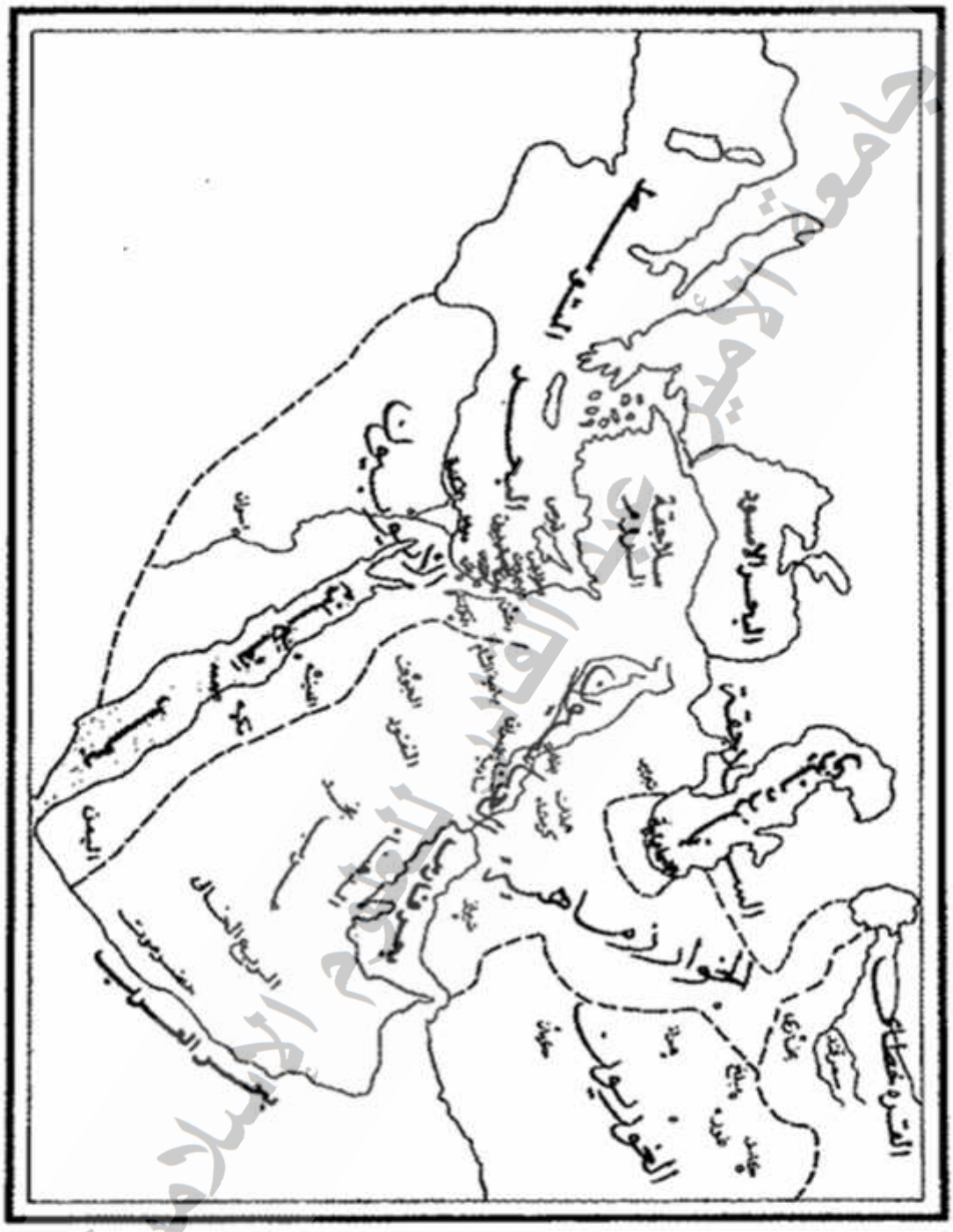

العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي

الخريطة رقم: 03

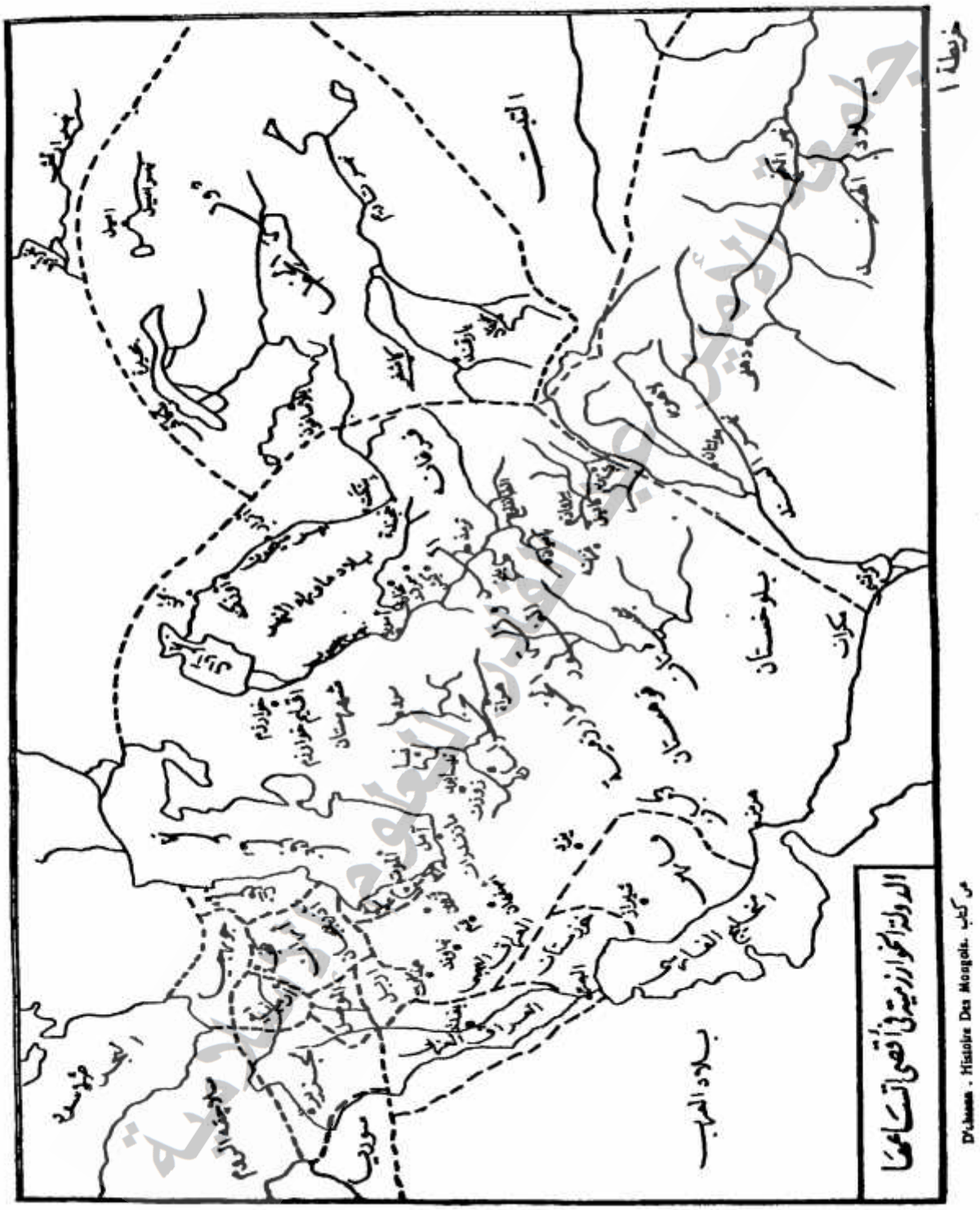

الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

نقلا عن كتاب الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد حمدي، ص 17

الخريطة رقم: 04[1]

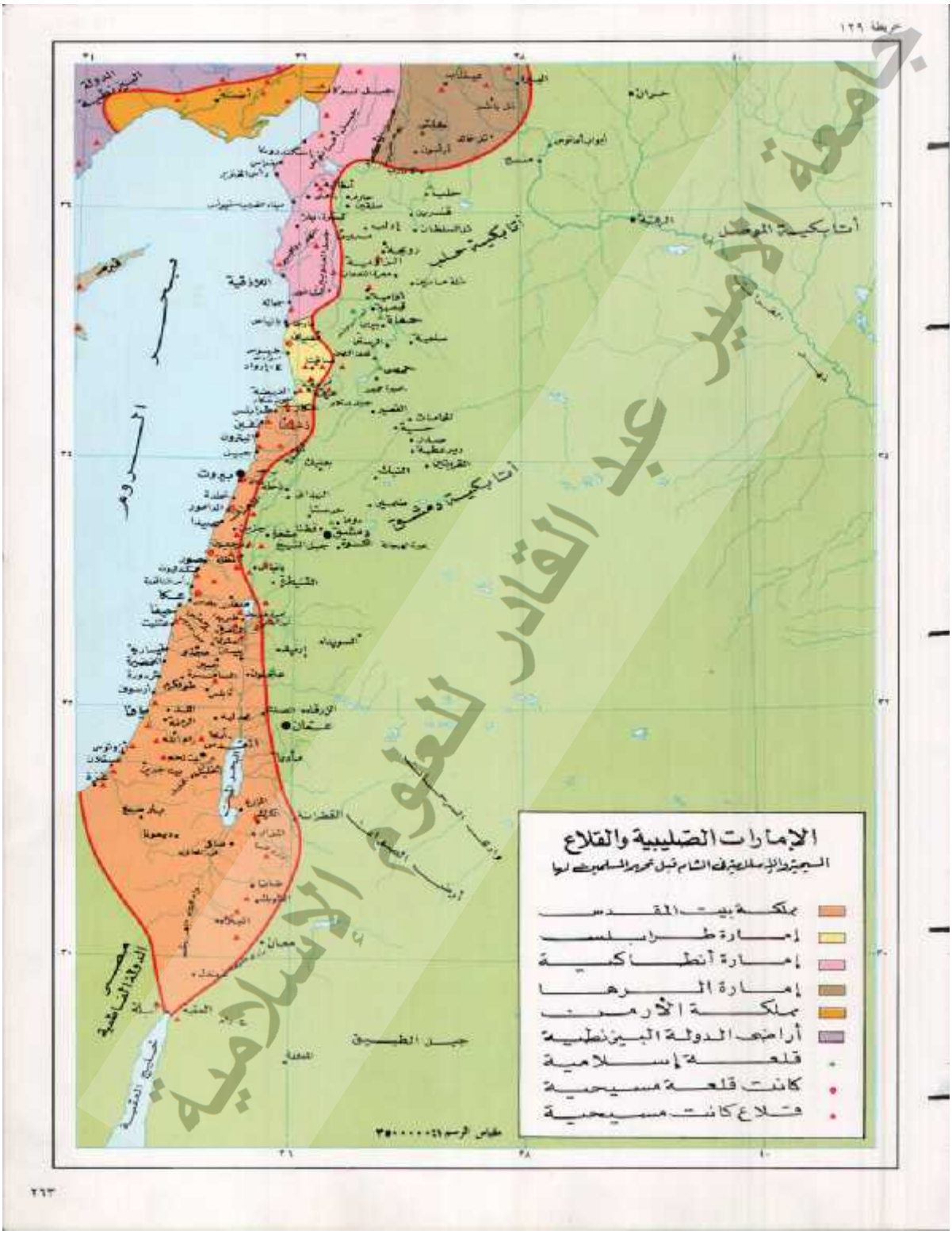

الإمارات الصليبية المؤسسة في بلاد الشام والجزيرة

---

[1] حسين مؤنس: **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1407هـ/ 1987م، ص 263.

الخريطة رقم: 05

خريطة تبين المواقع التي هاجمها المغول في الدولة الخوارزمية

نقلا عن كتاب العالم الإسلامي والغزو المغولي، اسماعيل عبد العزيز الخالدي، ص 77.

الخريطة رقم: 06

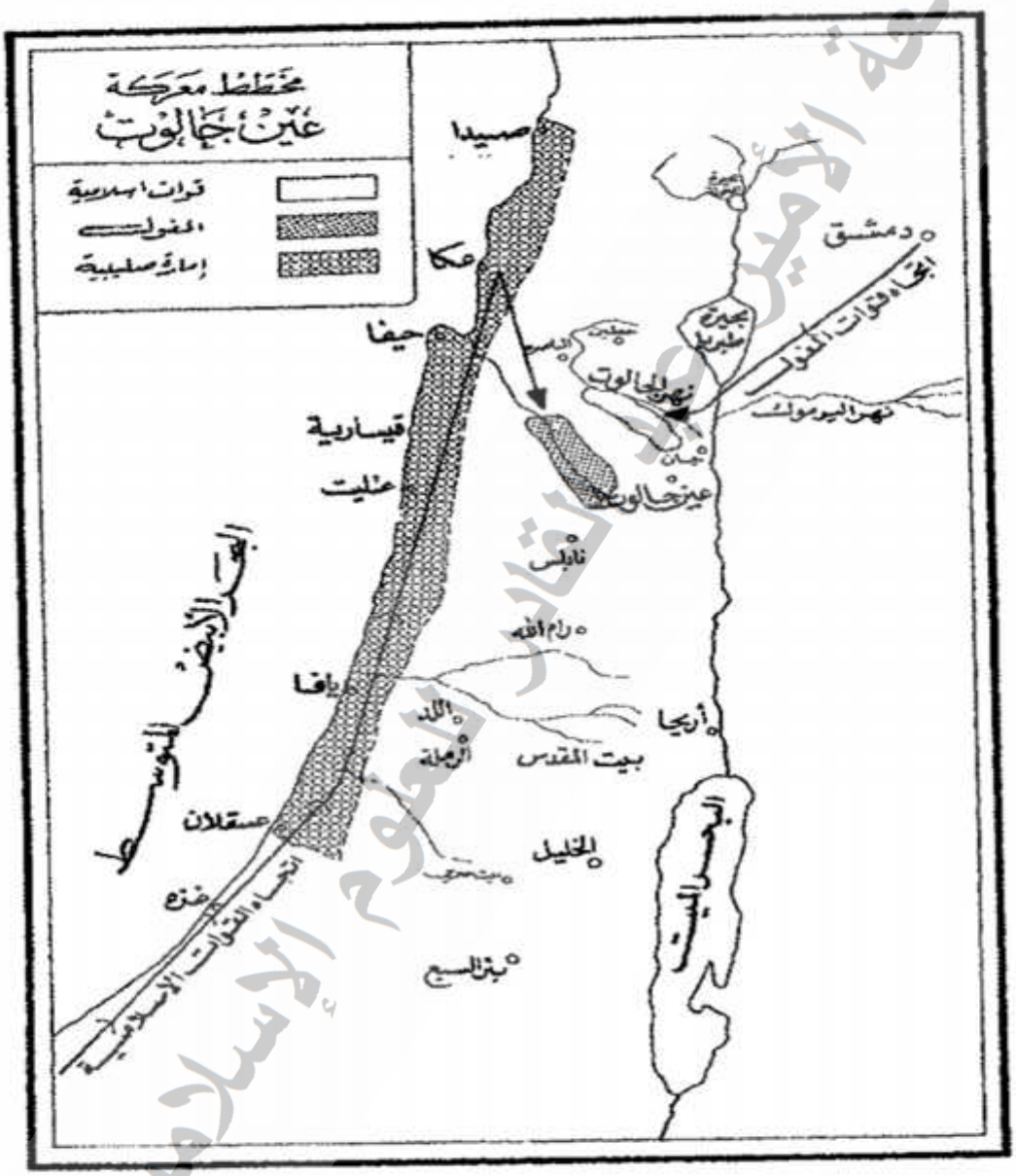

مخطط معركة عين جالوت 658هـ/ 1260م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخريطة رقم:07

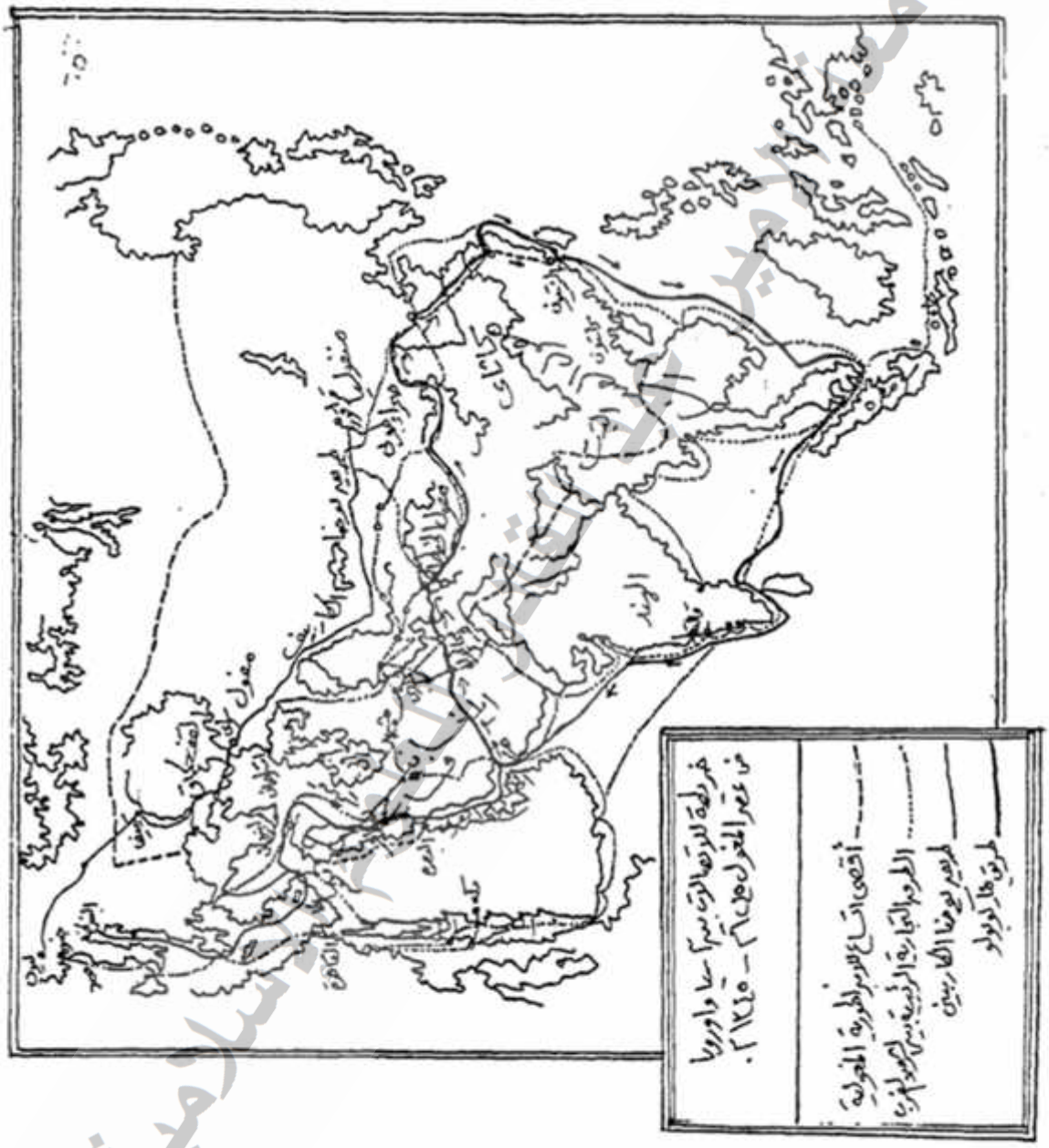

الاتصالات بين آسيا وأوروبا في عصر المغول

نقلا عن كتاب الاتصالات بين آسيا وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي،

عادل إسماعيل محمد هلال، ص 287.

الخريطة رقم:08

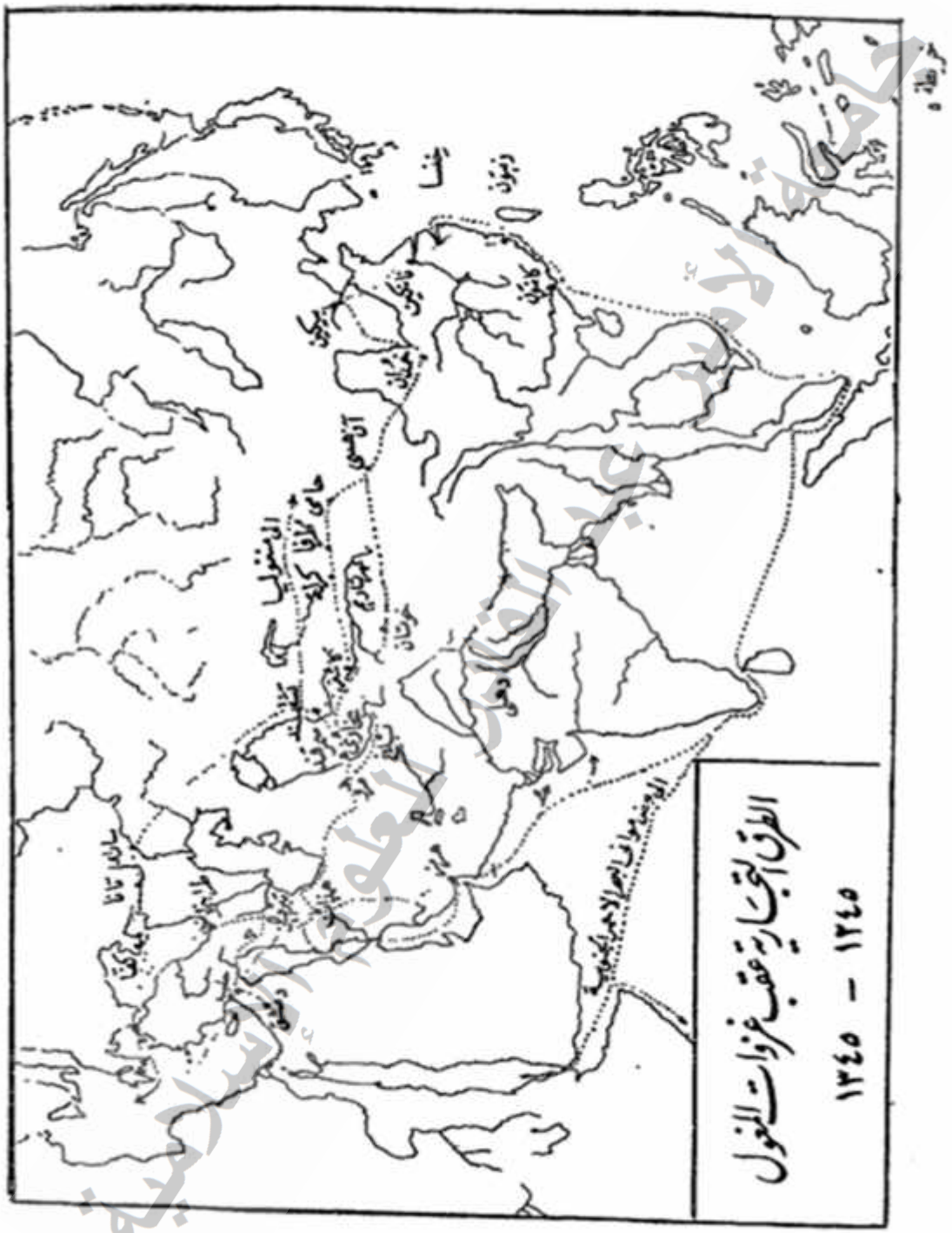

الطرق التجارية عقب غزوات المغول (1245– 1345)

نقلا عن كتاب حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص 301.

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن الجغرافية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن الجغرافية:

– أ –

- ابن عمر (جزيرة)، 09، 84.
- أترار، 50، 51، 118، 121، 122، 123، 157، 165، 197.
- أذربيجان، 23، 43، 140، 141، 146، 148، 169، 175.
- أران، 23.
- إربل، 146، 170.
- أرمينية، 23، 146، 186.
- آسيا الشرقية، 10، 48، 115، 117، 167، 182، 183، 185.
- أسيا الصغرى، 11، 20، 21، 64، 65، 66، 70، 180.
- آسيا الوسطى، 04، 48، 108، 180، 181، 182.
- أصبهان، 23، 139، 169.
- أفامية، 27، 91.
- إفريقية، 181.
- الأحمر (بحر)، 30، 181.
- الاستبس، 112.
- الأسود (بحر)، 181، 182.
- الأطلسي (محيط)، 30.
- الأناضول، 146، 164، 181.
- الأندلس، 30.
- الأوزبك، 194.
- ألبانيا، 65.
- ألبيرة، 88، 149.
- ألمانيا، 89.
- ألموت (قلعة)، 25.
- أمالفي، 55.
- أمانوس (جبال)، 180.
- آمد، 141.
- إنب (حصن)، 91.
- أنطاكية، 03، 69، 70، 71، 72، 73، 76، 77، 78، 80، 81، 85، 86، 89، 90، 91، 159، 160، 168، 179، 180،
- أوروبا، 11، 23، 33، 36، 57، 58، 59، 61، 89، 157، 161، 164، 181، 182، 183، 185، 186، 190، 196.
- إياس الأرميني (ميناء)، 182.
- إيران، 146، 148، 169، 182.
- إيطاليا، 65.

– ب–

- الباشغر، 111.
- بانياس، 101.
- بايكال، 112.
- بخارى، 03، 47، 48، 50، 122، 124، 125، 190.
- برنديسي، 65.
- بعرين (أبارين) قلعة، 86، 89.
- بعلبك، 84.
- بغداد (عاصمة)، 07، 08، 09، 16، 18،19، 20، 24، 30، 31، 32، 42، 43، 77، 141، 142، 145، 146، 147، 148، 157، 158، 173، 175، 176، 178، 180، 182، 186، 188.
- البصرة، 23، 180.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- البطائح، 23.
- البندقية، 55، 179.
- البوسفور (مضيق)، 64، 66.
- بكين (عاصمة)، 117، 182.
- بلاد الروم، 25، 146.
- بلبيس، 94، 95.
- بنكت، 122، 123.
- بيت المقدس، 02، 03، 07، 09، 10، 18، 28، 33، 36، 38، 63، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 79، 84، 86، 89، 91، 94، 95، 100، 102، 104، 105، 142، 172، 190، 191، 192، 196.
- بيروان، 136، 137، 175، 198.
- بيروت، 104.
- بيزا، 55، 179.
- بيسان، 153.

- ت -

- تارنتو، 65.
- التاي (جبال)، 108.
- التبت (هضبة)، 108، 184.
- تبنين، 103.
- تركستان، 108، 148
- تكريت، 23.
- تل باشر، 87.

- ث-

- الأثارب، 85.

- ج -

- الجبل، 22.
- جبيل، 104.
- الجزيرة، 02، 03، 06، 07، 08، 09، 18، 22، 23، 25، 29، 36، 43، 54، 62، 67، 69، 77، 78، 79، 80، 82، 83، 84، 86، 87، 88، 90، 91، 92، 99، 100، 102، 105، 119، 141، 142، 145، 146، 148، 153، 154، 157، 160، 164، 165، 167، 168، 169، 182.
- جند، 121، 123، 124.
- جنوة، 55، 179.
- جوبي (صحراء)، 108.
- جورجيا، 140، 175.
- جيحون، سيحون(نهر)، 20، 44، 47، 48، 50، 121، 122، 123، 127، 128، 135، 136.

- ح -

- حارم، 85، 90، 94.
- الحجاز، 29، 30، 34، 98.
- حران، 68، 84، 88، 148.
- الحرير (طريق)، 181.
- حطين، 07، 36، 100، 102، 103، 104.
- حلب، 06، 09، 10، 23، 28، 30، 69، 78، 80، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 88، 89، 90، 91، 99، 100، 102، 105، 148، 149، 160، 168، 170، 171، 180، 197، 198.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- حماة، 84، 86، 144، 149، 171.
- حمص، 27، 73، 76، 84، 149، 171.
- حيفا، 103.

- خ -

- الخابور، 84،
- خجندة، 122، 123.
- خراسان، 21، 22، 23، 25، 41، 42، 43، 45، 128، 130، 131، 132، 133، 135، 139، 141، 160.
- خرتبرت، 82.
- خلاط، 141.
- خنجان، 108.
- خوارزم، 40، 41، 42، 44، 45، 50، 123، 124، 129، 130، 131، 132، 133، 198.
- خوزستان، 22.

- د -

- الداروم، 104.
- دجلة (نهر)، 141.
- دلهي، 138، 139، 182.
- دمشق، 06، 09، 18، 21، 22، 37، 38، 76، 80، 86، 89، 90، 91، 92، 93، 99، 101، 102، 105، 149، 160، 168، 170، 171، 172، 179، 180، 181، 197، 198.
- دورازو، 65.
- ديار بكر، 23، 87، 141، 146، 169، 180.

- ر -

- الرحبة، 80.
- الرملة، 101، 104، 180.
- الرها، 06، 67، 68، 69، 70، 72، 76، 77، 79، 81، 84، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 148، 168، 196، 198.
- الري، 22، 42، 139، 141، 169.

- س -

- الساحل الشامي، 07، 36، 55، 92، 93، 96، 100، 103، 104، 198.
- سامراء، 146.
- سبسطية، 103.
- سروج، 88، 149.
- سمرقند، 46، 47، 122، 125، 126، 127.
- سنجار، 84، 146.
- السند (نهر)، 137، 138، 139.
- السودان، 33.
- سيبيريا، 108.
- سيناء، 181.

- ش -

- الشام، 02، 03، 04، 06، 07، 09، 10، 11، 12، 18، 20، 21، 22، 23، 25، 26، 27، 29، 30، 31، 32، 34، 35، 36، 39، 40، 43، 54، 55، 56، 57، 58، 60، 61، 62، 66، 67، 69، 70، 71، 73، 74، 76، 78، 79، 80، 82، 83، 84، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 94، 95، 96، 99، 100، 105، 111، 119، 142، 144، 145، 146،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

148، 149، 150، 151، 153، 157، 159، 160، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 171، 172، 173، 174، 175، 179، 180، 181، 182، 185، 186، 191، 192، 193، 196، 197، 199.
- شمال إفريقيا، 30.
- الشوبك (حصن)، 97.
- شيزر، 09، 73.

- ص -

- صرخد، 38، 39.
- الصعيد، 93، 144.
- صفورية، 102، 103.
- صقلية (جزيرة)، 30.
- صور، 104، 192.
- صيدا، 104
- الصين، 49، 111، 115، 116، 138، 162، 181، 182.

- ط-

- طبرستان، 22.
- طبرية، 102، 103، 180،
- طرابلس،02، 27، 73، 76، 77، 86، 89، 91، 102، 104، 196.
- طوروس (جبال)، 180.
- طوس، 130.

- ع -

- العاصي (نهر)، 153.
- عامور، (نهر)، 112.
- العراق، 09، 16، 21، 23، 25، 26، 30، 31، 39، 42، 86، 127، 128، 129، 139، 142، 145، 146، 173، 174، 177، 182.
- العريش، 180.
- عسقلان، 11، 95، 104.
- عكا، 04، 34، 103، 167، 173، 179، 191، 199.
- عين جالوت، 02، 04، 07، 150، 153، 199.

- غ -

- الغرب الأوروبي، 06، 54، 55، 56، 57، 58، 95، 60، 64، 93، 157، 162، 163، 164، 181، 183.
- غزة، 73، 104، 149، 150، 153، 180، 199.
- غزنة، 127، 128، 135، 136، 137.

- ف -

- فارس، 10، 22، 26، 41، 42، 43، 45، 59، 139، 146، 160، 173، 187.
- الفرات (نهر)، 84، 87، 100.
- فرنسا، 54، 62، 65، 89، 167،
- الفولة، 103.
- فلسطين، 06، 07، 12، 30، 75، 92، 142، 152، 153، 154.

- ق -

- القاهرة، 09، 30، 37، 93، 95، 96، 101، 143، 151، 180.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- القرغيز، 110، 111.
- قرة قورم (عاصمة)، 116، 117، 140، 151، 182.
- قزوين (بحر)، 128.
- القسطنطينية (عاصمة)، 55، 58، 62، 63، 64، 65، 180.
- قطوان، 45.
- القفجاق، 110، 111، 188.
- قيسارية، 103.
- قيليقية، 180،

- ك -

- كردستان، 141.
- الكرك (حصن)، 98، 101، 102.
- كرمان، 139.
- كفرطاب، 28، 73، 86.
- الكلار، 111.
- كوكب الهوى (قلعة)، 101.

- ل -

- اللجون، 180.

- م -

- ما وراء النهر، 02، 07، 23، 25، 41، 44، 45، 46، 47، 48، 165، 182، 198.
- ماردين، 69، 81، 87، 146، 148.
- مازندران، 128، 129، 139.
- مانزكرت، 20، 32.
- المتوسط (بحر)، 180، 181.
- مجدليابة، 103.
- المحر، 65.
- مرج عيون، 101.
- مرو، 41، 45.
- مصر، 02، 03، 04، 06، 07، 09، 12، 24، 25، 29، 30، 33، 34، 35، 36، 39، 40، 43، 73، 74، 78، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 102، 104، 105، 111، 119، 142، 143، 144، 145، 146، 148، 149، 150، 151، 152، 154، 157، 159، 165، 167، 168، 172، 173، 174، 176، 179، 180، 181، 183، 185، 191، 193، 197، 198.
- مصياف، 73.
- معرة النعمان، 72، 73، 86، 149، 192.
- معليا، 103.
- المغرب، 29، 111، 152، 181.
- مقدونيا، 65.
- مكة، 181.
- منبج، 149.
- منشوريا، 108، 111، 116.
- منغوليا، 108، 109، 112، 120، 162، 163، 166، 193.
- الموصل، 06، 08، 09، 10، 23، 28، 30، 69، 78، 79، 80، 82، 83، 84، 85، 88، 89، 90، 102، 105، 145، 160، 168، 169، 170، 171، 197، 198.
- مولتان، 138.
- ميافارقين، 148،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الميت (بحر)، 98.

– ن –

- نابلس، 103، 153.
- الناصرة، 103.
- نسا، 134.
- نصيبين، 84، 146، 148.
- النوبة، 98.
- نيسابور، 128، 131، 134، 135.
- نيقية، 66، 179.
- النيل (نهر)، 33، 100.

– هـ –

- هراة، 135، 136.
- همذان، 81، 147، 169.
- الهند، 111، 139، 140، 169، 181، 182، 184.

– ي –

- يافا، 104، 180.
- اليمن، 30، 98، 181.
- اليونان، 59.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام:

– أ –

- ابن الأثير، 03، 08، 09، 17، 18، 43، 70، 73، 75، 77، 82، 84، 85، 89، 93، 96، 98، 104، 119، 125، 146، 169، 198.
- ابن العديم، 09، 10، 27، 71.
- ابن القلانسي، 09، 69، 71، 75، 90.
- ابن الوردي، 75.
- ابن بطوطة، 182، 194.
- ابن تغري بردي، 34، 75، 95.
- ابن جبير، 191.
- ابن حوقل، 11.
- ابن خلدون، 15، 22.
- ابن شداد، 09، 10، 191.
- ابن عساكر، 09،
- ابن منقذ، 09، 190، 191.
- ابن واصل، 09، 96.
- أبو الأشبال ضرغام بن عامر، 93.
- أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالي (الأفضل)، 25، 35.
- أبو شامة، 09، 84، 94.
- أبو علي بن عمار (فخر الملوك)، 76، 77.
- أبي الحارث البساسيري، أتسز (السلجوقي)، 16، 17، 19، 20، 24، 25، 31، 176.
- أتسز بن أنوشتكين، 41، 42، 44، 45، 46.
- أجتاي، 121، 122، 131، 132، 140، 169.
- آدم عليه السلام، 109.
- أزلاغ شاه، 128.
- أسد الدين شيركوه، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 198.
- إسماعيل بن جعفر الصادق، 24.
- الأفضل نورالدين أبو الحسن علي، 37، 38، 39.
- أق شاه، 128.
- آقسنقر البرسقي، 28، 80، 82، 83، 84، 160، 197.
- ألب أرسلان، 19، 20، 32.
- ألكسيوس كومينين، 64، 65.
- ألنجاخان، 110.
- أملريك، 94.
- أنوشتكين، 40.
- أوربان الثاني(بابا)، 11، 54، 56، 62، 162، 163، 164، 167.
- أونست الرابع (بابا)، 185.
- أيل أرسلان، 42، 45.
- إيلجة خان، 110.
- إيلخان، 110.
- إيلغازي بن أرتق، 80، 81، 82.

– ب –

- باليان بارزان، 104.
- بايدر، 153.
- بدر الجمالي الأرمني، 32، 34، 35.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، 82.
- بدر الدين قاضي خان، 124.
- بدر الدين لؤلؤ، 145، 170، 172.
- برسق بن برسق، 81.
- بركياروق بن ملكشاه، 18، 21، 22، 40.
- البرنس أرناط، 101، 102.
- بطرس الناسك، 62، 63، 64، 164.
- بلاتاجين، 40.
- بلانو دي كرابيني، 185.
- بلدوين دي بولوني، 65، 67، 68، 69، 76، 77، 79، 190، 191.
- بهرام بن أرتق، 82.
- بوهيموند، 65، 70، 71، 72، 76.
- بيدشو، 141، 169.

- ت -

- تنكريد، 27، 65، 77.
- تتار خان، 110.
- تتش بن ألب أرسلان، 18، 21، 22، 73.
- تركان خاتون، 21، 129، 131.
- توجاشر، 134، 135.
- تورنشاه بن السلطان صلاح الدين، 143، 145، 149، 171.
- تولوي، 122، 124، 134، 135.
- تيموجين، 113، 115، 116، 117، 163.
- تيمور ملك، 123، 124.

- ث -

- ثوروس الأرمني، 67، 68.

- ج -

- جاي دي لوزجنان، 102.
- جحتاي، 121، 122، 131، 132، 136.
- جعفر الصادق، 24.
- جلال الدين منكبرتي، 07، 10، 124، 128، 129، 130، 131، 132، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 165، 169، 174، 175، 198.
- جناح الدولة بن الحسين، 27.
- جنكيزخان، 07، 10، 39، 44، 48، 49، 50، 110، 111، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 140، 148، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 165، 166، 167، 172، 175، 178، 181، 183، 184، 185، 188، 193، 197، 198.
- جوجي، 121، 123، 124، 131، 132، 188.
- جودفري دي بويون، 65، 75، 76.
- جوردان، 77.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- جوسلين، 69، 79، 82، 84، 87، 89، 90، 166، 171، 190.
- جوسلين الثاني، 87، 88، 89.
- جيوش بك، 80.

- ح -

- الحسن بن الحسين بن حمدان، 33.
- الحسن بن الصباح، 25.

- خ -

- خلف بن ملاعب، 27.

- د -

- داوود بن محمد، 22.
- دبيس بن صدقة، 18.
- دقاق (ملك)، 71.
- ديباقوي خان، 110.

- ر -

- رزيك بن الصالح طلائع، 93.
- رشيد الدين الهمذاني، 10، 110.
- رضوان بن تتش، 26، 27، 71، 80، 81، 171.
- ركن الدين بن علاء الدين، 127.
- روبارت كورت، 65.
- روجر، 81.
- رومانوس الرابع، 20، 32، 58.
- ريموند التولوزي، 27، 90، 91.
- ريموند دي صنجيل، 65، 70، 72، 76، 77، 86، 89.
- ريموند الثالث، 102.

- س -

- سكباي بن قراجين، 194.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، 11، 58.
- سلطان شاه، 45، 46.
- سنجر بن ملكشاه، 23، 40، 41، 42، 45.
- سنديباغو، 170.
- سوبوتاي، 117، 127، 128، 130.
- سوينج خان، 110.
- سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي، 88، 89، 90، 99.
- سيف الدين قطز، 145، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 198.
- السيوطي، 17.

- ش -

- شاور السعدي، 93، 94، 95.
- شبي، 117، 127، 128، 130.
- شجرة الذر، 143، 145.
- شرف الدولة بن أبي الطيب، 77.
- شرف الدين مودود بن ألتونتكين، 79، 80، 197.
- الشريف خضر الدين الجعفري، 144.
- شمس الدين جكرمش، 69، 78، 197.
- شمس الدين علي بن الداية، 99.
- شمس الدين محمد بن عبد الملك (ابن مقدم)، 99.
- شمس الدين محمود، 129، 138.
- شهاب الدين السهروردي، 44.
- شيرماجون، 140، 169.

- ص -

- الصالح إسماعيل، 99، 100.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- صلاح الدين الأيوبي، 06، 07، 09، 10، 28، 36، 37، 38، 39، 92، 93، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 120، 142، 145، 150، 154، 159، 161، 171، 172، 180، 192، 198، 199.

- ض -

- ضياء الدين بن الأثير، 09، 37، 38.

- ط -

- طغرلبك (الأول)، 17، 19، 20، 25، 31، 32.
- طغرلبك الثالث، 42.
- الطواشي لؤلؤ، 81.
- طوطوق خان، 109.

- ظ-

- الظاهر بيبرس، 144، 152، 153، 154، 170، 198، 199.
- ظهير الدين طغتكين، 79، 80، 81،

- ع -

- العادل سيف الدين أبو بكر، 38، 39، 103.
- العاضد بالله الفاطمي، 37، 95، 96.
- عزالدين مسعود بن آقسنقر، 83، 86،
- العزيز عثمان بن صلاح الدين، 37، 38، 39.
- علاء الدين الجويني، 188.
- علاء الدين خوارزمشاه، 07، 43، 44، 46، 47، 48، 49، 50، 117، 118، 119، 121، 122، 123، 124، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 137، 138، 141، 152، 157، 158، 165، 175، 176، 185، 186، 197، 198.
- علاء الدين تكش، 42، 45، 46، 48.
- علي بن أبي طالب، 30، 43.
- علي بن المعز أيبك، 145، 150.
- علي خواجة البخاري، 48.
- عماد الدين زنكي بن آقسنقر، 06، 10، 28، 78، 80، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 98، 100، 105، 154، 168، 171، 197، 198، 199.
- عماد الملك، 127.
- عمر بن الخطاب، 158.
- عمر تقي الدين، 97، 103.
- عموري الأول (ملك)، 28.

- غ -

- غازان محمود، 10، 187.
- غياث الدين بن علاء الدين، 138، 139.

- ف -

- فارس الدين أقطاي، 144.
- فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، 30.
- فوشي الشارتري، 11، 75.

- ق -

- القائم بأمر الله، 17، 19، 25، 31، 32.
- القادر بالله، 30.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- قطب الدين بن عماد الدين زنكي، 88، 168.
- قلاوون، 144، 194، 198.
- قلج أرسلان، 64، 66، 87.
- قويو خان، 110.

- ك -

- كتبغا، 153.
- كربوغا، 71، 78، 83، 160، 168، 197.
- كشلوخان، 48، 117.
- كوبلايخان، 184.
- كونارد الثالث، 89.
- كيوك خان، 185.

- ل -

- لوجين الثالث (بابا)، 89، 166.
- لويس السابع، 89.
- لويس التاسع عشر، 09.

- م -

- المتوكل على الله، 16.
- مجير الدين أبق، 91، 92.
- محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، 24.
- محمود الخوارزمي، 48، 49،
- محمود بن محمد بن ملكشاه، 18، 22،
- محمد بن ملكشاه، 21، 23، 77، 80، 81، 83، 86، 177.
- محمود بن نصر العقيلي، 32،
- محمود خان، 42.
- المسترشد بالله، 18، 19.
- المستظهر بالله، 69، 77، 79.
- المستعصم بالله، 143، 144، 146، 147.
- المستعلي، 25، 35.
- المستنصر بالله، 25، 30، 31، 33، 34، 35.
- المستضيء بأمر الله، 96.
- مسعود بن محمد بن ملكشاه، 19.
- المعز أيبك التركماني، 143، 144، 145.
- معين الدولة أنر، 86، 89، 90، 92.
- معين الدولة سقمان الأرتقي، 68، 78.
- مغل خان، 110.
- المقتدي بالله، 16، 18، 21.
- المقتفي بالله، 90.
- المقدسي، 11.
- الملك الرحيم البويهي، 31.
- ملكشاه بن ألب أرسلان، 06، 16، 18، 19، 20، 21، 22، 26، 32، 40، 159، 176.
- منكوخان، 146، 186.
- مودود بن زنكي، 09، 28، 69، 70، 79.
- موسى بن جعفر الصادق، 24.
- ميخائيل السابع، 58.

- ن -

- ناصر خسرو، 30.
- الناصر لدين الله، 42، 43، 138، 158،
- الناصر محمد بن قلاوون، 193.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الناصر يوسف أيوب، 144، 148، 149، 150، 151، 152، 159، 171، 172.
- نجم الدين أيوب، 09، 92، 97، 143.
- نجم الدين عبد الله بن محمد البادرائي، 144.
- نزار بن المستنصر، 25، 35.
- النسوي، 10، 128، 134، 136.
- نصير الدين محمد الطوسي، 188.
- نصير الدين بن عماد الدين زنكي، 88.
- نظام الملك، 26.
- نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي، 06، 09، 10، 28، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 105، 154، 160، 161، 168، 171، 172، 198، 199.

- هـ -

- هبة الله الشيرازي، 31.
- هنفري، 101.
- هولاكو، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 159، 170، 188.
- هيثوم الأرميني (ملك)، 186.

- و -

- واي وانج، 117.
- ولتر المفلس، 64.
- وليام الصوري، 11.
- وليام فريار، 109.
- وليام كريبني، 109.

- ي -

- يارقتاش الأرمني، 81.
- ياغي سيان، 70، 71.
- يافث بن نوح عليه السلام، 109.
- يسوجاي بهادر خان، 110، 115.
- يشموط بن هولاكو، 148.
- ينال خان، 50، 51، 118، 122، 157، 158، 165، 174، 197.
- يوسف عليه السلام، 33.
- يوسف كنكا الأتراري، 48.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا_ المصادر العربية والمترجمة:

1_ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت630هـ/1232م):
الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1966.
2_ ـ..ـ:
الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.
3_ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م):
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1995.
4_ ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت684هـ/1285م):
تاريخ مختصر الدول، تح، أنطوان صالحاني اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1958.
5_ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي (ت 660هـ/ 1678م)
زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1951.
6_ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي(ت1089هـ/1678م):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح، لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (دت).
7_ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ/ 1404م)
تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع ، بيروت، .1970
8_ ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت 555هـ/ 1160م)
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق، سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط1، دمشق .1983
9_ ابن الوردي، أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت 749هـ/ 1349م)
تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردي، القاهرة، 1285هـ.
10_ ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779هـ/ 1277م)
رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/ 1987م.

11_ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ/1469م)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح، إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1956.
12_ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت614هـ/ 1217م)
رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت.
13_ ابن حبيب
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح، د/محمد محمد أمين، مراجعة د/سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976.
14_ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت367هـ/977م):
صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، (د ت) 1872.
15_ ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله(ق3هـ/9م):
كتاب المسالك والممالك، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1889.
16_ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م):
المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط8، 2003.
17_ ـ..ـ:
تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1977.
18_ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت861هـ/1457م):
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977.
19_ ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت 632/1234م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار القلم العربي، حلب، ط2، 1987.
20_ ابن شداد، عزالدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت 684هـ/ 1285م)
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه، يحي عبَّادة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991.
21_ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت774هـ/1372م)
البداية والنهاية، تح، عماد زكي البارودي، خيري سعيد، مكتبة المعارف، ط1، بيروت، 1966.

22_ ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م):
لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ت.
23_ ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت 677هـ/ 1278م)
أخبار مصر، نشر هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1919.
24_ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/ 1298م)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1972.
25_ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي(ت732هـ/1331م)
تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1966.
26_ ـ..ـ:
تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د ت،
27_ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ/ 1268م)
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة للنشر، القاهرة، 1962.
28_ أسامة بن منقذ، أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر (ت 584هـ/ 1188م)
كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتِّي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930.
29_ الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ق4هـ/10م):
المسالك والممالك، تح، محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، مصر، 1961.
30_ الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت597هـ/ 1201)
تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1900، طبعة جديدة، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، 1980م.
31_ ـ..ـ:
الفتح القسي قي الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، ط1، 1322هـ.
32_ البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487هـ/ 1094م)
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السَّقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947م/ 1366هـ.

33_ بامخرمة، أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي (عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)
قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج، ط1، جدة، 1428هـ/ 2008م.
34_ بطرس توديبود:
تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، 2001.
35_ البنداري، الفتح بن علي بن محمد (597هـ/1200م)
تاريخ دولة آل سلجوق، طبع شركة الكتب العربية، القاهرة، 1318هـ/ 1900م.
36_ **الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)**، (جزآن) Itinerarium peregrinoum et gesta Reegis Ricardi، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
37_ الحريري، أحمد بن علي بن أحمد
الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق، مهدي رزق الله أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، الإسكندرية، 1986.
38_ الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (622هـ/ 1225م)
أخبار الدولة السلجوقية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984.
39_ الحلبي، كامل بن الحسين بن مصطفى بالي
نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، (د ت)
40_ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م):
معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
41_ الديار بكري، (966هـ/ 1558م)
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبية، مصر، 1283هـ.
42_ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347)
العبر في خبر من غبر، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1961
43_ ـ..ـ:
سير أعلام النبلاء، تح، شعيب الأرناؤوط، أكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
44_ ريموناجيل:

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2002.

45_ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911ه/1505م)

تاريخ الخلفاء، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ط1، 1952.

46_ الشهرستاني، محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548/ 1153م)

الملل والنحل، تح، أحمد فهيمي محمد، دار المعرفة، بيروت، 1980.

47_ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505ه/1111م)

فضائح الباطنية، تح، عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964.

48- فوشيه الشارتري:

تاريخ الحملة إلى القدس، تر، زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1990.

49_ القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود (ت681ه/ 1382م)

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969م.

50_ القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت821ه/ 1418م)

صبحي الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

51_ الكتبي، محمد بن شاكر فخر الدين محمد بن أحمد (ت764ه/1362م)

فوات الوفيات، تح، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973.

52_ المدائني، ابن أبي الحديد (656ه/ 1258م)

حملات الغزو المغولي للشرق، ترجمه وعلق عليه، مختار جبلي، دار لارماتون، باريس 1995م.

53_ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت388ه/998م)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح، ميكال يان دي خويه، مطبعة بريل، ليدن، 1877م.

54_ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845ه/1441م)

السلوك في معرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1936.

55_ ـ..ـ:

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار المعروف بالخِطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية،

القاهرة، ط2، 1987.

56_ ناصر خسرو علوي، (ت481هـ/ 1088م)

سفرنامة، ترجمة، يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

57_ النسوي، محمد بن أحمد

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق، حافظ أحمد حمدي، القاهرة، 1953.

58_ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت733هـ/1332م)

نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980.

59_ الهمذاني، رشيد فضل الله (ت 718هـ/ 1318م)

جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، الجمهورية العربية المتحدة، دت.

60_ وليم الصوري:

الحروب الصليبية، ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992.

61_ اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (726هـ/ 1226م)

ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، ط2، القاهرة، 1413هـ/ 1992م.

ثانيا_ المراجع العربية والمترجمة:

62_ أحمد إسماعيل علي:

تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (132هـ – 463هـ / 749م – 1070م)، دار دمشق للطباعة والنشر، ط1، دمشق، .1984

63_ أحمد الشامي:

صلاح الدين والصليبيون، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1991.

64_ ـ..ـ:

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1405هـ/ 1985م.

65_ أحمد مختار العبادي:

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت 1406هـ/ 1986م.

66_ أرنست باركر:

الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، ترجمة، السيد الباز العريني، بيروت، د ت

67_ إسماعيل عبد العزيز الخالدي:

العالم الإسلامي والغزو المغولي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1984.

68_ اسمت غنيم:

الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.

69_ ألبير شاندور:

صلاح الدين – البطل الأنقى في الإسلام- ترجمة، سعيد أبو الحسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988.

70_ أيمن فؤاد السيد:

الدولة الفاطمية في مصر – تفسير جديد–، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، دت.

71_ توماس أرنولد:

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د/حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1970.

72_ ثروت عكاشة:

إعصار من الشرق (جنكيز خان)، دار الشروق، ط5، بيروت، 1992.

73_ حافظ أحمد حمدي:

الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت.

74_ حامد زيان حامد:

الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983.

75_ حامد غنيم أبو سعيد (دكتور):

الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية – جبهة الشام وفلسطين ومصر–، دار السلام، ط1، القاهرة، 2007.

76_ حسن إبراهيم حسن (دكتور):

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط15، 2001.

77_ حسين مؤنس (دكتور):

نورالدين محمود، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1959.

78_ حمدي عبد المنعم محمد حسين (دكتور):
دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000.
79_ خاشع المعاضيدي (دكتور) وآخرون:
الوطن العربي والغزو الصليبي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، بغداد، 1981.
80_ خالد عزام (دكتور):
موسوعة التاريخ الإسلامي، – العصر العباسي –، دار أسامة، ط1، عمان، 2003.
81_ الخضري بك:
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، مطبعة الاستقامة، ط5، القاهرة، 1945.
82_ رجب محمد عبد الحليم (دكتور):
انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، دت.
83_ رضا السيد حسن (دكتور):
الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، دار مصباح الفكر، بيروت، 1987.
84_ الزركلي خير الدين:
الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980.
85_ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):
أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار القلم، القاهرة، 1964.
86_ ـ..ـ:
تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1967.
87_ ـ..ـ:
الحركة الصليبية، المكتبة الأنجلو مصرية، ط4، القاهرة، 1986.
88_ ـ..ـ:
أوروبا في العصور الوسطى، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1967.
89_ سليمان بن أحمد العودة:
كيف دخل التتر بلاد المسلمين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 1996.

90_ زكار سهيل (الدكتور):

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1995م.

91_ السيد الباز العريني (دكتور):

المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

92_ صلاح الدين محمد نور (دكتور)،

الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية، منشأة المعارف للنشر، الإسكندرية، (د ت).

93_ عادل إسماعيل محمد هلال (دكتور):

العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على الإسلامي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1997.

94_ عبد الرزاق محمد أسود (دكتور):

موسوعة العراق السياسية، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، 1986.

95_ عبد القادر أحمد اليوسفي (دكتور):

العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين 11م و15م، المكتبة العصرية، بيروت، .1969

96_ عبد المنعم ماجد (دكتور):

ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، ط4، القاهرة، 1994.

97_ عثمان عبد الحميد عشري (دكتور):

الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491هـ– 691هـ/ 1097م– 1290م)، المكتبة التاريخية، الإسكندرية، 1983.

98_ عزيز سوريال عطية (دكتور):

العلاقات بين الشرق والغرب – تجارية، ثقافية، صليبية، ترجمة، فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط1، 1972.

99_ عصام الدين عبد الرؤوف (دكتور):

بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، دتا.

100_ فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور):

المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

101_ فاروق عمر فوزي (دكتور):
الخلافة العباسية، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2003.
102_ فايد حماد محمد عاشور (دكتور):
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس للنشر، طرابلس – لبنان –، ط1، 1995م/ 1415هـ.
103_ كلود كاهن:
الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة، أحمد الشيخ، دار سينا للنشر، ط1، القاهرة، 1995.
104_ كمال بن مارس (دكتور):
العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1425هـ/ 2004م.
105_ محمد العروسي المطوي:
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1982.
106_ محمد عبد المنعم الجمل:
الدول الإسلامية في الشرق، تاريخ وحضارة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
107_ محمد فتحي أمين:
الغزو المغولي لديار الإسلام، دار الأوائل للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2005.
108_ محمد فتحي عاشور (دكتور):
مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، القاهرة، د ت.
109_ محمد ماهر حمادة (دكتور):
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م.
110_ محمود سعيد عمران (دكتور)
المغول وأوروبا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ت.
111_ محمود محمد الحويري (دكتور):

الأوضاع الحضارية في بلا د الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

112_ ـ..ـ:

بناء **الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1992م.

113_ مصطفى طه بدر (دكتور):

محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، الهيئة المصرية العليا للكتاب، ط2، القاهرة، 1999م.

114_ ميشال بالار:

الحملات الصليبية والشرق اللاتيني– من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر– ترجمة، بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 2003.

115_ نادية حسني صقر (دكتورة):

مطلع العصر العباسي الثاني، دار الشروق، ط1، جدة، 1983.

116_ وفاء محمد علي (دكتور):

الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (دتا).

117_ ول ديورانت:

قصة الحضارة، تح، زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، القاهرة، 1968.

118_ يوشع براور:

الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة، عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، 2001.

ب_ المراجع الأجنبية:

119_ Barthold:

Turkestan Down to the Mongol, Invasion, London, 1928.

120_ Duncalf (Frederic)**:**

The first crusade: Clermont to Constantinople " The councils of Piacenza and Clermont", in Setton (ed), A Hist of the Crusades, vol I.

121_ Héyd :
Histoire du commerce du levant au Moyen age, tom, II.
122_ Hoyt (s) & chodorow (s) :
Europe in the Middle age, USA, 1976.
123_ Lamp Harold:
Genghis khan: Emperor of all men, London, 1934.
124_ poissonnade (p)**:**
life and Work in médiéval Europe, London, 1937.
125_ Runciman (s)**:**
A Hist Of the crusades, 3 vol, Cambridge, 1954.
126_ **–**
The first cruasade, Constantinople to Antioche.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المقدمة.....2-12
الفصل الأول: الأحوال السياسية في المشرق الإسلامي قبل العدوان الصليبي والمغولي
1- أحوال الخلافة العباسية خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (عهد التسلط السلجوقي 447هـ/ 1055م).....15- 51
1-1 سيطرة السلاطين السلاجقة على الخلافة العباسية.....15
1-2 دولة السلاجقة بعد السلطان ملكشاه (485هـ/ 1092م).....19
1-3 الباطنية ودورها في إضعاف القوى الإسلامية.....24
2- أحوال مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين.....29
2-1 الفاطميون وعلاقاتهم بالعباسيين والسلاجقة.....29
2-2 الاضطرابات الداخلية والتدخلات الخارجية في البيت الفاطمي.....33
2-3 سوء الأحوال في مصر الأيوبية بعد صلاح الدين.....36
3- الأوضاع السياسية في شرق العالم الإسلامي.....39
3-1 الدولة الخوارزمية وعلاقاتها بالسلاجقة والخلافة العباسية.....40
3-2 علاقة الخوارزميين بدولة الخطا.....44
3-3 علاقة الخوارزميين بالمغول إبان القرن 7هـ/ 13م.....48
الفصل الثاني: العدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة وبروز جبهات المقاومة الإسلامية (490هـ- 589هـ/ 1096م- 1193م).....54- 105
1 - دوافع الحملات الإفرنجية وتأسيس الإمارات الصليبية في بلا د الشام والجزيرة
1-1 دوافع الحملات الإفرنجية على بلاد الشام والجزيرة.....54
1-1-1 الدافع الاقتصادي والاجتماعي.....54
1-1-2 الدافع السياسي.....57
1-1-3 الدافع الحضاري.....59
1-1-4 الدافع الديني.....60
1-2 الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة.....62
1-2-1 إمارة الرها.....67
1-2-2 إمارة أنطاكية.....70

1-2-3 مملكة بيت المقدس.....72
1-2-4 إمارة طرابلس.....76
2- نماذج من جبهات المقاومة الإسلامية للعدوان الصليبي على بلاد الشام والجزيرة
2-1 جبهة الجزيرة والشام (نموذج الموصل- حلب)، آل زنكي وتأسيس أولى نواة للمقاومة الإسلامية.....78
2-1-1 الموصل – حلب: من دخول الإفرنج إلى تولي عماد الدين زنكي الحكم (490هـ - 521هـ / 1096م- 1127م).....78
2-1-2 عماد الدين زنكي وقيادة المقاومة الإسلامية (521هـ- 541هـ/ 1127م-1146م).....83
2-1-3 نورالدين محمود ومواصلة مسيرة الجهاد ضد الصليبيين (541هـ- 569هـ/ 1146م-1174م).....88
2-2 جبهة مصر فلسطين، الأيوبيون على خطى الزنكيين في مقاومة الصليبيين.....92
2-2-1 ضم مصر إلى جبهة المقاومة الإسلامية بالشام والجزيرة (559هـ- 564هـ/ 1164م-1169م).....92
2-2-2 صلاح الدين وإعادة بناء جبهة المقاومة الإسلامية (564هـ- 589هـ /1169م-1193م).....96
2-2-3 صلاح الدين في مواجهة الصليبيين: من حطين إلى استرداد بيت المقدس (583هـ/ 1187م).....100
الفصل الثالث: الغزو المغولي للمشرق الإسلامي ومقاومة البلدان الإسلامية له (615هـ- 658هـ/ 1218م- 1260م).....108- 154
1 – موطن المغول، أصلهم وبدايات غزوهم للعالم الإسلامي.....108
1-1 نظرة عامة في حياة المغول وأصلهم.....108
1-1-1 موطنهم.....108
1-1-2 الأصول العرقية للمغول.....109
1-1-3 الحياة الاجتماعية، السياسية والعسكرية للمغول.....112
1-2 تكوين الإمبراطورية المغولية وبدايات زحفها على البلاد الإسلامية.....115

1-2-1 جنكيز خان " إمبراطور البشر" وبداية تكوين الإمبراطورية.....115
1-2-2 دوافع الزحف المغولي على العالم الإسلامي.....118
1-2-3 الاجتياح المغولي للدولة الخوارزمية.....121
2- نماذج من ردود الفعل الإسلامية على الغزو المغولي للمشرق الإسلامي
2-1 الجبهة الخوارزمية: الخوارزميون بوابة العالم الإسلامي في مواجهة مباشرة مع المغول..127
2-1-1 رد فعل الخوارزميين في عهد السلطان علاء الدين (615هـ- 1218م/ 617هـ-1220م).....127
2-1-2 المواجهة الخوارزمية- المغولية بعد السلطان علاء الدين (617هـ-622هـ/ 1220م-1225م).....131
2-1-3 الجبهة الخوارزمية من إعادة بناء الدولة إلى زوالها – عهد جلال الدين منكبرتي- (622هـ-628هـ/ 1225م- 1231م).....138
2-2 جبهة مصر فلسطين، المماليك ينهون قصة الغزو المغولي على العالم الإسلامي.....142
2-2-1 المماليك واعتلائهم عرش السلطة بمصر (648هـ/ 1250م).....142
2-2-2 موقف المماليك من الزحف المغولي على بغداد وبلاد الشام (656هـ/1258م).....145
2-2-3 موقعة عين جالوت ونهاية قصة المغول (658هـ/ 1260م).....150
الفصل الرابع: الدراسة المقارنة بين العدوان الصليبي والمغولي على المشرق الإسلامي (490هـ- 658هـ/ 1096م- 1260م).....157- 194
1- من حيث دوافع العدوان وأسبابه.....157
1-1 الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي.....157
1-2 أحوال الصليبيين والمغول قبيل العدوان.....161
1-3 وحدة الهدف ضرورة لتوحيد الجهود خلال العدوان.....164
2- من حيث ردود فعل المدن الإسلامية ومقاومتها للعدوان.....167
2-1 مدن الشام والجزيرة ومصر.....167
2-2 مدن شرق العالم الإسلامي (من بلاد ما وراء النهر إلى العراق العجمي).....173
2-3 موقف الخلافة العباسية من العدوان.....176
3- من حيث نتائج العدوان وآثاره على المسلمين والصليبيين والمغول.....178
3-1 الأثر الاقتصادي.....178

3-2 الصراع الديني.....183
3-3 التفاعل الاجتماعي.....189
الخاتمة.....196
الملاحق.....201
الملحق رقم: (01) خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت داعيا إلى الحروب الصليبية 202
الملحق رقم: (02) رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة 655هـ/ 1257م.....203
الملحق رقم: (03) رسالة هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب بعد سقوط بغداد وقبل زحفه على سورية وقد كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسي.....204
الملحق رقم: (04) خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان إلى سلطان المماليك بمصر سيف الدين قطز قبيل معركة عين جالوت 204
الخرائط 205
الخريطة رقم: (01) شمال بلاد الشام 206
الخريطة رقم: (02) العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي 207
الخريطة رقم: (03) الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها.....208
الخريطة رقم: (04) الإمارات الصليبية المؤسسة في بلاد الشام والجزيرة.....209
الخريطة رقم: (05) المواقع التي هاجمها المغول في الدولة الخوارزمية.....210
الخريطة رقم: (06) مخطط معركة عين جالوت 658هـ/ 1260م.....211
الخريطة رقم: (07) الاتصالات بين آسيا وأوروبا في عصر المغول.....212
الخريطة رقم: (08) الطرق التجارية عقب غزوات المغول (1245م- 1345م).....213
الفهارس العامة.....214
فهرس الأماكن الجغرافية.....217
فهرس الأعلام.....224
قائمة المصادر والمراجع.....231

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية